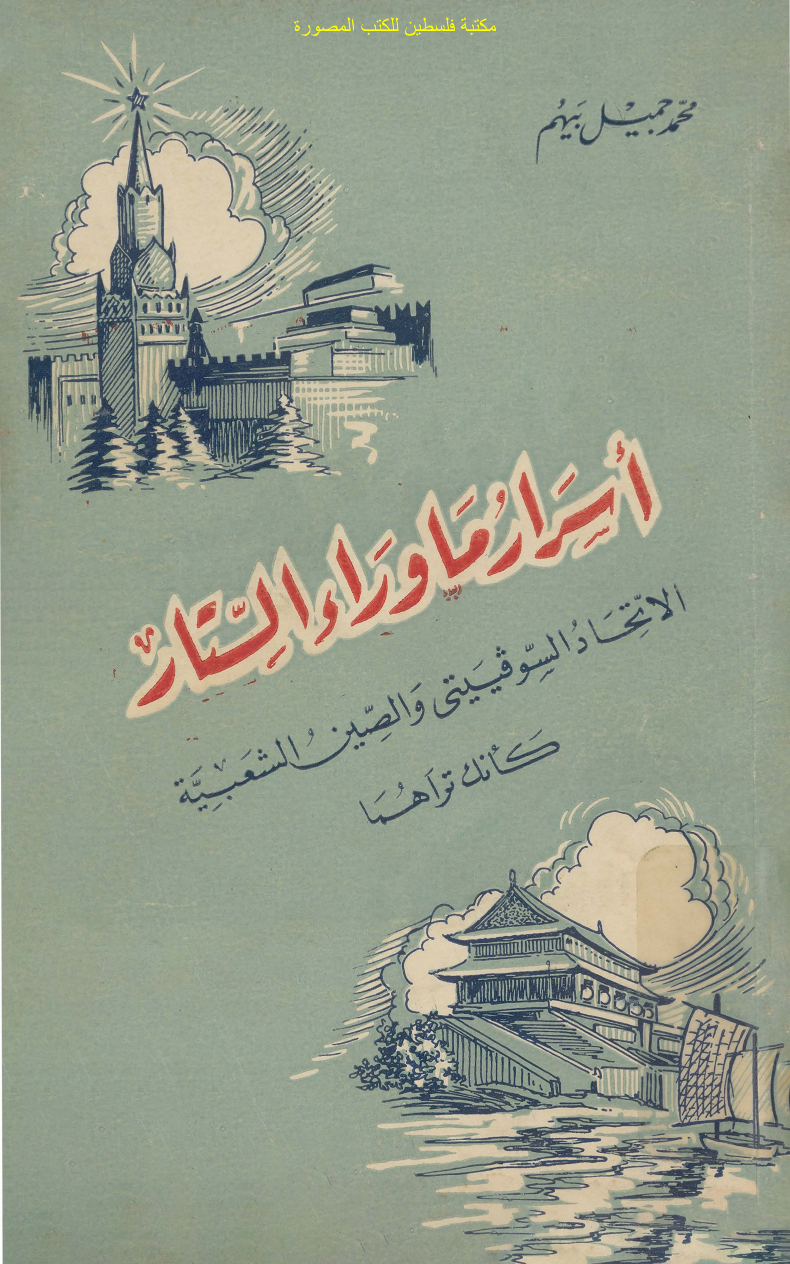

محمّد جميل بيهم
أسرار ما وراء الستار
الاتّحاد السوڤيتي والصّين الشعبيّة
كأنك تراهما

محمد جميل بيهم

أسرار ما وراء الستار

الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية كأنك تراهما

دراسات تلتزم الصراحة الكاملة ، والحياد التام ، وتتناول الشؤون العربية والاسلامية في كل من الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية .

بيروت

مقدمة الكتاب

بحران متلاطمان بينهما برزخ لا يبغيــان ، هكذا تقف الكتلتان : كتلة الاتحاد السوفييتي وكتلة الدول الغربيـة الديموقراطية من بعضها البعض تتحين كل واحدة منهما الفرص للانقضاض على الاخرى في حرب لا تبقي ولا تذر . وقـد كان من نصيب بلاد العرب ان تقع ، الى حين ، في ما وراء المحيط السوفييتي ، وان لا تعلم شيئاً عن اسرار هـذا المحيط الا ما تنشره الاذاعات والمطبوعات الغربيــة التي كانت تصوره جحيما على الأرض مثل جحيم السماء .

وظل الأمر كذلك الى ان رفع الاتحاد السوفييتي ستاره الحديدي الذي كان قائماً فوق البرزخ واخذ يدعو النـاس الى زيارة بلاده والاطلاع على نتائج مجهوداته . وقد وجه الدعوة في مستهل عمله الى المؤيدين له والمتأثرين بمباديــه

حتى اذا لبوا الدعوات اضفى عليهم بأنواع الاكرام. ولما عادوا الى بلادهم عادوا مبشرين يصورون حياة الاتحاد السوفييتي والبلاد التي تدور في فلكه على شكل نعيم تقرّ فيه الاعين ، وتطيب الانفس .

وبين هذا وذاك وقع الناس في بلبلة من الاعتقاد لا يعرفون اذا كان هناك جحيم ام نعيم ؛ غير انهم كانوا يميلون الى الاعتقاد ان هؤلاء الرواد الاولين اما ان يكونوا مأجورين ، او انهم لم يروا بعين الرضا الا ما شاءت موسكو ان تطلعهم عليه . وانا كنت في عداد هؤلاء المرتابين .

ثم أسعفني النصيب ، في اواسط سنة ١٩٥٧ لأن اتلقى دعوة من موسكو ، واخرى من بكين لزيارة البلدين ، فترددت في اول الامر خيفة ان اتهم بأني من انصار الشيوعيين . ولكني جنحت اخيراً الى قبول الدعوتين ، حباً بالدرس وبغية استجلاء الحقائق ، اذا كان هناك جحيم ام نعيم .

وقد كتبت اثناء الرحلة مذكراتي بقلم حيادي حر صريح ، فأثنيت فيها على ما يستحق الثناء ، وانتقدت ما بدر لي انه جدير بالانتقاد ؛ وصفت هذه المذكرات كتاباً جاء على جزأين ، اولهما يمر مروراً ببلغاريا ورومانيا ويتناول الاتحاد السوفييتي ، ومنه جمهورية اذربيجان ؛ وثانيهما يلمّ بسيبريا ومنغوليا ويسهب في الكلام عن الصين الشعبية . على اني

اعتقد ان هذا الكتاب لن يحظى برضاء الكتلتين وانصارهما؛ ذلك لأن الغربيين منهم ومن لف لفهم سيجدون فيه مديحاً للشيوعيين لا يتفق مع مباديهم ، ولأن الشيوعيين سيعثرون فيه على نقد وتجريح لا ترتاح اليها نفوسهم . ولكني اذ اكتب لأرضاء نفسي فحسب ، واكتب دون ان التمس فائدة مالية من انتشار الكتب ، ودون ان انوخى الحظوى عند احد الفريقين فاني اجد نفسي مرتاح الضمير .

على اني قد اكون اخطأت في بعض الانتقادات ، او اسرفت في بعض الثناء ، فعذري اني دونت ما اعتقد دون تحيز ولا غاية . ولا شك ان من يكتب دون تحيز ، هو ، ولو اخطأ في بعض آرائه ، خير من يكتب لارضاء فريق من القارئين .

واني قد توخيت في كتابي عن كل من الاتحاد السوفياتي والصين الاشارة الى ما كان لهما ، في التاريخ وفي الحاضر ، من صلة بالعالمين العربي والاسلامي ، هذا فضلاً عن التنويه بموقف كل منهما حيال العروبة والاسلام .

فجاء هذا الكتاب ، على ايجازه ، صورة بارزة للبلدين صورت بريشة حيادي تتناول احياناً مـــا يهم القارىء العربي الاطلاع عليه من حيث علاقتها بالقومية العربيـــة وبالدين الاسلامي .

هذا وقد اشرت في صدر الكتاب الى ان الحقوق محفوظة للمؤلف لأني لا اود ان يجعل احد من انصار المعسكرين : الشرقي

والغربي ، من هذا الكتاب سلاحاً له في الحرب الباردة المنتشبة بين هـــذين المعسكرين بنشر بعض فصوله التي تتفق مع غايات الناشر دون البعض الآخر ، ذلك لاني لا اعادي احداً منهما ، بل اصادق من يصدق في معاونة قومي وبلادي دون اي نظر الى مباديه وعقيدته . على اني لا ارى مـع ذلك خيراً في مصادقة يتبعها اذى ، ولا ارى براً في اية معاونة مبطنة بالاستعمار .



الجزء الاول

الاتحاد السوفييتي



تمثال ف . لينين امام قصر سمولني في لينينغراد

الفصل الاول

في الطريق الى موسكو

ملحوظات عابرة

دعتني مؤسسة فوكس في موسكو لزيارة الاتحاد السوفييتي، وهي مؤسسة للعلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفييتي والبلاد الاجنبية، فلبيت الدعوة حباً بالاطلاع عن كثب على ما وراء ما كانوا يسمونه الستار الحديدي، وبغية التحقيق فيما بين يدي من كتاب موضوعه «الصراع بين المعسكرين الغربي والشرقي واثر هذا الصراع في البلاد العربية والاسلامية.»

وقد غادرنا بيروت صباح الاحد في الساعة ٨،٤٠ على طائرة من شركة K. L. M. هبطت اولاً باثينا في الساعة ١١،٣٠، ثم في صوفيا في الساعة الرابعة بعد الظهر.

بلغــــاريا

صوفيا عاصمة البلغار

كان الأمل ان ننتقل عند وصولنا الى عاصمة بلغاريا الى طائرة سوفييتية تقلنا الى موسكو ، ولكنا اضطررنا ان نبيت في صوفيا على انتظار الطائرة . ولما كان جواز السفر لا يحمل اشارة الدخول الى بلغاريا اضطررنا ايضاً ان نبقى ليلتنا في فندق المطار ؛ وكان خالياً إلا من امرأة تدير شؤونه . وما ان تلقفنا في صباح اليوم التالي الى مؤسسة فوكس في المدينة حتى انتدبت سيدتين لاستقبالنا ،زودتين باجازة من وزارة الداخلية لزيارة صوفيا . وقد قضينا اليوم كله فيها نتفقد معالمها حتى اذا جن الليل عدنا الى فندق المطار ، وبتنا فيه ليلة اخرى .

وكان علينا حين دخلنــا صوفيا ان نبدأ بزيارة مؤسسة فوكس في دارها الفخمة ، وقد تناولنا الشاي وانواع الفواكه مع رئيستها تزوبا دراكو اتوكيفا وبعض اعضائها . والرئيسة عضو في احد مجالس الدولة مثقفة تثقيفاً عالياً ، وهي مــع اعضاء المؤسسة وموظفيها ، وفخامة دارها دليل على ما لهــذه المؤسسة من مكانة رفيعة في الدولة .

ثم زرنا المدينة صحبة السيدتين اللتين انتدبتا لاستقبالنــا وقضينا النهار في ضيافة المؤسسة ، فاذا بنا نرى صوفيا مدينة متسعة الطرقات حديثة العمران ذات بنايات كبيرة وكنائس ضخمة ، وهي تزداد جمالاً بكثرة ما فيها من حدائق عامة ، وبما في هذه الحدائق من تماثيــل تذكارية وانصاب . وتعتبر

كاتدرائية القديس اسكندر نوفسكي الممتازة بهندسة هيكلها الخارجي، وبزينتها الداخلية من أنفس صروح العاصمة . وقد صادفنا فيها وفوداً وافراداً آتين للتفرج عليها وبينهم بعض فلاحي البلاد ؛ وما تكاد تراهم ، وتشاهد البستهم حتى يوحى اليك بأن اهل القرى لا يزالون على ما كانوا عليه في عهد ال عثمان من التأخر .

على ان مدينة صوفيا وان اصبحت لا تقل عن العواصم



كاتدرائية القديس اسكندر نوفسكي في صوفيا

الأوروبية جمالاً وعمرانا الا ان تخلفها ماديا لا يزال يبدو فيما تراه بارزاً على البسة السواد الاعظم من الشعب .

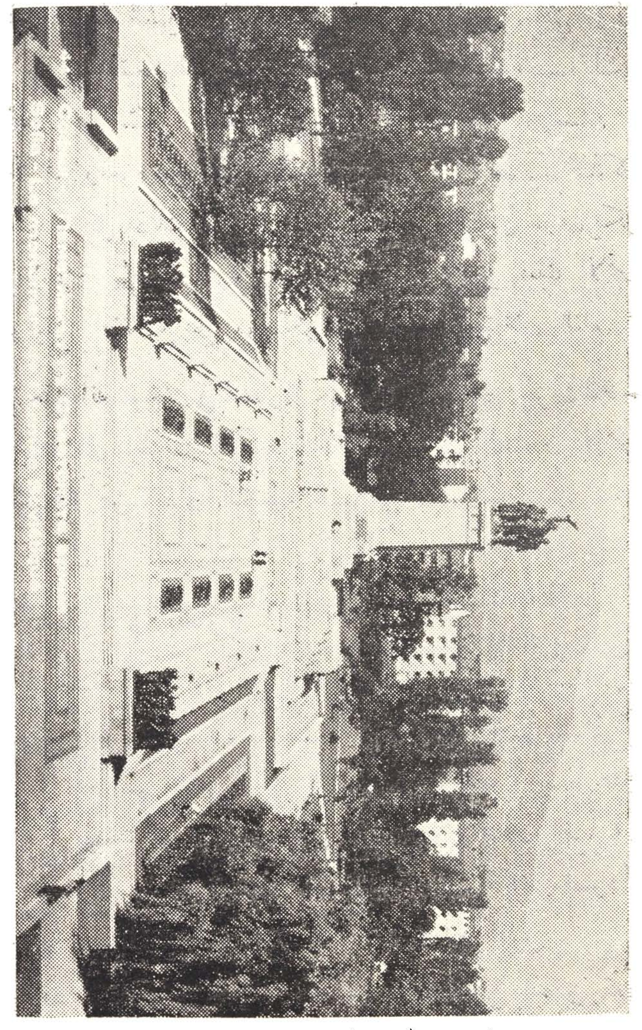
درجة ارتباط بلغاريا بالاتحاد السوفييتي

كانت سنة ١٩٤٧ طافحة بانباء الانتفاضات التي وقعت في شرقي اوروبا ضد روسيا ، ولا سيما في بولونيا والمجر ، وذلك رغبة في الاستقلال . فطاب لي وانا في بلغاريا ان اعلم مقدار تمسكها بالاتحـــاد السوفييتي ، فاذا بي ألاحظ ان بلغاريا هي اشد الدول ، التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي ، حفاظاً على الارتباط به . ويرجع ذلك الى ذكرياتها الطيبة للروس التي لا تزال تحتفظ بها لأنهم حرروها تباعاً من السلطنة العثمانية .

وآية هـــذا الارتباط الوثيق لا تقوم فقط على النجمة الحمراء الشيوعية المرفوعة فوق كل مكان حكومي في صوفيا ، ولا على تسمية شوارعها الكبرى باسماء روسي ولينين وغيرهما من اقطاب الروس ، ولا على التماثيـل الكثيرة المنصوبة في ساحاتها وحدائقها لأبطال السوفييت وذكرياتهم ، وانما تقوم على ما رفعت بلغاريا من تماثيل وانصاب تذكارية للمنقذين الروس الذين حرروها من آل عثمان سواء اكان ذلك في العاصمة ام في غيرها من المدن والانحاء .

فقد شيد البلغار اجمل كاتدرائية في عاصمتهم واسموها بإسم احد هؤلاء المنقذين اسكندر نوفسكي اعترافاً بجميله ، وذلك في افضل بقعة من المدينة . كما رفعوا تمثالاً فخماً ، في مكان آخر ، للمحررين المنقذين ، وتمثالاً آخر عالياً تلتف حوله تماثيـــل متعددة يدعى تمثـــال الجيش السوفييتي . ثم لم يقتصروا في

الاعراب عن شعورهم للروس على صوفيا ، بل اقاموا في المدن



تمثال الجيش السوفييتي في صوفيا

الكبرى والضواحي انصاباً غيرهـــا للروس وكنائس . ففي بلافنا المدينة الشهيرة في احدى الحروب الاخيرة التي وقعت بين روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية شيدوا مدفنـــاً لشهداء المنقذين على شكل رائع ، وفي شبكا انشأوا ديراً روسياً . هذا فضلاً عما رفعوه على قمم بعض الجبال من الانصاب التذكارية لروسيا . كل ذلك يحمل على الظن بأن شعب البلغار سوف يكون في مؤخرة شعوب شرقي اوروبا التي تعيش في فلك الاتحـاد السوفييتي انتفاضة على موسكو في سبيل الاستقلال التام.

حقاً انه يوجد في بلغاريا حزب آخر يدعى حزب الفلاحين بالاضافة الى الحزب الشيوعي الا ان حزب الفلاحين لا يخرج في الواقع عن نطاق التوجيه الشيوعي .

المسلمون في بلغاريا

لما استقلت بلغاريا عن السلطنة العثمانية بعض الاستقلال ، بمقتضى معاهدة برلين ، واصبحت امارة تتمع بالحكم الذاتي كان عدد المسلمين فيها يناهز مايتي الف شخص ونيف ، وسقط عددهم تدريجياً بعد جلاء العثمانيين حتى بلغ ماية وخمسين الفاً ، ثم مني المسلمون بالمزيد مـــن الاضطهاد ، وكان ذلك مقصوداً ، فهاجروا منها ، ولم يبق منهم الآن الا العدد القليل .

وقد شاهدت في صوفيا مسجدين في بقعة من احسن بقعها ، احدهما لا يزال معداً للصلاة ، ولكنه يكاد يكون مهجوراً ،

والآخر حولته الحكومة الى متحف . ولكنها امعاناً في التعصب من جراء ما كان بينها وبين الترك الحكام القدماء من بغضاء تعمدت صنع شبابيكه على هيئة الصلبان .

بخارست عاصمة رومانيا

غادرنا صوفيا في الساعة ٧،٤٠ من يوم الثلاثا في ٣ ايلول ١٩٥٧ على طائرة روسية قاصدين الى موسكو . والطائرات الروسية المعدة للنقل والتجارة كثيرة العدد . وكنا نراهـا كالفراش المبثوث رابضة في كل مطار ، ولكنها كلها من نوع اليوشن صغيرة الحجم لا تتجمل بأية اناقة . بيد ان طياريهـا متمرنون بحيث ان المسافر لا يلبث ان يطمئن اليهم بعد ان يساوره الخوف من ركوبها .

ولما حطت بنا الطائرة في مطار بخارست عاصمة رومانيا ، وذلك في الساعة ٨،٤٠ ، استقبلنا عند مدخله تمثالين احدهمـا للينين والآخر لستالين اسوة بكثير من مدن الاتحاد السوفييتي . وقد شئنا ان نشتري من مطار بخارست بعض الهدايا ، ولكنا لم نجد بين المعروضات في واجهاته ما يستحق الاقتناء ، الأمر الذي يحمل الزائر على الاعتقاد ان الصناعات الرومانية لا تزال متخلفة ، والواقع ان رومانيا ، وان كانت تبـدو مقصرة في الصناعات اليدوية ، الا انها سجلت في عهدها الحديث ، تقدمـاً محسوساً في الصناعات الميكانيكية .

في اجواء الاتحاد السوفييتي ومطاره

غادرت الطائرة بخارست في الساعة ٩،٤٠ ، وحطت بنا في مطار موسكو في الساعة ٥،٤٠ بعد ظهر نهار الثلاثاء نفسه . وكنا اثناء سفرنا نلاحظ من علٍ التبدل في مناظر القرى والمزارع بالنسبة للبلاد الاوروبية والاميركية وغيرها ، ذلك ان القرى في الاتحاد السوفييتي تشاد على شكل مجموعة دور كبيرة كالثكنات مصطفة الى جانب بعضها البعض بخطوط مستقيمة . وتتسع كل دار لسكن كثير من العائلات ، تتخذ كل عيلة شقة منها . هذا فضلاً عما كنا نراه ، بين الفينة والفينة ، في المزارع من كوم كبيرة مستطيلة ، وهي اكداس من التبن المدخر في اراضيها من قبل التعاونيات .

ومطار موسكو المسمى بيكوفو يبعد عن المدينة ٣٢ كيلومتراً ، وهو وان كان دون مطار بيروت في الفخامة غير انه يشير الى احترامهم الشعب ، وذلك بما فيه من قاعات معدة لانتظار المسافرين مفروشة بمقاعد وثيرة من الجلد ، ومزودة بالمطبوعات .

حقاً ان في مطار بيروت مقهى انيقاً ومطعماً رحباً ، ولكن المقهى معد للموسرين بينما ان سائر الناس ليس لهم الا بعض المقاعد الخشبية القليلة في بهو المطار .

والطريق من مطار موسكو الى المدينة هو دون طريق مطار بيروت جمالاً وانتظاماً . وفضلاً عن الفرق الكبير فيما بين

الشارعين من اتساع ، وفي تجميلها وتعبيدهما فان شطراً كبيراً من الطريق الى موسكو محروم من الأنوار وذلك ابتداء من المطار الى مقربة من جامعة موسكو .

ولعل البلدية والحكومة اهملتا هـذه الناحية من جراء انصرافهما الى بناء الدور سداً للفراغ الكبير الذي يوجد في المساكن الشعبية ، ولا سيما بالعاصمة . فقد انشأت الحكومة مؤسسة خاصة لاعمار موسكو وتجميلها ، وضعت لهـا برنامجاً لسنين ١٩٥١ – ١٩٦٠ مداره انشاء صروح كثيرة ضخمة في اطراف العاصمة ، ومخازن كبرى ومدارس ومستشفيات ودور للغناء وملاعب للرياضة ومسارح تتفق مع حاجـة موسكو نظراً لازدياد سكانها المطرد . وبمقتضى هذا البرنامج فانك مـا ان تغادر مطار بويكوفو وتدنو من مقر الجامعة القائم على ربوة مرتفعة ثمانين متراً عن مستوى نهر موسكوفا حتى ترى ، في الناحية الجنوبية الغربية ، مدينة كلها جديد على مسافة ١٨٠ الف متر حافلة بالمعاهد العلمية والمؤسسات الخيرية والحـدائق والملاعب بالاضافة الى صروح شامخـة اعدت للعمال وكأنها ثكنـات عسكرية . كما انك اذا غادرت المطار الآخر مطار فنوكو الواقع في ناحية أخرى وأشرفت على مقربة مـن العاصمة ترى مدينة أخرى من هذا القبيل .

وقد ألفت نظري ، ونحن في طريقنا الى الفندق ، ليس هذه الصروح المتراصة فحسب ، وانما استمرار العمل الجدي لاقامـة

المزيد منها حتى انك اذا رأيت (الونشات)، تلك الابراج الحديدية التي اعدت لرفع الأثقال الى الطوابق العليـا من المنشآت، تحسبها لكثرتها غابات .

اوتيل اوكرانيا

اختار مضيفونا لنا منزلاً اوتيل أوكرانيـا . وهو صرح كبير يشرف على نهر موسكوفا مؤلف من اربعه عشر طابقاً عدا الطوابق الأخرى التي تعلوها ابراج فوق بعضهـا البعض وفقاً للهندسة الروسية، وفيه ١٠٢٧ غرفة .

واذا دخلت الى ساحـــة الفندق تكاد تحسب نفسك في مدينة مستقلة اذ ترى على جوانبها شعبة للبريد وشعبة اخرى للبنك ومخازن للتحف ودكاناً لبيع الكتب والصحف، هـــذا بالاضافة الى دوائر الفنـــدق المختلفة من مطاعم ومكاتب وصالونات .

وقد تساءلت عن السبب في كثرة مصاعد هـذا الفندق، وما الداعي لوجود ستة منها . ثم لم البث أن علمت السبب حينما تبين لي شيء لم اكن رأيته من قبل، وهو ان هـــذا الفندق ليس له سلالم يصعد بها الى طوابقه، وانما يصعد اليها المسافر بالاسانسورات فحسب .

وكان نصيبي شقة في الطابق الثامن تحمل رقم ٨٨٧ .قلت

شقة ولم اقل غرفة لأنهـــا أشبه شيء بدار مستقلة مفروشة بأثمن الرياش ، وفيهـا جهازان للراديو في كل غرفة جهـــاز وتلفزيون . وحسبي في وصف هـذه الشقة ان اقول دون مبالغة انني كنت افضل البقاء في غرفـــة الاستقبال وراء مكتبتي التي تواجه النهر أسمع وأرى فيها التلفزيون افضله على الجلوس في صالونات الفندق .

على ان ما يدهش في هذا الفندق ليست ضخامته ورياشه ونظافته وادارته فحسب ، بل يدهشك نزلاؤه الكثيرون . فاذا جلست في ساحته الفسيحة تحسب انك في برج بابل اذ ترى الابيض والاسود والاصفر والنحاسي . هذا داخل الى الفندق ، وهـذا خارج منه ، وكلهم بأزياء مختلفة . واكثر هؤلاء النزلاء مدعوون لزيارة الاتحـــاد السوفييتي ، او بعثات جاءت للمفاوضة في الشؤون السياسية أم الاقتصادية . واذا علمنا انه كان في هـذا الفندق وحده ست عشرة بعثة فـكم يكون عدد هذه البعثات والوفود اذا احصينا ايضاً ما كان منها في فنادق موسكو الاخرى ؟

وقد تحدثت الى بعض نزلاء الفندق فلمست تحمس اكثرهم للمبدأ الشيوعي بحيث لا يرضون عنه بديلًا ، فقدرت ، من بعد ، كم نجحت الشيوعية في نشر مبادئها بين هذه العناصر المختلفة التي جاءت من كل انحاء آسيا وافريقيا ، فضلًا عن اوروبا .

ومطاعم الفندق كثيرة ، وكلها على احسن حال ، وتعطي

المآكل الطيبة بكرم وسخاء . تدار على زوار الفندق من قبل مضيفات مهذبات نظيفات يمتزن غالباً بالجمال ، ويتمتعن دائماً بحسن الهندام .

وكان هذا الفندق اول بادرة بالنسبة لي لتقدير ما ادرك الاتحاد السوفييتي من تقدم في ناحيتي العمران والحياة الاجتماعية ، خصوصاً واني كنت سمعت كثيراً عن الضيق الذي يعانيه الزائرون من جراء قلة الفنادق ، وحشد المساكن .



الفصل الثاني

موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتي

مناظرها ـ اقتصادياتها ـ معاهدها ـ متاحفها ـ النظام الاجتماعي بالاتحاد السوفييتي

مدينة موسكو

كانت سان بطرسبرج عاصمة الدولة في عهـــد القياصرة ، ولكن الشيوعيين سرعان ما اختاروا موسكو لتكون عاصمة الاتحاد السوفييتي منذ سنـة ١٩١٨ . وهي كبرى المدن في المنطقة التي تسمى روسيا . تقع في وسط السهل الكبير الممتد ما بين نهري اوكا وفولكا .

وقد شاء الشيوعيون مذ اتخذوا موسكو عاصمة لهم ان تتناسب مرتبة هذه المدينـــة في العمران مع منزلة دولتهم في المكانة السياسية ، فاستطاعوا ، خلال الاربعين سنة من حكمهم ، ان يبدلوا معالمها وينشؤوها نشأ جديداً .

وضعوا سنة ١٩٣٥ التصميم العام لبناء موسكو الجديدة ، فشقوا الشوارع ، واقاموا الجسور على نهر موسكفا والسدود ، ووصلوا بين نهري فولكا ودون حتى اصبحت مرفأ كبـيراً دون ان تكون على البحر . وزادوا في اتساعهـا وفي تعمير احيائها حتى بلغت مساحة دور سكنها نحواً من ٣٧٫٤ مليون متر مربع بعد ان كانت مساحتها في سنة ١٩١٣ لا تتجاوز ١٢ مليون متر مربع ، وحتى بلغت مساحة المدينـة ٣٣٠ كيلومتراً .

والى هذا فقد عني السوفييت ، بعد الحرب العالمية الثانية ، عناية فائقة ، بشؤون موسكو الاقتصادية والثقافية . فاصبحت تضم الآن اكثر من ١٥٠٠ مؤسسة صناعية يزيد انتاجها ٦١ مرة عن عام ١٩١٣ . كما انها اصبحت الآن تضم ٨٦ مؤسسة للتعليم العالي ، بينما لم يكن في موسكو القديـة اكثر مـــن عشرين مؤسسة من هذا القبيل . وبالتالي ازداد عدد طلابهـا ١١ ضعفاً .

وبفضل هذه الجهود أصبحت موسكو مدينة عظيمة تبدو لك عظمتها مذ تجوب في انحائها : عظيمة باتساع طرقهـــا ، ووفرة حدائقها ، وكثرة صروحها الكبرى ، وانتشار التماثيل في

انحائها . هذا فضلاً عن وفرة عدد مخازنها الكبرى ، وكثرة سكانها . وبمقتضى احصاء سنة ١٩٥٦ بلغ عدد سكانها ٤،٨٣٩،٠٠٠ نفساً .

ولكن موسكو لا تزال حتى الآن دون باريس ونيويورك ولندن عظمة ، ودون كثير غيرها من العواصم . لأن اكثر احيائها باق على ما كان في عهدها القديم ، ولأن الصروح الكبرى ، على كثرتها ، ولا سيما ناطحات السحاب ، لا تزال فيها كواحات في سهل .

غير ان الانارة ليلاً في موسكو قد تمتاز على سواها من العواصم ، فالنور فيها شديد حتى تبدو في الظلام كأنها شعلة من نار . فقد عني السوفييت بسحب قوى الغاز من مسافة تبعد ٨٠٠ كيلومتر . وهم يعنون الآن بسحب قوى اضافية من مسافة ١٣٠٠ كيلومتر قصد ان تصبح الطاقة الكهربائية قريباً عشرين ضعفاً عما هي الآن . وذلك ليس لسد الحاجة للأنارة التي تتزايد مع اتساع العاصمة المطرد فحسب ، بل تأميناً لحاجة المعامل الصناعية التي تتكاثر ايضاً سنة بعد سنة .

ويزيد في جمال موسكو نهر موسكفا الذي يخترقها ويقسمها الى قسمين غير متساويين في الحجم . ويتراوح عرضه ما بين ماية وخمسماية متر .

وتقسم موسكو الى ٢٥ دائرة على رأس كل منها حاكم من اعضاء مجلس السوفييت ، وحكامها تابعون الى مجلس السوفييت لنواب عمال موسكو ، ويرجعون مباشرة الى هيئة

هذا المجلس التنفيذية . وقد بلغت ميزانية موسكو في سنة ١٩٥٧ : ٦٬٧٥٥٬٠٣٥٬٠٠٠ روبلا . وتقدر قيمة الروبل الآن بعشرين غرشاً لبنانياً .

على ان موسكو تعتبر بالنسبة لاتحاد الجمهوريات السوفييتي ليست عاصمة فحسب ، بل مركزاً رئيسياً لصناعاته وثقافاته ولشؤونه الاجتماعية . لذلك فهي ، على كثرة المصانع المختلفة فيها ، مليئة بالمتاحف ودور العلم والجامع العلمية والمعارض والحدائق ، وجنائن الحيوانات ، فضلاً عن المسارح المختلفة ، والاندية الرياضية .

هذا وقد كانت مؤسسة فوكس الثقافية التي دعتنا لزيارة الاتحاد السوفييتي قد عينت لنا رفيقاً وترجماناً عهدت اليه بان يكون دليلنا في زيارة معالم المدينة ومؤسساتها . وهو طالب من طلاب احدى المؤسسات العلمية اسمه اسكندر ستولياروف يحسن اللغة الافرنسية ، ويمتاز بخفة الروح والادب . وعند المؤسسة ادلاء كثيرون ممتهنون من الشباب والشابات ، ولكنهم غير كافين بالنسبة لوفرة عدد الوفود التي ترد على التوالي لموسكو مدعوة من اللجان المختلفة ، لذلك كانت المؤسسة تستعين بطلاب مدارس اللغات الاجنبية لمرافقة الضيوف .

وقد عرض علينا دليلنا ساشا ، وهو الاسم المصغر لاسكندر ، ان نطوف باديء ذي بدء ، في انحاء موسكو للترويح عن النفس وقصد القاء نظرة عامة عليها فتقبلنا اقتراحه ، ثم شرعنا منذ صباح اليوم التالي بزيارة معاهد المدينة واحداً واحداً وحدائقها

ومتاحفها ، واذا جن الليل كنا نرتاد المسارح المختلفة . كل ذلك وفقاً للبرنامج الذي وضعته المؤسسة . على انه كان لنا جزء من الاختيار في زياراتنا النهارية والليلية .

والواقع انه لا يمكنني ان احيط بهذه المذكرات بكلما رأيت وزرت ، لذلك فاني اخترت الاكتفاء بالكلام عن الاهم منها دون المهم ، على ان اقدم شيئاً من المعلومات العامة لما اذكره .

التعليم في روسيا - وجامعة موسكو

اقام الاتحاد السوفييتي ، بمقتضى المادة ١٢١ من الدستور ، لشعوبه حقاً على حكوماتها في التعلم . وتحقيقاً لذلك جعل التعليم الابتدائي مجانياً ، ووضع نظاماً لمجانية تعليم العشر سنوات اشفعه بنظام آخر المنح التي تعطى للمتفوقين من طلبة المدارس العليا .

وتجاوباً مع هذه المادة فان الشعوب السوفييتية ، التي كان سبعون في المئة منها أميين ، أقبلت من بعد على المدارس حتى اصبح عدد الطلاب الذين يدرسون دراسات مختلفة خمسين مليون طالب . وقد نال منهم ثلاثة ملايين شاب وشابة شهادات البكالوريا خلال اعوام ١٩٥١ — ١٩٥٥ ، فافضت هذه التدابير من ثم الى ارتفاع مستوى البلاد العلمي ارتفاعاً كبيراً .

وتجاوباً مع هذا الاقبال اهتمت الحكومات بأعداد

المدارس العليا ، بالاضافة الى المدارس الابتدائيـــة في ٢٢٥ مدينة حتى اصبح عددها ٧٢٧ مدرسة عالية يؤمهـــا مليونا طالب . والتعليم في هذه المدارس ليس مجانياً فحسب ، بل ان طلابها يتلقون منحاً من الدولة تقدر بقدر نتائج نجـاحهم في المدرسة ، وبمقدار حاجتهم الى المعاونة الحكومية . وهذه المنح تتصاعد مع تصاعدهم في صفوف المدرسة .

هذا وقد اعدت المدارس العليا مساكن مجانيـة للطلاب الآتـــين اليهـا من الاقاليم الاخرى . واما اهل البلد ،حيث تكون المدارس ، فقـــد جعلت اجور مساكنهم رمزية ، اذ يؤدي الطالب خمسة عشر روبلًا في الشهر بدلاً عن اقامته في غرفة مفروشة ، وبدلاً عن تمتعه ، مثل غيره ، بكل الخدمات ، وفي عدادها الاسعاف الطبي . والى ذلك فقد اعدت الحكومة مصحات داخلية للطلاب الذين يحتاجون المعالجة . ويقضي الطالب فيها ٢٤ يوماً دون ان ينقطع عن الدراسة ، وذلك باجور متهاودة لا يؤدي الطالب منها الا ٣٠ في المئة . واما الباقي فتدفعه المنظمات النقابية ، كما اعدت لهم دوراً للاستجمام امـا مجاناً او بالاجرة تدفع على غرار مصحات المدرسة .

ونظراً لكثرة عدد الطلاب الذين يقبلون على المدارس العليا فقد انصرفت نية الدولة اخيراً الى ان لا تقبل في هذه المدارس احداً منهم الا بعد ان يمارس العمل في احد المصانع وورش البناء والتعاونيات النقابية « كولخوز » ، او التعاونيات الحكومية « سوفخوز » ومحطات الماكنات والجرارات . والغاية

من ذلك تحديد ميول الطلاب ، والتثبت من قوتهم . وعلى ضوء هذا الامتحان يصار الى اختيار مهنة لكل منهم .

هذا وتعتبر موسكو المركز الرئيسي في النواحي العلمية اذ تضم ٤٤٨ مؤسسة علمية ، و ٧٠ مدرسة ، عالية فيها ١٤ الف استاذ . غير ان جامعة موسكة هي بمثابة المحور لهذا المركز الرئيسي . فكان علينا ان نزورها .

فما هي جامعة موسكو ؟

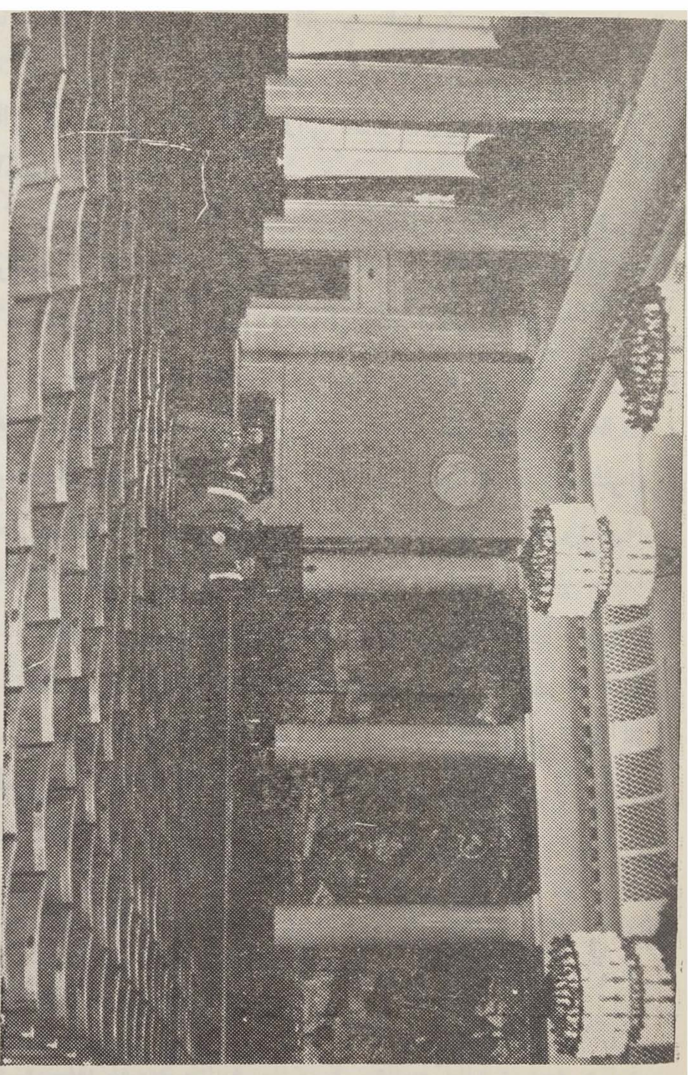
انها مدينة علمية تقدر مساحتها ب ٣٢٠ هكتاراً تقع في طرف من اطراف موسكو على هضبة تسمى جبال لينين . والجامعة مؤلفة من ٣٧ داراً ، منها ما يرتفع الى طابقين او خمسة ، ومنها ما يعلو ١١ طابقاً او ١٧ طابقاً ، وكلها محاطة بالحدائق احاطة المعصم بالسوار . والصرح العظيم الذي يتوسط هذه المدينة العلمية ويتصاعد تدريجياً الى ٣١ طابقاً بارتفاع ٢٤٠ متراً ، يعتبر ارفع مكان في موسكو . ولا يرد ذلك الى ارتفاعه فحسب ، بل لأن البقعة التي بني عليها ترتفع ٨٠ متراً عن مستوى نهر موسكفا . وقد حدثنا الدليل عن الجامعة وروى ان فيها ٤٠ الف غرفة و ١٥٠٠ مختبر حتى اذا دخل اليها مولود في يومه الاول وقضى يوماً واحداً في كل غرفة لا ينتهي الى آخر غرفة منها الا بعد ان يصبح عمره ١١ عاماً .

وما اجمل مدخل هذا الصرح؟ فانك ما تكاد تنتهي من صعود سلمه

الرخامية العريضة حتى ترى ثمانية اعمدة من الرخام الأحمر يعلو كل منها ١٤ متراً ، وحتى تستقبل لوحتين من البرنز نقش على احداهما اسم الجامعة ، وعلى الاخرى مرسوم لينين في صدد انشائها . وترى الى جانب هاتين اللوحتين لوحة ثالثة عليها عبارة (الشعب الخالق) .

بيد ان الجمال يتضاءل امامك عندما تستولي عليك الدهشة اذ تعلم ان في هذا الصرح وحده ٢٢ الف مكان لا تقتصر على دور السكن وصفوف تعليم كل علم وفن فحسب ، بل فيها انواع وانواع من وسائل الترفيه الثقافي . فهناك المتاحف والمعارض والاندية والمراقص والمكتبات والمسارح ودور الرياضة . وهناك ٦٥ قاعة للاستقبال وغيرها مزدانة كلها بالرسوم ، ولا سيما صور عظماء العالم وبينها صورة لأبن سينا . واكثر من ذلك فقد رأيت مسبحاً يسبح فيه الطلاب من شابات وشبان قيل لي انه مدرسة لتعلم السباحة .

وهذا المسبح يقوم في الطابق الاول الى جانب دور الرياضة . والرياضة اجبارية لكل طالب وطالبة من صفوف السنتين الاولى والثانية . واما الطابق الثاني الذي يزدان بهوه الكبير بتماثيل كبار الادباء والعلماء السوفييتيين : تولستوي وبوشكين وغوغول وامثالهم ، ففيه قاعة الاعياد . وكم كان بودي ان يسعفني القلم لوصف هذه القاعة . اما وقلمي يعجز عن ادراك هذه الامنية فحسبي ان اقول انها تتسع الى ١٥٠٠ شخص ، وتزدان بـ ٢٦ عاموداً من الرخام الابيض المتوجة



قاعة الاعياد والحفلات في جامعة موسكو ونحن نزورها

بالتيجان المذهبة . امـــا الثريات الضخمة من الكريستال التي تتدلى من سقفها البديع فهي تثير الاعجاب . واما الأروقـة التي تنبسط على جانبي القاعة والتي تتسع لستمائة شخص فحسبي ان اصفها بانها بهجة للناظرين .

وليس بوسعي ان اصف كل الطوابق الاخرى واحــداً واحداً ، لذلك فاني اقتصر على التنويه بالطابق الأعلى الذي اعد معرضاً للقسم الجيولوجي . فهناك ترى تماثيل العلماء الكثيرين الذين اشتهروا في هذا العلم ، وترى تمثالاً لمحمد ابي ريحان البيروني ، هذا العالم الذي سبق دروين في القول بمبدأ « تنازع البقاء وبقاء الانسب » اذ قرر في كتابه « الجماهر في معرفة الجواهر» نظرية التطور ، وهو قد سبق جرلند وخودوبا في الميزرولوجيا وفي الاشارة الى الوزن النوعي للجواهر والاحجار .

وقد كان سروري كثيراً بتقدير الاجانب لعلمائنــا المبتكرين ، بينما ان العرب أنفسهم لا يعرف السواد الأعظم منهم فضل البيروني وامثاله . وسرني ايضاً اذ رأيت ان الفيلم العربي غزا العالم الغربي وان ابناء الغرب والشرق الاقصى ايضاً قد استعذبوه واقبلوا عليه ، ذلك انني ما اشرفت على مسرح الجامعة حتى فوجئت عند مدخله باعلان عن فيلم مصري اسمه « حب ودموع » لفاتن حمامه كان معــداً للعرض في ذلك الاسبوع .

هذا وتضم جامعة موسكو الآن اثني عشر معهداً يدرس فيها : الفيزيك والكيمياء والميكانيك والرياضيات والبيولوجيـا

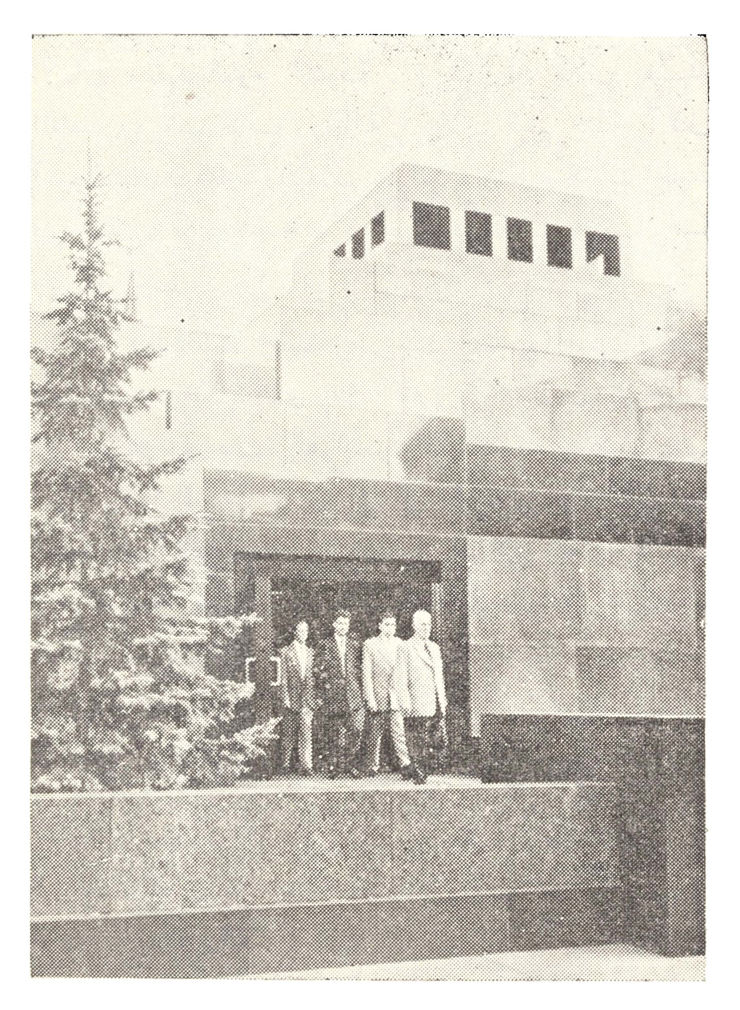
والبيدولوجيا والجيولوجيا والجغرافيا والفلسفة والتاريخ والفيلولوجيا والاقتصاد والحقوق والصحافة ، هذا فضلاً عن الآداب ومعهد العلوم الشرقية . ويبلغ عدد طلاب هذه المعاهد ١٨ الف طالب وطالبة ، يضاف اليهم خمسة آلاف آخرون يتلقون العلوم والآداب بالمراسلة . واما مكتبات الجامعة فهي منتشرة في معاهدها . ويبلغ عدد الكتب فيها خمسة ملايين كتاب .

هذا وقد بنيت الجامعة على شكل هندسي جميل : قلب وجناحان ، والقلب الذي يعلو كثيراً عن الجناحين يتصاعد اهرامياً على درجات كاهرامات المكسيك حتى ينتهي بسهم متوج بزهرة اللوتس . ويقوم في كل زاوية من زوايا الجناحين أبراج صغيرة الحجم تتسامى ايضاً في تصاعدها حتى كأنها تريد ان تبلغ مستوى القلب في العلو ، ولكنها تبقى دونه بمراحل .

مزار لينين وستالين Mausoleé ومدافن العظماء

حملنا معنا الى الاتحاد السوفييتي فكرة خاطئة مدارها ان السوفييت القائمين على الحكم الآن ثاروا على ستالين وقوضوا اركان تماثيله ، ولكننا لم نلبث ان ادركنا ان هذه الشائعات مبالغ فيها ، وان ستالين لا يزال هناك محفوفاً بقدسية لينين اذ رأينا تماثيله تتصدر مداخل كثير من المدن ، وشاهدنا

صوره ترتفع في كثير من القاعات . هذا فضلاً عن ان المقام



(الموزوليه مزار لينين وستالين في موسكو ونحن نغادره)

الذي شيده السوفييت في الساحه الحمراء لهـــذين الزعيمين لا يزال كعبة الشعب السوفييتي .

والساحة الحمراء كانت في القديم المركز الرئيسي للمدينة ، ونقطة المواصلات بينها وبين الامصار الأخرى ، وهي لا تزال كذلك حتى الآن ، بل ازداد شأنها لأن الشيوعيين الحمر اذ احرزوا فيها الانتصار على خصومهم جعلوهـا ، من ثم ، مكاناً لحفلاتهم واستعراضاتهم .

ففي هذه الساحة والى جانب سور من اسوار الكرملين شيد السوفييت ضريحاً فخماً لـكل من لينين وستالين ، وهـو مقام غير كبير في حجمه ، ولكنه ، على صغره وبساطته ، غني ببنائه . وقد غلف برخام اسمر واسود وبصوان وردي تغليفاً يتفق مع المهابة والاحترام .

يصعد الى باب هذا المقام بدرجات قليلة ، ثم ينحدر الزائر الى قاعـة تتصدرها مصطبة مسجى عليها جسما لينين وستالين محنطين ، ويخرج من سلّم آخر . ولما زرت هـذا المقام رأيت جمهوراً كثير العدد يصطف في الساحة الحمراء اربعة اربعـــة كأنهم من طلاب المدارس يمشون الى المدخل ، وينتظر كل منهم دوره للوصول الى الموزاليه وذلك على خط مستقيم يزيد طوله عن مائة متر ، وهم آتون من انحاء الاتحاد السوفييتي . ثم كنت كلما مررت في تلك الناحية ارى مثل هذا الخط من الناس ، وقيل لي ان هـــذا الاقبال على زيارة المقام يستمر طوال السنة ، ولا يستثنى من ذلك ايام الزمهرير ، فقدرت كم

يحفظ الشعب لهذين القطبين مآثيهما في تحريره من استعباد فئة كانت تسيطر في العهود الماضية . وحينئذ تبخرت الفكرة التي كنت احملها عند مجيئي الى روسيا ، تلك الفكرة التي كان يروجها المغرضون ، ومدارها ان ستالين امسى مغضوباً عليه .

وقد قادنا الدليل بعد زيارة الموزليه الى الساحة المستطيلة الواقعة بين الموزليه وسور الكرملين . فاذا بنا نرى هناك شبه حديقة مليئة بأضرحة رجالات الدولة ، واذا بنا نرى في سور الكرملين ، النائم الى جانب الحديقة ، لوحات تحمل اسماء رجالات آخرين من الساسة والقواد ، ووراء كل منها ثغرة في السور تتضمن قارورة جمع فيها رماد جثمان صاحب الذكرى .

الكرملين Kremlin

هذا الاسم يردد ذكره الناس كل يوم في الصحف والاذاعات كلما جاء ذكر الاتحاد السوفييتي ، وربما كان ترداده اكثر من الكه دورسه والدوننغ ستريت والبيت الابيض لأن انباء روسيا تشغل العالم في الوقت الحاضر . ولكني لما زرته لم اجد فيه ما كنت اتخيله من اناقة البناء وجمال الصنعة ، ولم اعثر في الكنائس الكبيرة المشادة الى جانبه ما يستحق الاعجاب لا في خارجها ولا في داخلها . ذلك لأن الكرملين لا يتعدى في هيكله هندسة الثكنات التي كنا نراها خلال العهد العثماني ،

وهو دون قصور سلاطين آل عثمان التي لا نزال نراها في استامبول ، بينما ان بعض كتاب الروس يشيدون كثيراً بعمارات الكرملين التي شيدها امراء الروس في القرون الماضية، شيدوها قلاعاً محصنة على رابية من روابي موسكو يبلغ محيطها ٢٨ هكتاراً ، وكان نهر موسكفا يحيط بها وقتئذ ويزيد في مناعتها .

وللكرملين سور مثلث الزوايا مبني بالقرميد لا يزال يقوم على جوانبه عشرون برجاً متفاوتة العلو : فبعضها يرتفع ٤٦ متراً ، وبعضها يرتفع ٦٧ متراً . وقد رمم هذا السور في ازمان مختلفة كان آخرها عام ١٩٤٧ . وضمن هذا السور يقوم الآن صرحان ضخمان هما القصر الكبير ، وقصر متحف الاسلحة .

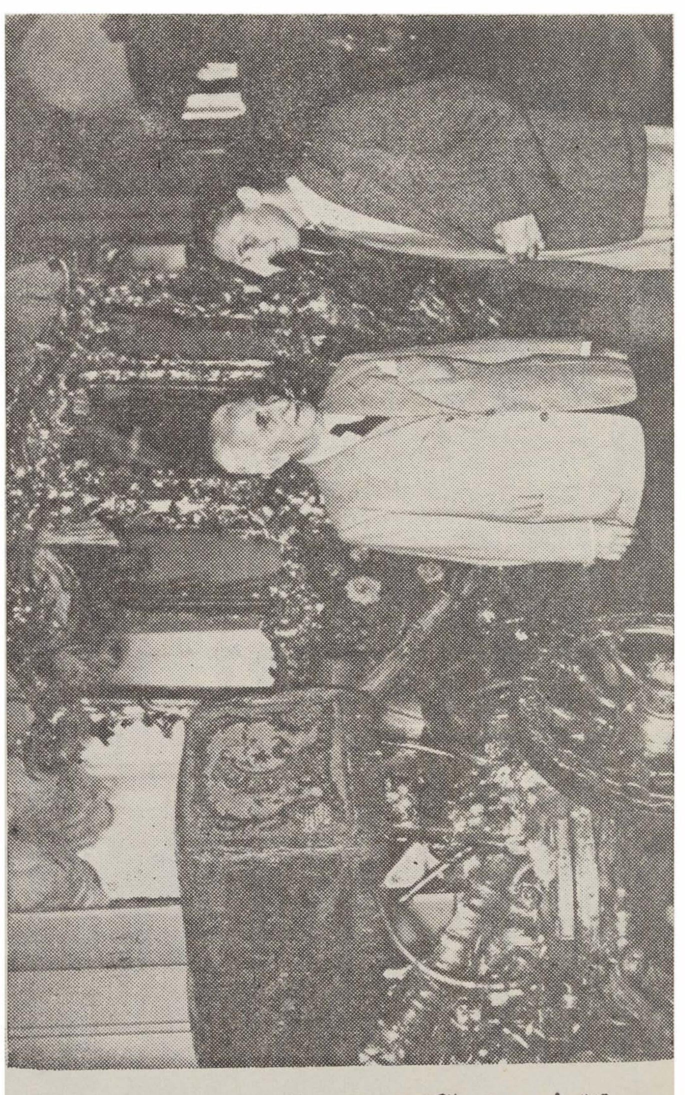
فالقصر الكبير ، الذي بناه القياصرة على ذروة الرابية ما بين سنين ١٨٣٨ و ١٨٤٩ على مساحة ١٢٠ متراً ، اصبح الآن قصراً للدولة تعقد فيه جلسات كل من سوفييت الاتحاد وسوفييت القوميات ، فضلاً عن الدورات المشتركة لهذين المجلسين .

واما قصر المتحف ، المعد لعرض الاسلحة والذي بني في سنة ١٨٥١ ، ففيه مجموعة تاريخية ثمينة لا تقتصر على الاسلحة ، وانما تشمل مخلفات القياصرة ونسائهن والهدايا المقدمة لهم ولهن ، ومخلفات بعض البطاركة وغيرهم من اساطين العهود

السابقة . ويزعم الروس ان محتويات هذا القصر لا مثيل لها في العالم .

وقد زرنا هذا القصر فاذا بالطابق الاول مليء بالاسلحة القديمة على انواعها ، واذا بنا لا نجد فيه شيئاً يجعله يمتاز عن متاحف الاسلحة الاخرى في الدول الكبرى . واما محتويات الطابق الثاني فهي ، في الواقع ، كنز ثمين يصح للروس ان يفاخروا بها . ففي هذا الطابق مجموعة كبيرة نادرة من مخلفات قياصرتهم وامرائهم ونسائهم وبطاركتهم لا تقدر بثمن . وبينها احجار ثمينة ومجوهرات وتيجان وعروش والبسة وهدايا وعربات مذهبة تسترعي الاعجاب . وقد الفت نظري هناك سيف عربي ثمين عليه كتابة عربية ، وبعض النفائس الاسلامية ، ووقفت برهة اتأملها ، ولكني لا اعلم شيئاً عن تاريخها .

ولعل الروس يعنون محتويات هذا الطابق حينما يشيرون الى ان هذا المتحف فيه ما ليس في غيره من النفائس ، ولعلهم ينوهون خاصة بتاج ايفان الثالث ، وصليب بوريس كودونوف ، واثواب بطرس الاول ، ورداء البطريرك نيكون . هذا الرداء المحاك بالذهب واللؤلؤ والذي تبلغ زنته عشرين كيلو . ولعلهم يشيرون ايضاً الى العربة النفيسة التي قدمتها اليزابت ملكة انكلترا الى بوريس كودونوف . وهم في الواقع على حق في المفاخرة بكل هذه التحف ، ولكننا على ما رأينا في متاحف العالم من نفائس أخرى لم نقتنع بأن محتويات هذا القصر هي خير منها في كل متحف آخر .



وقفة في متحف الكرملين مع الرفيق ساشا الى جانب
احدى عربات القياصرة

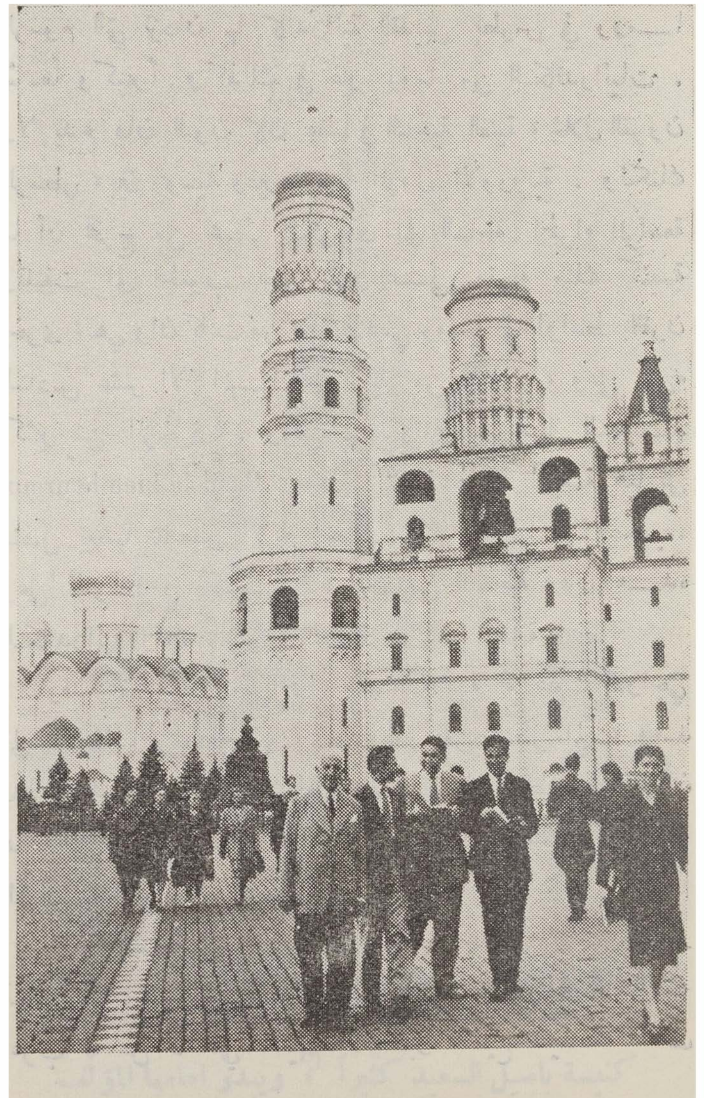
هذا واما الكنائس القديمة التي تقوم الى جانب قصري الكرملين فهي لا تسترعي الاعجاب لا من الخارج ولا من الداخل لسذاجة هندستها وبساطة فنها ، ولكنها ذات قيمة تاريخية بالنسبة للروس ، ولا سيما لأن هذه الكاتدرائيات لها صلات وثيقة بتاريخهم وتاريخ قياصرتهم . وهي ثلاث كنائس متقابلة : كنيسة البشارة ، وكنيسة القديس ميخائيل رئيس الملائكة ؛ وكنيسة انتقال العذراء .

● فكنيسة البشارة هي اقدمها ، وقد شيدت خلال سنوات ١٤٨١ و ١٤٨٤ . وترجع اهميتها الى انها عاصرت جيلًا من القياصرة والامراء فامتزج تاريخها بتاريخهم .

● وكنيسة القديس ميخائيل التي عمرت خلال اعوام ١٥٠٥ و ١٥٠٩ كانت مقبرة للقياصرة وبعض الامراء ، ولا تزال قبورهم فيها مصانة وهي تصطف الى جانب بعضها البعض .

● واما كنيسة انتقال العذراء التي شيدت عام ١٤٧٩ ، وكانت تعتبر في عهد القياصرة اعظم الكاتدرائيات في موسكو ، فيرجع شأنها التاريخي الى أنها كانت المكان الوحيد الذي يتوج فيه القياصرة . وقد رأينا في جوانبها مدافن أفراد بعض كبار رجال الدين الذين لعبوا دوراً هاما في تاريخ الامبراطورية .

وتزدان هذه الكنائس في داخلها برسوم القديسين وبصور بعض الاحداث الدينية التاريخية ، بيد ان تلك الرسوم لا تبدو ، من حيث فن الرسم ، ذات قيمة كبيرة ، وان كانت

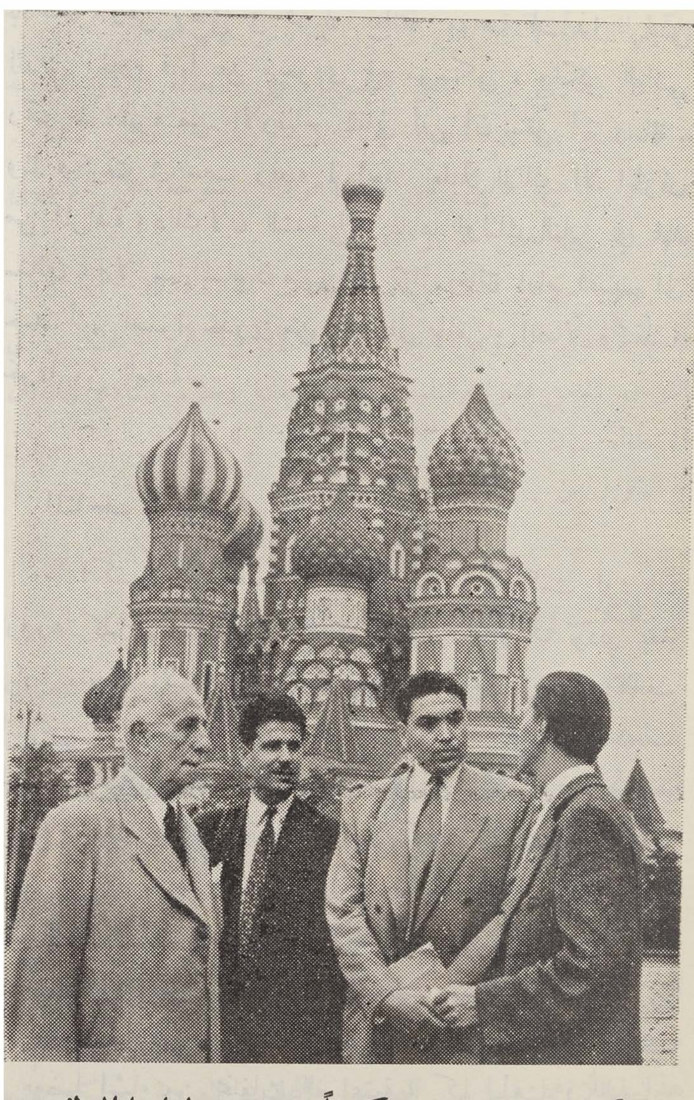


كاتدرائيتان من كاتدرائيات الكرملين

ثمينة من حيث التاريخ فحسب . وقد رأينا الفارق بينها وبين الرسوم التي تزدان بها كاتدرائية القديس بطرس في روما شاسعاً وكبيراً . وكذلك في غير روما من الكاتدرائيات . ولا بدع فان البون كان عظيما في الناحية الفنية ، خلال القرون الوسطى ، بين روسيا وغيرها من الدول الاوروبية . ولكنك ما أن تخرج من محيط الكرملين الى الساحة الحمراء الواسعة وتلتفت الى الجنوب حتى ترى على مقربة منك كنيسة أخرى ، هي وان كانت من عمل مهندسي روسيا في اواسط القرن السادس عشر الا انها على غاية من التفنن ، وعلى شيء كثير من الزخرف . واعني بها كاتدرائية باسيل السعيد Basil le bien heureux . وهي كنيسة ذات اربعة هياكل متصل بعضها بالبعض الآخر بحيث يشكل مجموعها هيئة الصليب. وعلى قدر ما في كنائس الكرملين من البساطة ، فان هذه الكاتدرائية رافلة بالالوان البراقة والزينة الفتانة .

وقد وقفت برهة اتأمل جمال هذه الكنيسة ثم عدت ادراجي الى الساحة الحمراء فاذا بي اشاهد شابا يمعن النظر الي ، وقد بدا لي انه يسأل عني الشرطي المنتصب في وسط الساحة لأن هذا الشرطي لم يلبث ان حول وجهه اليّ بعد ان كلمه الشاب .

ولعل السبحة التي كنت ألاعبها باصابعي كانت مصدر تسائله عني ، فهو مسلم من ازبكستان . فرأيتها فرصة سانحة لأن اعرب له عن صداقتي لمفتيهم الأكبر الشيخ ضياء الدين



كنيسة باسيل السعيد كثيراً ، ويبدو امامها المؤلف
فالاستاذ احمد سويد ، فالدكتور علي سعد ، فالرفيق ساشا

باباخان ، وعن رغبتي في تحميله بطاقة موجهة لهـذا الرئيس الديني اخبره فيها عن وجودي في موسكو ، ولكن القاضي رغم ما اظهره من الارتياح للقائي أبى أن ينقل أية رسالة. ولما فكرت في سبب رفضه لم اجد تعليلاً لذلك الا الخوف من المراقبة ؛ ذلك لأن الشدة التي عاناها اولئك الناس في عهد ستالين ، ولا سيما المسلمون منهم ، لا تزال ماثلة امام اعينهم الى حد أنهم امسوا حذرين من الاتصال بالغرباء اتصالاً وثيقاً ، خوفاً من العاقبة .

المتاحف في موسكو والتحف

ما اكـثر المتاحف في موسكو . وكم كنت اود ان ازورها كلها لو ان في الوقت فسحة اطول . وكان بودي بعد زيارة متحف الاسلحة في الكرملين أن أدخـل الى المتحف التاريخي ، ومتحف لينين في الساحـة الحمراء ، ثم ازور متحف تاريخ موسكو عند ساحة نوفايا ، ولكني كنت على موعـد لزيارة متحف بوكين فانصرفت اليه مكتفياً به . وهذا المتحف الذي بني في سنة ١٩١٢ يعتبر متحفا عالمياً للفنون الجميـلة ذلك لأنه لا يقتصر على عرض آثار الروس فحسب ، بل يعرض ايضاً نفائس الصور والتماثيـل والتحف من آثار غيرهم .

وقد خصصت بعض قاعاته لعرض الآثار الشرقيـة فرأيت في بعضها اشياء من مخلفات الفراعنـة ، كما رأيت في البعض

الآخر نسخاً لآثار بابل وأشور وفارس وسواها .

ولا أدري لماذا أغفل القيمون على المتحف الآثار العربية والاسلامية بينما هم خصوا اليونان والرومان بعشر قاعات. واكثر ما فيها تماثيل من صنع هؤلاء منسوخة عن الاصل بالاضافة الى بعض الآثار الأصلية .

وقد استرعى انتباهي في القاعات المخصصة للفن الايطالي نسخ لأفضل الرسوم الايطالية والأوروبية التي ترجع الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبينها رسوم لمشاهير الفنانين الايطاليان والأسبان والهولانديين والفلامان والانكليز والافرنسيين .

الكتب والمكتبات في موسكو

اهتمت موسكو كثيراً بانشاء المكتبات العامة اسوة باهتمامها بالمتاحف . وعدا مكتبة لينين الكبرى ففيها عدة مكتبات قيمة تجمع بين المطبوعات القديمة والحديثة والمخطوطات ، وتجد هذه المكتبات في الجامعة والمعاهد، والمجمع العلمي ومؤسسة موسكو الشرقية . والى هذا فعلى مقربة من الساحة الحمراء تقوم مكتبة الدولة للأدب الاجنبي ، وفيها نحو الف كتاب من المطبوعات العربية التي صدرت حديثاً ، وبينها مؤلفات لطه حسين وامين الريحاني وميخائيل نعيمه ومحمود تيمور وجبران خليل جبران وغيرهم . هذا فضلًا عما فيها من الصحف والمجلات العربية . ولكن هذه

المكتبات لا تعتبر شيئاً مذكوراً ازاء مكتبة لينين .

فما هي مكتبة لينين ؟

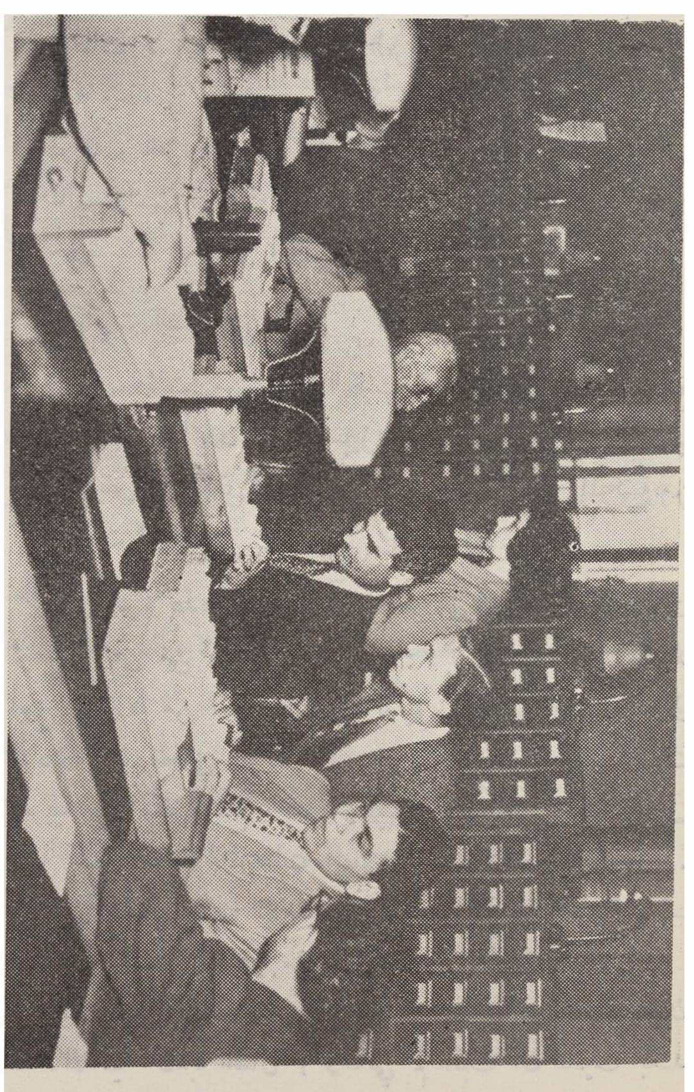
ان مكتبة لينين مفخرة من مفاخر الاتحـاد السوفييتي . وليس مرد ذلك الى ضخامة بنائها وجمـال هندستها فحسب ، وانما لما فيها من كتب قيمة ومخطوطات ، ولما فيها ايضاً من مجموعات للصحف المختلفة .

ويبلغ عدد الكتب في هذه المكتبة نحو ١٩ مليوناً ، بينها ٣٠ الف مخطوطة روسية واجنبية ، أعد لها وللرسوم ٣٧٠ خزانة .

وهذه المكتبة هي من منشآت العهـــد السوفييتي في سنة ١٩٢٥ ، ولكن صرحها بني في سنة ١٩٣٩ .

زرنا مكتبة لينين فاذا بالطابق الأول معد للادارة ولقاعات المطالعة : هذه للعلوم والآداب ، وهذه للطب والبيولوجيـــا . وهذه للتاريخ والفيلولوجيا ، وتلك للمخطوطات وهلمجرا . انها قاعات عديدة واسعة ، تستوعب ، في وقت واحد ، الفي زائر .

اما الكتب وسائر المطبوعات فهي في الطوابق العليا فاذا شئت ان تقرأ كتاباً في موضوع من المواضيع يأتونك بمجموعة البطاقات التي تتعلق بهذا الموضوع ، وما ان تختار الكتاب حتى ينزل اليك من علٍ بواسطه آلة تدار بالكهرباء ديدنها انزال الكتب المطلوبة ، ورفع التي فرغ المطالعون من قرائتها. وهذه الآلة شبيهة بالناعورة من حيث دورانها على محورها في الصعود والهبوط .



قاعة اختيار الكتب في القسم الشرقي من مكتبة لينين

وكان من الطبيعي ان اجنح الى زيارة قاعة بطاقات المخطوطات لا تفقد المخطوطات العربية ، فرحبت بي مديرة القسم ، وجاءتني بكثير من الصناديق التي تجمع بطاقات المخطوطات العربية ، وعلى كل واحدة من هذه البطاقات اسم الكتاب واسم مؤلفه . ولكني لم البث ان شعرت بأني وقعت في حيرة عند الاختيار ، واني اصبحت كقول الشاعر .

تكاثرت الظباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد

أمامي مئات من اسماء الكتب العربية ، والوقت لا يتسع لقراءة شيء منها . وكيف السبيل الى الاحاطة بأسمائها فحسب وانا حريص على ان لا تفوتني عناوين ما في هذه المكتبة من المخطوطات العربية ؟

وفي غمرة هذه الحيرة لم اتمالك عن القول للآنسة التي كانت ترافقني وهي من موظفات الادارة : « لي امنية صعبة المنال لا أبوح بها إلا من قبيل التمني ، أمنيتي تتلخص بالرجاء الى الادارة ان تتحفني ببيان يأتي على ذكر كل المخطوطات العربية في المكتبة مع اسماء مؤلفيها . ذلك لأنني اعتقد ان بينها كثيراً من المخطوطات المفقودة بالنسبة لنا أم النادرة . ولو اني احظى بهذه الأمنية لاستفادت المكتبة العربية منها اذ نسعى لنسخ ما هو مفقود عندنا من المخطوطات . »

قلت كلتي هذه وخرجت من القاعة ، وأنا واثق بأن هذه الأمنية صعبة المنال ؛ ولكني لم ألبث ان تلقيت بعد

ايام فيلماً يستعرض عنوان كل مخطوطة عربية في المكتبة واسم مؤلفها وذلك بالروسيـة . وكان سروري بهذا الفيلم عظيماً ، ولكن اعجابي بهذه البادرة من الروس كان اعظم اذ قدرت لهم تضحياتهم في سبيل العلم . وتساءلت حينذاك لو ان هذه الأمنية عرضت على مكتبة اخرى من مكتبات الغرب الكبرى أكانت هذه المكتبات تعيرها مثل هذا الاهتمام أم تستخف بها ؟

وفي هذه المناسبة نرى من المفيد تقرير حقيقة مهمة بالنسبة لنا نحن العرب ، ومدارها الفرق العظيم فيما يلقاه الشرقي من البون الشاسع اثناء زيارته لكل من الاتحاد السوفييتي والبلاد الغربية ، سواء أكان الشرقي من البيض أم السود أم الصفر . فالغرب ، الذي استعمر الشرق اجيالاً كثيرة إبان ما كان الشرق يتمرغ في أوحال كبوته ، وتحكم فيه تحكم السيد بالعبيد ، لا يزال يحتفظ من تراث تلك الأجيال بفكرة التمييز العنصري حتى اذا زار الشرقي الغرب يرى أمثلة من آثار هذه الفكرة لا تزال بادية في كل مكان . فهو في انكلترا غريب Foreing ، على ما تنطوي هـذه الكلمة عندهم من معنى الاستخفاف ، وهو في فرنسا شرقي وسخ Sale Oriental .

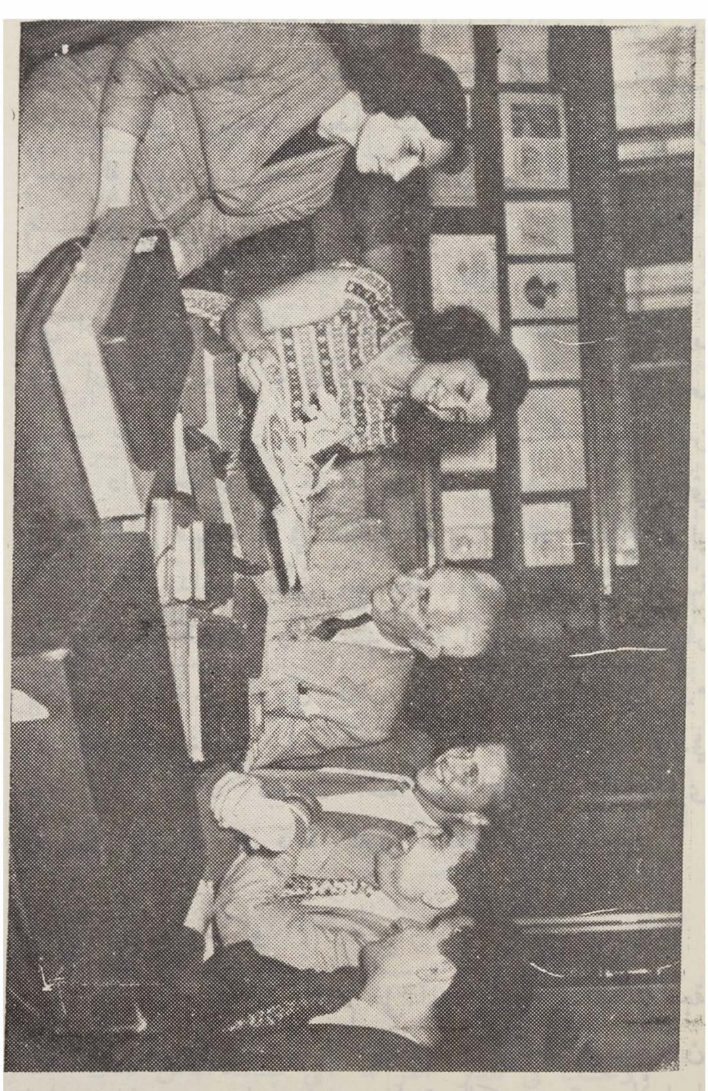
ورغم ان هـذه الفكرة اصبحت في الولايات المتحدة الاميركية مستترة وراء المبادىء الديموقراطية الا انها لا تزال موجودة ، وتبدو جلية بالنسبة للزنوج الذين اتى بهم الاجداد للخدمة والزراعة . وكان الاميركان ، الى وقت غير بعيـد ،

يطلقون اسم « تركو » على الجوالي العربية . وفيها كثير من مدلولات التحقير . وذلك ما حمل كثيرين من مهاجري بلاد الشام على التخلي هناك عن اسمائهم واسماء عيلهم والاستعاضة عنها باسماء افرنجية .

واما في روسيا الجديدة فالأمر على خلاف ذلك لان النظام القائم فيها قضى على التمييز العنصري ، كما قضى على التمييز بين الطبقات . لذلك فانك ترى زائريها من اهل الشرق رافعي الرؤوس ، سواء أكانوا من البيض أم السود أم الصفر ، ولا يشعرون بغضاضة على اعتبار انهم بين قوم لا يحسبون حساباً للتمييز العنصري ، ولا يأبهون لاختلاف الطبقات والأجناس ، بين قوم يرحبون بضيوفهم على السواء .

هذا وقد شاءت مرافقتنا الموظفة في مكتبة لينين ان لا نحرم من مشاهدة المكتبة القديمة التي انشئت في عهد القياصرة ، وهي على مقربة من المكتبة الجديدة ، وتحتل قصر باكوف . وهذا القصر الذي شيد خلال سنين ١٧٨٤ و ١٧٨٦ ، كان يعد وقتئذ من اجمل قصور موسكو . وما أشد سروري حينما مررنا بالمكتبة المعدة للمراهقين والصغار . لقد كانت قاعة المطالعة حافلة بهم ، صبياناً وصبيات واطفالاً وطفلات ، وكلهم منكب على المطالعة حتى انهم لم يحولوا أنظارهم الينا .

وكان سروري كثيراً أيضاً عندما زرنا قسم النوادر في هذه المكتبة . وقد اطلق عليه هذا الاسم لما احتوى القسم المذكور من الأسفار النادرة المطبوعة في القرون الوسطى . وقد



قاعة النوادر في مكتبة موسكو القديمة

شاهدت هناك كتباً اجنبية كثيرة بينها كتاب من نوع سفر التكوين ، وآخر في علم النجوم ، وكلاهما مطبوع في القرن الخامس عشر . وشاهدت أيضاً كتاباً آخر لم أر من قبل شبيهاً له اذا فتحت بعض صفحاته تبرز امامك صورة مجسمة مستقلة .

هذا وعلى ذكر مكتبة الأطفال هناك يجدر بنا الاشارة الى ان حكومة الاتحاد السوفييتي تعني بهم عناية خاصة حتى قبل أن تلدهم امهاتهم ، فما تكاد المرأة تشعر بالمخاض حتى تسعف بعناية المستشفيات ، ومتى ولدت فان النقابات تؤمن لطفلها دار الحضانة على مقربة من المعمل او المزرعة التي تزاول العمل فيها ، او في امكنة أخرى ، ثم اذا ترعرع الولد وشب فله مدارس تتفق مع سنه ، وله حدائق خاصة وسينمايات ومكتبات . ومن أشهر هذه المكتبات للاطفال دار كتب الأولاد في كوركي ، وهي تجمع شتى الكتب والرسوم التي تتفق مع ذوقهم ، وتتناسب مع مستواهم الفكري . وفي هذه الدار قاعتان كبيرتان احداهما للاطفال ، والاخرى للمراهقين بالاضافة الى قاعة كبرى للمحاضرات والمناقشات .

الميترو في موسكو

تكاثر اقبال قرويي العالم على المدن نتيجة لكثرة الحاجة الى العمال فيها وفي مصانعها فازدادت الحركات فيها من ذهاب واياب حتى لم يعد اديم المدن الكبرى يتسع لأهلها

وزوارها ، وحتى لم تعد أدوات الانتقــال تكفي حاجات النازلين في رحابها .

ما العمل اذن ؟

لقد وتقت لهم الحيلة عند هذه الحاجة للافادة مــن بطن الأرض ، فشقوا الانفاق فيه ، ومدوا الخطوط الحــديدية ، فكان الميترو الذي تدفعـــه الكهرباء ، وكان لهم فيه أيضاً تأمين السرعة للناس على أن يؤدوا اجوراً رخيصة للانتقال من مكان الى آخر ، وهي جد رخيصة بالنسبة لأجور السيارات وسواها.

وقد شاءت بلدية موسكو في العهد القيصري أن تقتـدي بغيرها من عواصم العالم في صدد انشاء هــذا المشروع ، ولكنها لم تفعل لأن صعوبات جمة وقفت في وجهها . غير ان العهد السوفييتي ذلل كل العقبات واستطاع منـذ سنة ١٩٣٥ أن يمد اول خط للميترو ، ومـا ان اقبل عام ١٩٥٧ حتى صار عدد هذه الخطوط ثلاثة بالاضافة الى خط آخر جـــاء كزنار يطوق خصر المدينة ويوصل بين خطوطها ، وهي كلها مزودة بوسائل التنوير والتهوية وتكييف الجو حتى لا تزيد الحرارة عن عشرين درجة .

وهكذا فقد اخترقت هذه الخطوط على مسافة ٦٥ كيلومتراً احشاء موسكو من شماليها الى جنوبيها ، ومن شرقها الى غربها. ومع ذلك فان بلدية موسكو تعتزم أن تضيف اليهـــا ثلاثة خطوط اخرى .

وحسبنا في تقدير الفوائد التي جناها الناس هناك مـــن

الميترو الاشارة الى ان عـدد الذين يستخدمونه كل يوم يبلغ ثلاثة ملايين شخص .

على ان الميترو في عاصمة السوفييت ليس جـديراً بالتنوية لأنه أصبح في العصر الحديث شيئاً عادياً ، ولكن الذي حملنا على الاشارة اليه ما رأينا فيه وفي محطاته من زينـــة وزخرف لا عهد لنا بها في العواصم الأخرى . انك تـكاد تتساءل اذا هبطت الى تلك الانفاق أأنت حقاً في مترو ، أم أنت في بهو من ابهاء القصور الملكية ؟ أم أنت في متحف مـــن متاحف الفنون الجميلة ؟ جدران مغلفة بالرخام الملون على نظام فنان من أبيض ورمادي ووردي واحمر ، وأعمـــدة ترفع السقف مغلفة أيضاً بالرخام والغرانيت ومزدانة بالالوان البديعـة ، وبتماثيل وصور لبعض العظماء وكأنها تريد أن تنافسهم بالعظمة . اما سقف المترو فحدث عن جماله وجمـــال فنه ولا حرج ، فهو مزدان برسوم فتانة صنعت على شكل الفسيفساء بمربعات صغيرة ملونة من الاحجار والنحاس ، وكل قطعة منها لا يتجاوز محيطها بعض السنتيات . ومع ذلك فاذا ما شخصت اليهـــا تحسبها رسمت بريشة مصور فنان .

لقد شاءت بلديات عواصم العالم أن تنشىء الميترو لتخفيف الضغط على شوارعها فحسب ، واما بلدية موسكو فلم تكتف بذلك حينما وضعت هذا المشروع ، وانما ارادت ان تجعل منه ، بالاضافة الى تأمين المزيد من وسائل الانتقال ، وسطاً مـــن اوساط الجمال مليئاً بالمفاتن .

الزراعة في الاتحاد السوفييتي والمعرض الزراعي

كانت روسيا في عهد القياصرة بلداً زراعياً متأخراً، وكان خمسة اسداس سكانها يعملون في الفلاحة ولا يستخدمون إلا الادوات البدائية ، وكان السواد الأعظم منهم فقراء لان الاراضي كانت لسواهم، تستأثر بها فئة من الاقطاعيين .

ولكن الاتحاد السوفييتي استهل عمله بتوزيع الاراضي على الفلاحين ، وحمل هؤلاء على استثمارها بواسطة التعاونيات . بيد انه وان كان يرمي الى تأميم كل المزارع وجعلها ملكاً للحكومة التي تمثل عمال العالم السوفييتي إلا انه ترك لهم جزءاً من الاختيار . فقامت التعاونيات الشعبية الى جانب التعاونيات الحكومية ، ولكن عدد التعاونيات الشعبية أخذ ينقص تدريجياً حتى لم يبق منه في سنة ١٩٥٥ إلا خمسة آلاف مزرعة بينما ان التعاونيات الحكومية ما زالت تزداد حتى بلغ عددها، في ذلك العام، ٨٧،٠٠٠ مزرعة . وبذلك تسير روسيا قدماً الى التأميم التام .

وقد جهز الاتحاد السوفييتي هذه التعاونيات بشتى الاعتدة الزراعية الحديثة ، ولا سيا التعاونيات الحكومية ، فكان لها قبل تسعة آلاف محطة للماكنات والجرارات ، ثم ما ان دخل عام ١٩٥٧ حتى بلغ عدد هذه الاعتدة ١،٥٧٧،٠٠٠ جرارة و ٣٨٥،٠٠٠ حاصدة ـ دراسة ، و ٦٣١،٠٠٠ شاحنة بالاضافة الى ملايين الماكنات الزراعية الاخرى . على ان الاتحاد السوفييتي

لم يقض القضاء المبرم على الرأسمالية الزراعية ، بل ترك لبعض الناس شيئا من اراضيهم ، ولكنه اذ حرمهم من المساعدات التي يسديها للتعاونيات جعلهم عاجزين عن متابعة العمل حيال منافسة التعاونيات ، فشرعوا ينضمون اليها تدريجياً حتى اذا دخل عام ١٩٥٦ لم يبق في الاتحاد السوفييتي من الفلاحين المنفردين عن التعاونيات والحرفيين غير زهاء مليون فقط بما في ذلك افراد عائلاتهم .

والواقع ان الاراضي المزروعة الآن في الاتحاد السوفييتي وان لم تزد مساحتها عن سنة ١٩١٣ اكثر من مرة ونصف المرة إلا أن انتاج المزروعات زاد كثيراً عن قبل نتيجة لاستعمال الاعتدة الحديثة ولوفرتها ، وبينها الطائرات التي استخدمت للفتك بالحشرات ، ولاتلاف الاعشاب الضارة ، ولتذويب الثلوج .

بيد ان روسيا لم تقنع بما ادركته حتى الآن من زيادات في محاصيلها الزراعية وانما وضعت تصاميم لزيادة مساحات الاراضي المزروعة ، ولزيادة المعدات العصرية الزراعية في برنامج الدولة لتطوير الاقتصاد الوطني لسنة ١٩٥٨ . وقد أقامت في العاصمة معرضا زراعيا لمحاصيل جمهورياتها ولأنعام تلك الجمهوريات . وهو يمثل مراحل الانتاج منذ انبثقت الثورة في عام ١٩١٧ . على انها شاءت ان يكون هذا المعرض تحفة من التحف التي تزدان بها موسكو .

فما هو المعرض الزراعي في موسكو ؟

مذ استقبلنا مدخل المعرض الفسيح برز امامنا من بعيد تمثال كبير من البرنز يمثل العامل والفلاحة ووراءه النجمة المذهبة التي تعلو مائة متر فوق قلب المعرض .

وقد شيّد المعرض في أرض مساحتها ٣٠٧ هكتاراً أعدّ نصفها حدائق فتانة تقوم من أمامه ومن خلفه ، وأعد النصف الآخر مكاناً لبناياته المتعددة . والبنايات هذه تقوم على شكل قلب وجناحين . فالقلب هو صرحه الكبير الذي تبلغ مساحته مليوني متر ، والجناحان يتألفان من دور كثيرة قائمة على جانبي الصرح خصص كل منها لمعروضات احدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي . وتعرض هذه على استمرار ، خير ما انتجتها تعاونياتها الزراعية الكولخوز والسوفخوز ، وبينها اقسام لعرض انعامها . ومعداتها الزراعية .

واذا دخلت الصرح الكبير وتجولت في قاعاته الرحبة تجد أمامك وحولك نماذج تكاد لا تحصى من الفواكه والبقول الممتازة ، واذا كان كل ذلك ليس فيه ما يثير اكثر من التقدير فان زينة هذه القاعات ، وما فيها من رسوم من شأنها ان يثيرا اعجابك .

والذي يزور هذا المعرض الدائم مرة واحدة يتمنى ان يعود اليه اكثر من مرة ، وما ذلك قصد أن يشاهد معروضاته وزينته فحسب ، وانما ليتمتع بمناظر حدائقه الواسعة التي تخلب

الأنظار ، تلك الحدائق الحافلة باحواض فتانة تتدفق المياه من تماثيل وأنصاب جميلة مختلفة الأشكال قائمة فيها فتضفي على الناظرين البهجة والسرور . ثم اذا جنّ الليل وأصبح المعرض وحدائقه شعلة من نور ، وانعكست الأضواء الكهربائية على المياه المتدفقة من تماثيل تلك الاحواض ورأيت الدر المنثور حسبت أن شطراً من الفردوس قد هبط الى موسكو بما فيه من حور عين وولدان مخلدين .

الاذاعة – صورة العرب كما رسمها بعض انبائهم

قال لنا دليلنا « نحن اليوم على موعد مع اذاعة موسكو لزيارتها » . فرحبنا بهذا الاقتراح على أمل أن نأخذ فكرة عنها وعن اقسامها وقوتها . وكنا نترقب أن يستقبلنا مديرها في مكتبه ويحدثنا عن اذاعته ، ولكنا فوجئنا مذ دخلناها بموظف يحسن اللغة العربية ، يدعونا للجلوس في رواق من أروقة الدار ، وما أن يستقر بنا المقام حتى يبادرنا بقوله : « هاتوا ما عندكم للنشر والاذاعة » فاستغربت هذه المفاجأة ، ولم أتمالك من أن اقول له : « نحن اتينا لزيارة الاذاعة قصد دراسة شؤونها اسوة بغيرها من مؤسسات موسكو ، ولم نأت لنذيع » . ثم لم أتمالك من التصريح له « اننا كنا نترقب قبل ان يُطلب منا حديث يذاع أن يستقبلنا المدير نفسه في غير هذا الرواق ، ويبسط لنا ، هو نفسه ، المعلومات التي نبغيها

عن الاذاعة .» فاعتذر الموظف وزعم أن المدير غائب . ولما رآنا نهم بالانصراف عاتبين استمهلنا ليرى اذا كان المدير قد عاد الى مكتبه . ثم رجع الينا وأعرب لنا عن ترحيب المدير باستقبالنا .

وقد قابلنا المدير الشاب بالترحاب ، وكانت الى جانبه سيدة شابة تحسن الكلام باللغة العربية . وبعد التعارف شاء أن يقنعنا بأن لا نخرج دون الادلاء بحديث للاذاعة يتضمن (انطباعاتنا) في زيارة موسكو ، فحاولت أن لا أفعل لأني لا اود أن يذاع بلساني حديث مدح وثناء قبل استكمال الزيارة والدراسة كما يفعل كثيرون من الزوار ، وقلت له « نحن ضيوف عندكم وكلما يذاع لنا خلال هذه الضيافة سيحمله الناس محمل المجاملات فلا يكون له الأثر المطلوب . أما واني قد لبيت الدعوة للدراسة ولمّا استكملها فاني افضل ارجاء الكلام الى ما بعد انتهاء السياحة وعودتي الى وطني، وحينئذ فاذا أدليت بحديث ، أو كتبت شيئاً يؤخذ كلامي مأخذ صدق ويكون له الاثر المطلوب . اماالآن وانا ضيف على حكومة موسكو ، فان كلما أذيعه سيعتبره السامعون من قومي من قبيل المجاملة . »

وكأن هذا الجواب لم يرق للمدير فما تمالك ان يقول : « ان العرب مشهورون بحب المجاملات » ، وربما كان الحافز له لأن يقول هذا القول ما بلغه من اعتراضي على شكل المقابلة من أولها . وقد اعترتني هزة عند سماع هذا التأنيب ،

وما وسعني إلا ان أجاوبه بقولي : «انكم لا تعرفون العرب إلا من وراء بعض الزائرين الذين يجاملون مجاملة لا حد لها ، فهؤلاء لا يمثلون العرب . ان العرب مشهورون بالأنفة وصدق اللهجة . »

والواقع انني لزمت السكوت طوال وجودي في الاتحاد السوفييتي وفي الصين ، وأبيت أن أذيع شيئاً في الصحف وبالاذاعة ، وتحفظت في خطبي اثناء المآدب ، وما كان مرد ذلك الى انه لا يوجد في البلدين ما يستحق الثناء كلا ، بل لأني وددت ان لا يؤخذ حديثي مأخذ المجاملة إبان وجودي في ضيافتهما . ولما ألح عليّ مندوب وكالة تاس للانباء الروسية في باكو ، ولم أجد مناصاً من الكلام قلت له قولاً مختصراً مداره انني أود ان استكمل معلوماتي قبل ان أتحدث ، وانني سأضع كتاباً عن رحلتي أبسط فيه انطباعاتي ، وحينئذ اذا تعرضت للمديح فان كلامي سيؤخذ مأخذ صدق .

العناية بالأطفال ، ومدرسة لكتيونوفا LaKatyonova

نوهت قبلًا بعناية الاتحاد السوفييتي كل العناية بالاطفال، وما أعدت لهم الحكومة من مكتبات ومسارح وحدائق وملاعب خاصة بهم ، فضلًا عن مؤسسات صحية وثقافية . والجدير بالذكر ان في موسكو وحدها خمس عشرة مدرسة من مدارس حدائق الاطفال ، فكان علينا ان نزور واحدة

منها لأخذ فكرة عن هذه المدارس التي تحتضن النشيء الجديد منذ الطفولة .

ولما أقبلنا على مدرسة لكتيونوفا طاب لنا ان نشاهد الأطفال يلعبون في الحديقة ويتراكضون كالغزلان . وقد رحبت بنا المديرة وطافت بنا في طوابق المؤسسة الاربعة ، وشرعت تحدثنا ، بلطف ورزانة ، عن كل طابق وكل غرفة من غرفه . قالت ان الطابق الأول معد للأطفال الذين لا يتجاوز عمرهم عامين ، والثاني للذين يتراوح سنهم ما بين الثلاث والأربع سنين ، والثالث للذين يبلغون اربعة الى خمسة اعوام . على ان فيه ايضاً بعض الاطفال الذين يزيد عمرهم على ذلك ، ولكن المدرسة لا تقبل من ينوف عمره على ست سنين ونصف السنة. واما الطابق الأدني فهو مخصص للادارة والاستقبال وفيه قاعات الطعام . وقد علمنا منها ان عدد التلاميذ لا يتجاوز ١٤٠ طفلًا تتقاضى المدرسة عن كل منهم مرتباً سنوياً أربعماية روبل . وتؤديها الحكومة على ان يحسم من هذا المرتب ما يؤديه ولي كل تلميذ بمقدار استطاعته . فأكثرهم لا يؤدون اكثر من ٥٠ روبلًا الى ٧٥ عن كل تلميذ ، وبعضهم يساهمون بمبلغ أوفر لغاية مايتي روبل . على ان المؤسسة تحسم من المرتب مبلغاً اذا كان للولي اكثر من تلميذ واحد ، ويقدر الحسم بمقدار عدد اولاده .

وقد طاب لنا ان نستعلم من المديرة اذا كان تلامذتها من العمال فحسب ، فقالت لا ، بل هم من سائر طبقات الشعب ،

ودللت على ذلك باستحضار طفل جميل الطلعة ، وقالت انه ابن وكيل احدى الوزارات ؛ ولكن المدرسة لا تفرق في المعاملة بين ابن الوزير وابن العامل على اعتبار انهم كلهم عمال متساوون. وهم ينشأون نشأة واحدة ، ثم اذا شبوا يقدر كل واحد منهم بمقدار ما يقدمه لدولته وبلاده من الخدمات .

هذا ولما تفقدنا الطوابق واحداً واحداً سرّنا ما رأيناه فيها من النظافة والترتيب . كل ما فيها صغير ومزوق : كراسيها وموائدها ولعبها وخزائنها ، وفضلاً عن ذلك قد اكتست جدرانها برسوم من شأنها ان تسر الاطفال .

والفتت نظرنا بصورة خاصة خزائن الأولاد القائمة في بعض اروقة الطوابق ، ولكل واحد خزانة فيها ألبسته وفيها مناشفه وسائر أمتعته . وعلى رأس كل واحدة منها صورة حيوان أم زهرة . والغاية من هذه الصور ان يميز الطفل ، الذي لا يحسن القراءة والارقام ، بين خزانته وخزانة غيره .

ولما هممنا بالانصراف شاهدنا في الطابق الارضي كثيراً من السيدات والسادة . وقيل لنا انهم جاءوا في المساء ليرافقوا اولادهم الى بيوتهم .

هذا وكنا نسمع قبل زيارة الاتحاد السوفييتي ان الاولاد هناك ملك الدولة ، وانها تتولى بنفسها تنشئتهم دون اوليائهم ، فاذا بنا نعلم ، من بعد ، ان تفسير هذه الفكرة خاطىء عندنا ذلك لأن الدولة وان اخذت على عاتقها العناية بالاطفال قبل أن يروا النور وذلك بعنايتها بأمهاتهم أبان الحمل ، وتحملت

تبعة سلامة اجسامهم وتثقيف عقولهم بعد الولادة ، ولكنها لم تتعرض الى العائلة بأعز شيء عليها . فالأولاد هناك لا يزالون في كنف آبائهم وأمهاتهم ، كما في سائر العالم ، غير ان دولة العمال تساهم مع هؤلاء في تنشئتهم نشأة صالحة من اجل ان يصبحوا عمالاً صالحين .

التجارة والصناعة ومخازن كوم Goum

درج الاتحاد السوفييتي في تنظيم التجارة والصناعة على غرار ما درج عليه في تنظيم الزراعة . وكما سمح القانون بوجود مزارع فردية صغيرة تتوارث فقد سمح لاصحاب الحرف ان يقوموا بممارسة حرفهم على اساس عملهم الشخصي ، ولكن دون استثمار اعمال الآخرين ، وسمح لهم أيضاً بأن يورثوا ذويهم اعمالهم .

غير أن الاتحاد السوفييتي أشهر حرباً سلمية على الأعمال الفردية الرأسمالية في صعيد التجارة والصناعة كما في الزراعة حتى قضى على اكثرها تدريجياً . وكان مدار هذه الحرب بذله المساعدات للتعاونيات على اختلاف انواعها حتى لم يعد بوسع الاعمال الفردية أن تتحمل تبعات المنافسة فأخذت تزول تباعاً .

وقد أمم الاتحاد السوفييتي التجارة على وجه عام ، وأشرف على توجيهها وعمدت حكوماته في كل المناطق الى تأمين الحاجيات

العامة ، واعدت للشعب مخازن كبيرة بالاضافة الى المخازن العامة والدكاكين يجد الشاري في كل منها جميع حاجياته من الابرة حتى الدراجة . وتعتبر مخازن كوم في موسكو نموذجاً من هذه المؤسسات الحكومية .

فما هي مخازن كوم ؟

تحفل موسكو ، ولا سيما حول الساحة الحمراء ؛ بمخازن كثيرة كبيرة تعرض فيها أنواع البضائع بأثمان متهاودة تتفق مع مستوى اجور العمال ، وتحدد الحكومة هذه الاثمان . غير ان السلع الاجنبية في تلك المخازن وغيرها عالية الثمن . ومردّ ذلك يعود الى ارتفاع ثمن النقد النادر هناك بالاضافة الى ارتفاع المكوس لحماية المصنوعات الوطنية .

غير ان مخازن كوم الواقعة في تلك المنطقة تعتبر اكبر مؤسسة حكومية من هذا القبيل ليس في موسكو فحسب ، بل في سائر الاتحاد السوفييتي والشرق .

كان الروس قد شيدوا في موسكو سنة ١٨٩٣ سوقاً كبيرة كانت مركزاً للتجارة وهي من احسن مراكز اوروبا التجارية ، فحوّل السوفييت هذه السوق سنة ١٩٥٣ الى مخزن واحد سقف بالزجاج وكيف هواؤه ، واعدت له مداخل كبيرة تقفل في الليل .

تلك هي مخازن كوم التي زرتها اكثر من مرة ، ومع ذلك فانني لا استطيع ان اوفيها حقها من الوصف . انها في

الواقع سوق كبيرة عامة مؤلفة من شبكة أروقة ، تعلوها أروقة أخرى تجد في مخازنها المتراصة كلما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .

فماذا تريد ؟ المأكولات المنسوجات الأحذية الراديو التلفزيون الدراجات الفرو البسط السجاجيد التحف الجوهرات كل ذلك في متناول يدك . ولكن عليك ان تمشي الهوينا لأن كثرة زوار هذه المخازن لا تسمح لك بأن تسرع في سيرك .

وحسبنا في الدلالة على عظمة هذه المؤسسة ان نشير الى أن عدد موظفيها يبلغ أربعة آلاف . ونترك للقارىء ، من بعد ، ان يقدر بنفسه كم في هذه المخازن من سلع ، وكم يرتادها من الشارين في كل يوم .

والجدير بالذكر هنا ان البضائع التي تعرض في هذه المخازن كلها ، الا ما ندر ، من مصنوعات الاتحاد السوفييتي ، ذلك ان هذا الاتحاد ، الذي قاطع الغرب وقاطعه الغرب خلال السنين الطويلة ، اعتمد على نفسه حتى استغنى عن المصنوعات الأجنبية ، واذا زرت معملاً من معامله كمعمل الجوخ في موسكو مثلاً تبدو الك عظمة مجهوداته ، فما هو هذا المعمل ؟

معمل الجوخ في موسكو

حقاً ان هذا المعمل ، الفسيح الأرجاء ، يسترعي نظرك من حيث انه يضم بين جدرانه اكثر من عشرة آلاف عامل ،

ومن حيث ان قيمة انتاجاته في السنوات الاخيرة بلغت ثلاثين مليون روبل ، ولكنه في الواقع يثير المزيد من اعجابك حينما تعلم ما أعدت الدولة فيه من دور مختلفة لتأمين حاجيات العمال والعاملات . فهناك مدرسة ودار للحضانة ومستوصف ، وهناك نادٍ ودار للاستجمام وقاعة للرقص والموسيقى وسينما وملعب رياضي ومكتبة ومخيم للطلائع ؛ وهكذا في سائر المعامل الكبرى .

ويثير المزيد من اعجابك حينما تعلم ان مهندسة المعمل امرأة هي السيدة راجينوفا وانها برزت في فنها حتى كوفئت بانتخابها عضواً في مجلس السوفييت الأعلى .

الضمان الصحي في الاتحاد السوفييتي

جميع العمال في الاتحاد السوفييتي خاضعون لنظام الضمان الاجتماعي ، وهم بمقتضى هذا النظام يستفيدون ، مع عائلاتهم ، من المساعدات الطبية المجانية . وقد أعدت الدولة للضمان الجماعي صندوقاً خاصاً تتألف موارده من الاشتراكات التي تؤديها المؤسسات والادارات والمنظمات . فقامت ادارة هذا الصندوق باعداد المستشفيات في كل مكان ، ودور التوليد ، ودور الاستجمام ، وحمامات المياه المعدنية ، ومخيمات الاطفال .

والجدير بالذكر ان المريض لا يستفيد من هذه المصحات من حيث انها مجانية فحسب ، بل يظل يتقاضى تعويضه اليومي بنسبة مخفضة . ونسبة التعويض اليومي للمريض تتراوح بين ٥٠ و ٩٠ في المئة من اجرته تبعاً لعدد السنين التي خدم

خلالها في المعمل . على ان التشريع السوفييتي يمنح النساء الحاملات ٥٦ يوم عطلة قبل الولادة، و٥٦ يوماً بعدها دون ان يسقط شيئاً من اجرتها اليومية .

وفي غضون وجودنا في موسكو علمنا ان مواطننا المحامي الاستاذ محمد خطاب لجأ الى احد مستشفيات العاصمة للمعالجة . فكان من الواجب علينا ان نبادر لعيادته . وما ان ولجت السيارة باب المستشفى حتى أدركنا أننا أمام مدينة متسعة الارجاء، كثيرة المباني، ترتفع أقسامها ليس في حديقة واحدة، بل في خمس حدائق . واكثر هذه البنايات مؤلف من طابق واحد .

وما كدنا ندخل باحة المستشفى ونعلن عن سبب الزيارة حتى خفت الينا احدى الممرضات والبستنا سترة بيضاء، ومشت أمامنا الى قاعة الاستقبال حيث كان يجلس مواطننا . وكنا نرى في الرواق المؤدي الى هذه القاعة بعض المستشفين، وكلهم بلباس واحد، وهو نفس اللباس الذي كان يرتديه مواطننا : بيجاما تعلوها سترة من الكتان الملون . هذا شيء لم نعهده في المستشفيات الاخرى . فما هو الداعي لذلك ؟

وكان الجواب ان المريض ما ان يدخل المستشفى حتى تنزع عنه ثيابه كلها، ويلبس كسوة المستشفى وهي نوع واحد . والغاية من ذلك ان لا يبقى تمييز بين الواحد والآخر حيث يعامل الجميع مواساة دون فرق، سواء أكان المريض عاملًا أم وزيراً .

وقد علمنا من مواطننا ان القسم الذي نزوره خاص

بالاجانب وبرجال السلك السياسي . ولذلك فان المستشفين فيه يؤدون اجرة ، أو تدفعها الحكومة عنهم ، وهي على كل حال قليلة جداً بالنسبة لمستشفيات العالم .

الاستشراق ومؤسسة موسكو الشرقية

بعيد الحرب العالمية الاولى زار بيروت المستشرق الانكليزي المعروف جيب . وقد شاء أن يزورني في بيتي مع مستر بيارد ضدج الذي كان وقتئذ رئيساً للجامعة الاميركية في بيروت . ولما تطرق الحديث الى الاستشراق سألته : **« اي الامم اشد عناية من سواها بالاستشراق ؟ »** فأجاب : **« هي روسيا »**

وكان هذا الجواب غريباً بالنسبة لي لاني كنت أظن بأن الاستشراق في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا ليس له مثيل في سائر العالم . ولما استزدته ايضاحاً قال : « ان المذهب الشيوعي ، الذي تبنته روسيا واضطلعت باعباء نشره ، كان حافزاً لها على العناية بدراسة احوال الشعوب ، ولا سيما في الشرق الاوسط ، وذلك لمعرفة خير السبل لبث مبادئها . وكان بالتالي حافزاً لها على تعلم لغات هذه الشعوب وألسنتها ، وعلى دراسة ماضيها وحاضرها . ومن هنا انصرفت عنايتها الى الاستشراق ، فأحرزت قصب السبق في ميدانه . »

غير ان هذا الجواب ، الذي ظل ماثلاً أمام عينيّ والى جانبه علامة الاستفهام ، لم يطمئن اليه قلبي حتى أتيحت لي فرصة الذهاب الى الاتحاد السوفييتي والاجتماع الى بعض مستشرقيه .

وإبان وجودي في موسكو كان من أهم اماني زيارة مؤسسة موسكو الشرقية في شارع أرميانسكي على أمل لقاء عبد الرحمن سلطانوف الرئيس العام للقسم العربي ورفاقه من المستشرقين ، خصوصاً واني كنت تعرفت بهذا الرئيس في بيروت قبل شهر تقريباً اثناء الحفلة التي أقمتها في بيتي يوم ٢٩ آذار ١٩٥٧ للجنة العلاقات الثقافية التي زارت بعض البلاد العربية. ولكن الاستاذ سلطانوف كان مجازاً وغائباً عن موسكو يوم زرنا هذه المؤسسة . واستقبلنا بالنيابة عنه ايكور بيلائيف رئيس القسم العربي للبلدان العربية ، وهو مستشرق ويحسن اللغة العربية. وبعد تطواف في هذا القسم والاشراف على محتويات مكتبته دعانا الاستاذ بيلائيف للجلوس في غرفة فسيحة حافلة بسيدات وسادة. فخيل لي ، في اول الأمر ، اننا في صف من صفوف اللغة العربية ؛ ولكني سرعان ما علمت ، حينما قدم لنا الاستاذ هؤلاء السيدات والسادة ، انهم رفقاؤه في الشعبة العربية ، وان كل واحد منهم مختص بناحية من النواحي : هـذا للأدب والتاريخ ، وذلك للعلوم أو الفنون . وهذا رئيس فرع شؤون الشرق الأوسط ، وذاك رئيس فرع شؤون شمالي افريقيا ؛ وهلمجرا .

وكان بودي أن لا يفوتني جميع اسمائهم ، ولكني آسف اذ لم أعد أذكر من اسمائهم إلا عارف بن واعظ ، وهو مسلم يتقن اللغة العربية كأبنائها ، واليوكوفسكي والسيدة سميلا يانسكايا وفيدوريكو . وقد اعلمني هـذا انه منصرف

الآن الى الكتابة في موضوع ليبيا ، وانه يكون ممنوناً اذا زودته ببعض المعلومات عنها ، فأرسلت اليه بعد عودتي مجلة عربية أصدرت عدداً خاصاً بليبيا .

وعقدنا جلسة علمية أدبية مع هؤلاء المستشرقين تبادلنا خلالها الأسئلة والاجوبة ، وما خرجنا من هناك الا بعد أن آمنا مع الاستاذ جيب بأن الاتحاد السوفييتي يمشي في طليعة الدول في ميدان التعرف الى شؤون الشرق العربي ، والاستشراق .

وقد رغب اليّ بيلائيف أن أرسل اليه بعض مؤلفاتي لترجمتها الى اللغة الروسية . ولما استعرضت أمامه أسماءها . وفي عداد ذلك مخطوطة باللغة الانكليزية موضوعها « محمد كإنسان عالمي » شدد عليّ الطلب بارسال هذه المخطوطة ، فلمست في هذا التشديد رغبتهم الملحة في إصدار كتاب كهذا يتكلم على محمد في غير نطاق النبوة . والواقع انني توخيت في وضع هذا المؤلف تمجيد رسولنا العربي من حيث ان عظمته تنبثق عن شخصه الانساني دون حاجة الى ردها للمعجزات والكرامات في معرض بيان عظمته .

وعند عودتي الى بيروت وفيت بوعدي وارسلت له مخطوطتين باللغة الانكليزية ، وهما :

- Philosophic biography of the international man .
- the Arab nation in its past and présent .

هذا وقد لاحظت ان الكتب العربية في مؤسسة موسكو الشرقية غير كثيرة الى الحد الذي كنت أتوقعه ، ولكن الذي يبرر هذا النقص بعض التبرير ان الكتب العربية موجودة ايضاً في كثير من المؤسسات الأخرى. موجودة في مكتبات جامعة موسكو ، والمجمع العلمي ، ومكتبة لينين ، ومكتبة الدولة للأدب الاجنبي ، وبينها عدد وافر من الكتب العربية المخطوطة. ولو جمعت الأسفار العربية في مكان واحد لبدت كثيرة .

وأما تعليم اللغة العربية في الاتحاد السوفييتي فقد نال المزيد من العناية في الآونة الاخيرة تبعاً للحاجة المتزايدة للاساتذة والمترجمين والمؤرخين والمستعربين . ويتخرج الاختصاصيون في هذه المواد باللغة العربية في جامعات موسكو ولينغراد وطشقند وتفليس وباكو . هذا بالاضافة الى معهد الدراسات الشرقية في موسكو .

وقد انشىء معهد في جمهورية اوزبكستان للدراسات الشرقية تابع لاكاديمية العلوم ، وأدخلت اللغة العربية الى مدارس هذه الجمهورية ابتداء من الصفوف الثانوية .

ناظم حكمت الشاعر التركي الشيوعي

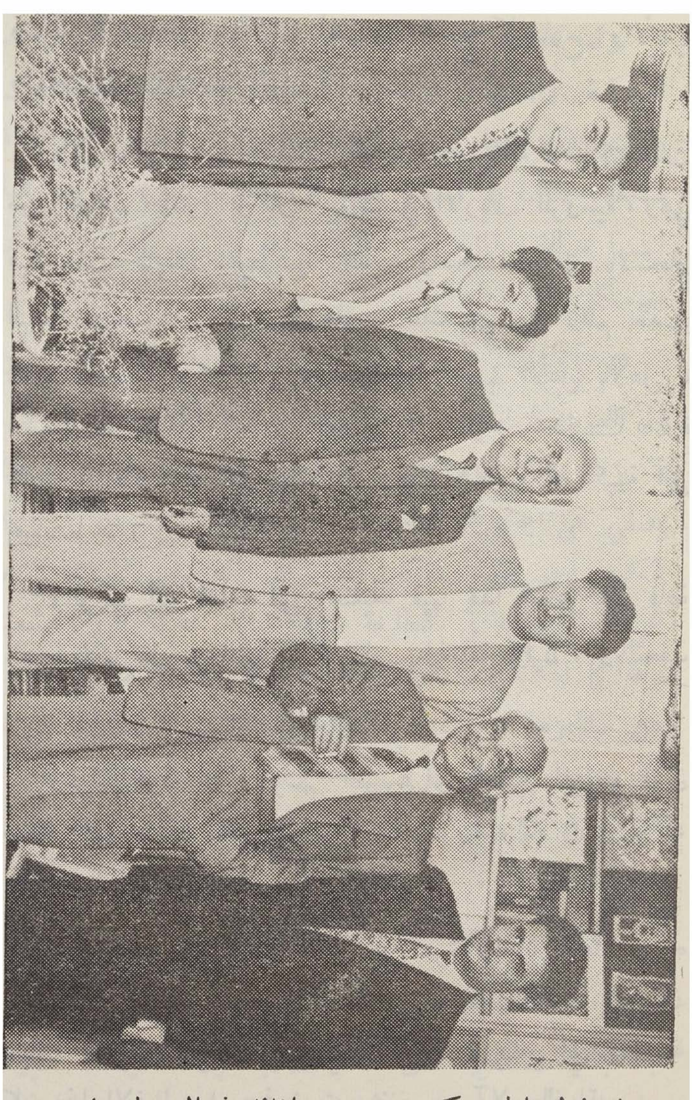
قرأنا قبل بضع سنين في الصحف خبراً مفاده ان حكومة أتاتورك في أنقرة القت القبض على شاعر تركي معروف اسمه

« ناظم حكمت » وزجته في السجن بتهمة الترويج للشيوعية .
ولما زرنا موسكو علمنا ان هذا الشاعر يقيم في أريافها ، اذ ما كاد يخرج من السجن حتى فرّ الى روسيا ولقي فيها كل ترحاب وتكريم ، وأصبحت شهرته في الاتحاد السوفييتي أشد منها في تركيا بما نشر من قصائد باللغة الروسية ودواوين ، وبما وضع من تمثيليات مسرحية .

وهذه الشهرة التي احرزها هناك حملت الدولة على ان تمنحه فخار السكن في قرية سكولنيسكي . تلك القرية الجميلة المعدة لسكنى مشاهير العلماء والادباء ، يخلون الى أنفسهم فيها ، وينتجون من بنات افكارهم ما فيه الفائدة والمتعة .

اذن فلنذهب الى سكولنيسكي على مقربة من موسكو لنرى هذا الشاعر الشرقي الذي بلغت شهرته الذروة في جميع انحاء الاتحاد السوفييتي . وكنت احسب قبل لقائه انني سأقابل شيخاً ما ادرك هذه الشهرة الا بعد كرور السنين العديدة ، ولكني رأيته كهلاً لا يزال يتمتع بنضارة الشباب ، رغم فراق الوطن والأهل ، وهو الى ذلك جميل الطلعة معتدل القامة .

واما القرية التي يسكنها ناظم حكمت فهي بمجموعها تكاد تكون غابة تبلغ أشجارها السحاب ، تتخللها حدائق ناضرة تعطر أزاهيرها الأرجاء . واكثر من ذلك ، فهي حافلة بأنواع



في منزل ناظم حكمت ، وهو الماثل في الوسط ما بين الدكتور جورج حنا والمؤلف

وسائل الترفيه عن ساكنيها أهـــل الثقافة كالمسارح والأندية والمكتبات والملاعب الرياضية .

وفي جانب من جوانب القرية تقوم بناية صغيرة شيدت من الخشب ، إسوة بأكثر البيوت في الأرياف الروسية ، وهي فيلا ذات طابقين تحيط بها حديقة واسعـــة حافلة بالاشجار الباسقه وبمجموعات من الأزهار . تلك هي دار ناظم حكمت الذي استقبلنا بوجه باسم ورحب بنا ترحيب الأهل بالأهل ، وصعد بنـــا الى الطابق العلوي ، وشرع يحدثنـــا تارة باللغـــة الافرنسية التي يتقنها ، وطوراً باللغـة التركيـة التي يحبهـــا .

والواقع ان القاعة التي استقبلنا فيها هذا الشاعر هي قاعة شعرية لأنها على رحابتها مليئة باللعب المختلفة الجميلة ، وبالتحف المتنوعة ، وحافلة بالصور والرسوم .

ولمن يكون هذا الرسم الفوتوغرافي الصغير المرتفع فوق منصة الى جانب مقعد الشاعر ؟ انه صورة ولده الذي تركه طفلاً حينما غادر انقره واصبح الآن يافعاً .

انه صورة ابنه التي رفعها اكثر من مرة وارانا اياها . ولده الذي يتألم لفراقه أشد من ألمه لمغادرة وطنه . ولكنه اذ كان يحدثنا عما يلقاه من الاقبال في روسيا كان يشير الى مقدار ما كان هذا الاقبال يواسيه في غربته ويخفف من آلام الفراق .

وقد تلطف ناظم حكمت باهدائنا ديوانه المنظوم باللغة التركية والمطبوع بموسكو بالاحرف اللاتينية بعنوان : « منتخبات اشعار » Secilmis Siirler ، وتلطف بدعوتنا الى مشاهدة تمثيلية له وضعها باللغة الروسية تعرض ، على ما قال لنا ، للمرة المائة بعد الواحد ، في احد مسارح موسكو .

ثم ودعناه وبودنا ان لا نودعه ، وفارقناه وفي نفسنا حنين الى العودة لزيارته . على ان وداع هذا الشاعر الشرقي لنا لا يزال ماثلاً امام عيني . شيعنا الى باب الحديقة بموكب كان يضفي على جمال المكان جمالاً آخر . وكان يتقدم الموكب كلبه الكبير وهو يقوم بحركات تدل على انه يبغي المساهمة في هذا الوداع ، وتليه في الطليعة شابة حسناء خفيفة الروح شيعتنا برقة كما استقبلتنا بحفاوة ، وكانت يدها تشارك فمها في التعبير عن مشاعرها ، تلك هي سكرتيرة الشاعر العصامية التي نوه لنا بعطفها عليه في غربته ، ولا سيما ابان مرضه . ثم يأتي الشاعر في مؤخرة الموكب وهو لا يفتأ يزودنا بألطف عبارات الوداع .

والجدير بالذكر ، لهذه المناسبة ، ان ناظم حكمت وان فرّ من وطنه غاضباً ومغضوباً عليه الا انه لا يزال يتمتع فيه بالاعجاب والتقدير حتى ان الذين ينكرون عليه شيوعيته ما زالوا مفتونين بشعره مقرين بنبوغه . وقد حدثتني سيدة

تركية ، بعد عودتي ، مما كان له في بلادها من منزلة عالية ، وبما لا يزال له من اسم عاطر . وقالت ان مصطفى كمالاً (اتاتورك) استدعاه يوماً وحاول ان يقنعه من اجل العزوف عن التشيّع الماركسية ، ولكن ناظم حكمت أبى وكان صريحاً اذ أعرب لرئيس الجمهورية المشار اليه بأنه لا يستطيع ان يحيد عن مبادىء اقتنع بها . فما وسع مصطفى كمال الا ان يقول : **« هذا الرجل يستحق الاعدام الا انه يستحق مع ذلك ان يبكي عليه اذا اعدم »** .



الفصل الثالث

الوضع السياسي والاجتماعي في الاتحاد السوفياتي

●

جلسة مع بعض العلماء في موسكو

شاءت مؤسسة فوكس الثقافية ان يكون لنا حظ الاجتماع في دارها باعضاء لجنتها الثقافية فشكرنا لها مسعاها لان جل امانينا ان نجتمع بفريق آخر من العلماء غير المستشرقين الذين عرفناهم وذلك لدراسة أنظمة البلاد على وجه عام .

انهم ثلاثة من العلماء المعروفين في الحقوق والتشريع : كوستانفينوف رئيس اللجنة ، وانطيمونوف دكتور في الحقوق المدنية ، وليفين استاذ الحقوق والشرائع .

وقد تلطف هؤلاء العلماء بالاجابة على الاسئلة التي كانت توجه اليهم كل بحسب اختصاصه ، وكان مدار البحث يتركز على المسائل التالية :

- نظام الحكم السياسي في الاتحاد السوفييتي .
- علاقات الجمهوريات السوفييتية المتحدة فيما بينها وبين مجلس السوفييت الأعلى .
- البناء الاجتماعي في الاتحاد السوفييتي ، ولا سيما الاقتصادي منه .

وقد أتاحت لنا هذه المقابلة الالمام بمعلومات جمة ومفيدة استندت اليها فيما كتبت في هذه المواضيع بالاضافة الى دستور الاتحاد السوفييتي الذي بين يدي ، وبعض الكتب الحديثة .

جمهوريات الاتحاد السوفييتي والمراكز الاسلامية

يتألف الاتحاد السوفييتي من خمس عشرة جمهورية ومنطقة تقدر مساحتها بـ ٢٢،٤٠٠،٠٠٠ كيلومتر مربع ، ويبلغ عدد سكانها ٢٠٠،٢٠٠،٠٠٠ وذلك على الوجه التالي :

روسيا	سكانها	١١٣،٢٠٠،٠٠٠	في اوروبا
اوكرانيا	«	٠٤٠،٦٠٠،٠٠٠	«
بيللو روسيا	«	٨،٠٠٠،٠٠٠	«
جورجيا	«	٠٤،٠٠٠،٠٠٠	«
ارمينيا	«	٠١،٦٠٠،٠٠٠	«
لتونيا	«	٢،٠٠٠،٠٠٠	«
استونيا	«	١،١٠٠،٠٠٠	«
لتوانيا	«	٢،٧٠٠،٠٠٠	«
اذربيجان	«	٠٣،٤٠٠،٠٠٠	«
مولدافيا	«	٢،٧٠٠،٠٠٠	«
قازاخستان		٨،٥٠٠،٠٠٠	في آسيا
تركمانستان	«	١،٤٠٠،٠٠٠	«
تاجكستان	«	١،٨٠٠،٠٠٠	«
اوزبكستان	«	٧،٣٠٠،٠٠٠	«
قيرغيزيا	«	١،٩٠٠،٠٠٠	«
		٢٠٠،٢٠٠،٠٠٠	

وتوجد في هذه الجمهوريات خمسون قومية ونيف بينهم قرابة عشرين مليوناً من المسلمين . ولما عقد المؤتمر الاول للسوفيات في ١ كانون الاول ١٩٢٢ وقرر هذا المؤتمر « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية » انتظمت هذه القوميات بسلك الاتحاد ، على أن يكون لكل منها الحق بالانفصال متى شاء .

ويتيم السواد الأعظم من المسلمين في كل من اذربيجان والجمهوريات الأسيوية التي ورد ذكرها في الجدول ، وكذلك في الجمهوريات ذات الحكم الذاتي مثل : كاباريا ـ بالكاريا ، نشيتشينا ـ انيغوشيا ، داغستان ، تتاريا ، بشكيريا ، وفي جمهوريات ما وراء القفقاس ، وفي بعض اقاليم ومناطق القفقاس الشمالي ، وحوض نهر الفولغا وسيبيريا . هذا فضلاً عن بعض المسلمين القاطنين متفرقين في سائر الجمهوريات السوفييتية .

وما عدا اذربيجان الشيعية فان مسلمي الاتحاد السوفييتي سنيون ، على انه يوجد بين مسلمي طاجكستان نفر من الاسماعيليين .

هذا وقد سمح الاتحاد السوفييتي للمسلمين بإنشاء اربعة مراكز دينية ، كل واحد منها مستقل عن الآخر للاشراف على الشؤون الروحية ، وادارة الاوقاف التابعة لها والمدارس ، وللفصل في القضايا الشرعية ، وتفسير احكام الدين . غير ان احكام هذه المراكز لا تكون نافذة متى تعارضت مع القوانين السوفييتية وذلك فيما اذا لم يرض بها احد المتقاضيين . وهذه هي المراكز الأربعة :

١ ـ مركز القسم الاوروبي وسيبريا في مدينة اوفا ، يرأسه المفتي خليل الدينوف .

٢ ـ مركز كازاخستان في طشقند ، وهو بالاضافة الى كازاخستان يشمل اوزبكستان وقيرغيزيا وطاجكستان وتركمانستان . يرأسه القاضي ضياء الدين باباخانوف .

٣ ـ مركز القفقاس الشمالي وداغستان في بونياسك (داغستان) يرأسه محمد الحاج قربانوف .

٤ ـ مركز ما وراء القفقاس في باكو ، وهو مركز للشيعة وللسنة على السواء ، ورئيسه حكيم زاده الشيخ موسوم ، وهو شيعي ويلقب بشيخ الاسلام .

واما انتخاب رؤساء هذه المراكز الدينية فيعود الى المسلمين أنفسهم وذلك بمؤتمرات تمثلهم تعقد حين الضرورة في تلك الحواضر .

نظام الحكم السياسي في الاتحاد السوفييتي

تضطلع بالسلطة العليا بمقتضى الدستور هيئة السوفييت العليا ويطلق عليها اسم المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية . ويبلغ عدد اعضائها ١٣٤٧ نائباً بينهم ٣١٨ عاملاً ، و ٢٢٠ فلاحاً ، و ٨٠٩ من ممثلي الطبقة المثقفة .

وتتألف هذه الهيئة العليا من مجلسين متساويين في الحقوق : مجلس السوفييت الاتحادي ، ومجلس القوميات السوفييتية . ولها كل السلطات التي نصت عليها المادة ١٤ من الدستور . ولهذه الهيئة ديوان يسمى ديوان الرئاسة العليا مؤلف من رئيس و ١٥ نائباً للرئاسة . وكان بينهم س . رشيدوف يوم زرنا موسكو ، ولا ادري اذا احتفظ بهذا المنصب بعد الانتخابات التي جرت في آذار ١٩٥٨ . والديوان ينتخبه المجلسان المذكوران في

جلسة مشتركة . وله الحق في الغاء قرارات مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي ، كما له الحق في الغاء قرارات مجلس وزراء الجمهوريات اذا رآها مخالفة للقانون ، وفضلًا عن ذلك فان هذا الديوان اقالة الوزراء وتعيين سواهم . لذلك يعتبر بمثابة القابض على زمام السلطة في الاتحاد السوفياتي ، ذلك لأن السوفيات الأعلى للاتحاد لا يجتمع في السنة إلا مرتين ما عدا الدورات الاستثنائية . وتنعقد دورات اجتماعه بناء على دعوة رئاسة الديوان المذكور . وفي هذه الاجتماعات يتناوب رئاسة الجلسات كل من رئيس سوفييت الاتحاد ورئيس سوفييت القوميات . وخلال الفترات بين دورتي السوفييت الأعلى يضطلع ديوانه بكل سلطاته .

ويقوم الى جانب هذا الديوان السامي جهاز حكومي في كل جمهورية . وهو مجلس وزراء الدولة . وهذا المجلس ينتخبه المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية خلافاً لما هو مألوف في العالم الديموقراطي .

ومجلس الوزراء في جمهوريات الاتحاد السوفييتي مسؤول أمام المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الذي له الحق في توقيف قرارات مجالس وزارات الجمهوريات الاتحادية ، والغاء اوامرها ، كما له وحده الحق في سن القوانين التي يسري مفعولها على جميع الجمهوريات الاتحادية . وتنشر هذه القوانين بلغات الجمهوريات موقعة من قبل رئيس وسكرتير ديوان هذا المجلس .

واما مجلس القوميات السوفييتية الذي يمثل العناصر المختلفة في

الاتحاد السوفييتي والذي كانت تتولى نيابة رياسته مسعودة سلطانوف نائبة أوزبكستان فهو يتألف من ٢٥ عضواً لكل جمهورية ، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، ومن ١١ نائباً عن كل جمهورية ذات حكم ذاتي ، وخمس نواب عن كل منطقة من المناطق ذات الحكم الذاتي ، ونائب واحد عن كل اقليم قومي . وهؤلاء النواب ينتخبهم شعوب هذه الجمهوريات والمناطق .

والسوفياتات العليا للجمهوريات القومية تقرّ دساتيرها على أن تتفق تماماً مع دستور الاتحاد السوفييتي وهي تؤلف حكوماتها ، وتصادق على موازناتها ، وعلى برامج اقتصادها القومي وثقافتها . ومجلس الوزراء فيها مسؤول تجاهها . وعدا ذلك يوجد في الاتحاد السوفييتي مجالس محلية تمثل العمال ذات صلاحية مطلقة في بلادها . والسوفياتات المحلية لنواب الشغيلة ، كما يسمونها ، تتخذ قرارات في جميع القضايا المتعلقة بحياة سكان تلك البلاد ، وتشرف على المدارس والمستشفيات ، كما توجه الشؤون التجارية والصناعية والزراعية ، وتطبق الضمان الاجتماعي ، وتحافظ على حقوق المواطنين الذي نص عليها الدستور .

على ان هناك في الاتحاد السوفييتي سلطة اخرى لا ينص عليها الدستور ، وهي في الواقع ، التي تحكم فعلاً ، وتوجه الدولة والشعب ، بل توجه كل شيء حتى ان الأدب والفن الروسيين يتقيدان بارادتها ؛ واعني بها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . ومن اعضائها نور الدين محي الدينوف نائب طشقند .

حقاً انه لا يزال في روسيا بعض المستقلين يمثلهم في مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفييتي ٢٩٧ نائباً من أصل ١٣٤٧ نائباً ، ولكن الحزب الشيوعي الذي له في كل جمهورية فروع ، هو ، في الواقع ، الذي يهيمن على المجالس ، كما يستأثر بالسلطة في الجمهوريات . ويبرر اعضاؤه هذا الاستئثار بقولهم « ان الحزب الشيوعي هو طليعة الشعب » . وقد أشار الى ذلك خروشوف فى الحديث الذي ادلى به الى شابيرو مراسل وكالة يونايتدبرس الاميركية وذلك في نوفمبر ١٩٥٧ وقال : « ان الحزب يضع مصالح الشعب فوق كل شيء ، خصوصاً قضية تحسين رفاه الشعب وسيره الى الامام وتطوير مجتمعنا الاشتراكي نحو الشيوعية ، ولهذا السبب كانت لدينا وحدة في مطامع الشعب والحزب بوصفه طليعة المجتمع ! »

ملحوظاتنا على نظام الحكم السوفييتي

الاتحاد السوفييتي بلد دستوري مثل سائر الدول الديموقراطية، ولكن السلطة العليا فيه تنبثق عن مجلسين منتخبين يتولاها ديوان مؤلف من ستة عشر عضواً ينتخبه المجلسان في جلسة مشتركة .

والواقع ان جمهورية روسيا هى التي تستأثر بالحكم استناداً الى ان عدد اعضائها في الهيئة العليا المؤلفة من المجلسين ، هم نصف الاعضاء بالنسبة لسائر الجمهوريات ، هذا فضلا عن ان

سلطتها تستمد قوتها من الماضي على اعتبار انهـــا نقطة الثقل بالنسبة لسائر الجمهوريات ، هـذا بالاضافة الى ان روسيا هي التي ضمت اليها عنوة وقسراً جميـع جمهورياتها الأسيوية وبعض الجمهوريات الأوروبية . وهي التي قامت بالثورة وتبنت الشيوعية وتولت حمايتها ونشرها .

وهذه الاعتبارات تبرر استئثار الجمهورية الروسية بالسلطة على شكل مألوف بين الدول فلا نقف عندها ولا نعلق عليها إلا من ناحية واحدة وأعني بها محاولة موسكو ان تشيع بين الناس باطلًا ان الحـكم في الاتحاد السوفييتي هو مشاع بين كل الجمهوريات على مستوى واحد . وان السلطة العليا هي في قبضة كل هذه الجمهوريات سواسية .

غير ان ملحوظتنا الأولى على الحـكم السوفياتي القائم تتجه شطر تأليف هيئة السوفييت العليا من مجلسين للشعب بدلاً من مجلس واحـد تتمثل فيـه كل الجمهوريات ، مجلس يتألف من العنـاصر الروسية الأصيـلة فحسب ، ومجلس آخر يتألف من القوميات التي الحقت بروسيا من قبل بالفتح والعنف .

وهنا موضع التساؤل لماذا هذا التفريق فهل ثمة في الاتحاد السوفييتي أولاد الست وأولاد الجارية ؟

وهذا التساؤل من شأنه ان يذكرنا بما قامت به فرنسا في تونس عهد الحماية والاستعمار : ذلك انها لما شاءت ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، تأليف قلوب التونسيين بانشاء مجلس استشاري عمدت الى قسمته الى شطرين : شطر للافرنسيين ، وشطر للوطنيين

الموالين . فكان عملها هذا منفراً للتونسيين اذ رأوا فيه حطة لهم وأسلوباً جديداً من اساليب الاستعمار .

ونحن لا ندري اذا كانت القوميات في الاتحاد السوفييتي تشعر بمرارة لهذا التفريق بين المجلسين عندهم أم لا ، لانه لم يكن بوسعنا ان نتحدث الى احد منهم في مثل هذا الموضوع ، ولم يكن لأحد منهم الجرأة على مصارحتنا بما يضمر خوفاً من المراقبة .

أضف الى ذلك نقطة مهمة تتعلق بدساتير الجمهوريات في الاتحاد السوفييتي . حقاً ان لكل جمهورية من هذه الجمهوريات الحق بأن تضع دستور بلادها . ولكن هذا الحق هو ، في الواقع ، صوري ، ذلك لأن هناك شرطاً لا بد من التقيد به مداره ان يتفق دستور كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي مع دستور الاتحاد السوفييتي العام .

واكثر من ذلك فقد نص هذا الدستور على ان الهيئة العليا لاتحاد جمهوريات الاتحاد السوفييتي هي التي تعين مجالس وزراء الدولة في كل جمهورية من الجمهوريات ، وقضى أيضاً بأن يكون لهذه الهيئة الحق في توقيف قرارات هذه المجالس والغاء اوامرها ، هذا علاوة على انه اشترط بان تسن قوانينها طبقاً لقوانين دستور الاتحاد السوفييتي .

كل ذلك غير مألوف في العالم الديموقراطي حيث يمارس رئيس كل جمهورية حقه في أن يعهد الى من يختاره تأليف الوزارة على أن يمنحه مجلس النواب الثقة . وحيث تسن كل

جمهورية قوانينها . والا فكيف تكون الحرية كاملة وموفورة اذا لم يكن لكل جمهورية الحق في انتخاب مجلسها الوزاري، واذا لم يكن لمجلسها النيابي وضع الدستور والقوانين التي تتجاوب مع تقاليدها وحاجاتها ؟

هذا الى ان الدستور قد نص على ان يكون انتخاب البرلمان في موسكو وغيرها حراً طليقاً . ولكن هذه الحرية ظلت اسمية ، ولم يزاولها المنتخبون . واية ذلك فيما سمعناه ابان الانتخابات النيابية التي جرت في اواسط آذار ١٩٥٨ من انه كان مفروضاً على المنتخبين ان يضع كل منهم كلمة نعم ام لا فحسب الى جانب اسم كل مرشح من المرشحين الذين عينهم الحزب الشيوعي بالاتفاق مع الحكومة .

والى هذا فان القضاء الشرعي في الجمهوريات الاسلامية أمسى مشلولاً ، فان السلطة العليا سمحت لبعض هذه الجمهوريات وليس كلها ، الاحتفاظ بالقضاء الشرعي ، ولكنها جعلت القول الفصل يرجع لمحاكم الدولة المدنية فيما اذا رفض احد الخصمين الاحتكام الى المحكمة الشرعية ، أو رفض الحكم الصادر عنها. وكان من عواقب ذلك ان القضاء الشرعي في الجمهوريات الاسلامية أمسى صفراً على الشمال .

على ان الدستور السوفييتي الذي صدر سنة ١٩٤٧ والذي لا يزال مرعي الاجراء احتفظ لكل جمهورية من الجمهوريات بحقها في حرية الخروج من الاتحاد ، وفي انشاء علاقات مباشرة مع الدول الاجنبية وعقد الاتفاقات مع هذه الدول ، ومبادلة

الممثلين السياسيين والقناصل . هذا فضلاً عن انه منحها حق تأليف جيش لها .

وهذا شيء جميل ومنصف ولكن أية جمهورية من هذه الجمهوريات لمست عندها الجرأة على ممارسة هذه الحقوق الدستورية ، خصوصاً وان الدستور نفسه أخذ باليد اليمنى ما وضعه باليد اليسرى اذ نص في مكان آخر على « ان مجلس السوفييت الأعلى هو صاحب الحق في التمثيل السياسي ، وعقد المعاهدات ووضع نظام عام لتبادل العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وبين الدول الاجنبية وذلك بمقتضى المادة ١٤ من الدستور ؟ »

واكثر من ذلك فان جمهوريات القوميات فضلاً عن انها لا تمارس حقها في اصدار طوابع البريد ، وهو الذي يعتبر رمزاً للاستقلال ، بل استأثرت موسكو في هذا الحق فان الجنود التي تجندها الجمهوريات لا تبقى في مناطقها بل انها توزع بحسب اوامر القيادة العليا في موسكو على فرق الجيش السوفييتي العام ، وتؤدي الخدمة العسكرية خارج هذه المناطق .

وشيء جميل ايضاً ومنصف مـا تضمنه الدستور السوفييتي من اطلاق الحريات : حرية الكلام والاجتماعات والاحتشادات وتنظيم المواكب والمظاهرات والانضمام الى الجمعيات والكتل . ولكن أحداً من الناس لا يمارس هذه الحقوق في نطاق خارج نطاق الحزب الشيوعي وفيما يتعدى توجيهاته . هذا الحزب الذي تحصي عيونه على الناس انفاسهم ، ثم هو لا يقرب من الدولة إلا المخلصين لمذهبه .

بلى وان الناس هناك يعيشون ، في الواقع ، على حذر تفاقم امره الى حد الانكماش على انفسهم ، وحتى أمسى هذا الانكماش كأنه طبيعة من طبائعهم ، سواء أكانوا افراداً أم جماعات . ومن آيات ذلك انني اهديت في سنة ١٩٥٦ بعض مؤلفاتي الى المعاهد العلمية في موسكو وبكين ، وبعثت بها خمس رزم بواسطة السفارة السوفييتية في بيروت ، وانتظرت ثم انتظرت علني أتناول اشعاراً بوصولها ، ولكن لا موسكو ولا بكين أرسلت إلي جواباً رغم كتابتي اليهما اكثر من مرة. فكان عليّ ان اكتب للسفير في بيروت ثم أكلمه شخصياً لمعرفة مصير هذه الكتب . وكانت النتيجة انه أوفد اليّ احد مستشاريه ليقول لي ان الكتب وصلت لأصحابها .

لماذا لم يجاوبني أحد من هذه المعاهد ؟ ولماذا تلطف السفير وأخذ على عاتقه اعلامي عن وصول هذه الكتب بدلاً من الذين ارسلت اليهم ؟ هذا ما كنت أضع أمامه علامة الاستفهام . ثم لم أجد حلًا لذلك إلا الاعتقاد أن ذلك مرده الى الحذر ، وان الانكماش وليد الحذر .

لقد كان يبرر كل ذلك ضرورة استعمال العنف حينما تغلبت الشيوعية على الحكم ، وأرادت نشر مبادئها . أما الآن وقد اصبحت الشيوعية عقيدة بين الجيل الجديد في الاتحاد السوفييتي فما الذي يبرر استمرار حكم لا يتفق مع الديموقراطية ، بل لا ينطبق على دستور الدولة ؟

هذا واذا جاز لي ان أبدي ملحوظة أخرى تتعلق بعلمي

الاتحاد السوفييتي فيرد السؤال : « **لماذا هم محرومون من الاشتراك في ممارسة الحكم بموسكو ؟**

لماذا ، ولهم في الاتحاد السوفييتي الثلث في عدد الجمهوريات اي ٥ من ١٥ ؟

ان الدستور السوفييتي العام ينص في المادة ١٢٣ على : « **التساوي في الحقوق بين مواطني اتحاد الجمهوريات بصرف النظر عن قوميتهم وجنسهم** » . ومع ذلك لم يصل الى علمنا ان أحداً منهم اشترك في الوزارة بموسكو . واخيراً ألف خروتشوف وزارته في نهاية آذار ١٩٥٨ ، وليس بينها وزير واحد من هذه الجمهوريات الخمس .

على اني قد سمعت في غضون جلستنا مع بعض العلماء ، سمعت من الاستاذ ليفين ان الدستور القائم الذي وضع سنة ١٩٤٧ أصبح على وشك التعديل . بيد اني لا أدري اذا كانت النية منصرفة لتعديله تعديلاً أصلح بالنسبة للقوميات ؟

والواقع ان الشكوى ليس مردها الى الدستور ، وانما تعود مباشرة الى تطبيقه . واذا كان لنا ان نتمنى على موسكو فنتمنى ان تعني بالقضاء على اسباب الحذر والانكماش تعبيداً لسبل التعايش السلمي الذي تدعو اليـه . ذلك لان بذور التعايش السلمي لا تنبت في ارض كوكبنا السيار إلا اذا حرثت بالثقة ، وارتوت بمياه المحبة ، وعشّبت من الخوف والحذر .

يستهل دستور الاتحاد السوفييتي بمادة هذا نصها : « اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية هو دولة اشتراكيـة للعمال والفلاحين . » ثم ينص الدستور في هذا الفصل على ما خلاصته :

● جميع السلطة تعود الى الجماهير العاملة متمثلة في نوابهم .
● الأساس الاقتصادي قائم على دعـائم النظام الاقتصادي الاشتراكي وعلى امتلاك اشتراكي لادوات الانتاج ووسائله .
● التملك الاشتراكي اما أن يكون على شكل ملكية الدولة (سوفخوز) ، واما أن يكون على شكل ملكية وحـدات المزارع المشتركة او ملكية الكتل التعاونية (كولخوز) .
● المشاريع العامة هي ملك للدولة في كل الجمهوريات .
● كل اسرة مشتركة في الكولخوز لها بالاضافة الى نصيبها من الدخل أن تستثمر قطعة صغيرة من الأرض حول مسكنها تستغلها لنفسها وتقيم فيها حديقة للمنزل .
● يسمح القانون بوجود مزارع فردية صغيرة مزودة بادواتها الزراعية الخاصة ، ومساكن ، كما يسمح لأصحاب الحرف ان يستمروا على ممارسة حرفهم شخصياً دون استثمار اعمال الآخرين. ولهؤلاء المزارعين واصحاب الحرف ان يورثوا ممتلكاتهم الى ذويهم .

وحينما يتكلم الدستور عـلى الحقوق والواجبات يشمل الذكر والأنثى على اعتبار أن الاتحاد السوفييتي لا يفرق

بينهما ، وان المرأة هي صنو الرجل في كل شيء . كما ان الجميع بنظره عمال سواء اكانوا أعضاء في الهيئة السوفييتية العليا ، أم عمال في المصنع او المزرعة .

على ان الدولة دولة العمال رأت من واجبها ان تعتني بحاضرهم ومستقبلهم ، وان تكافيء المبرزين منهم أية كانت مهنهم . وعلاوة على ذلك فقد افسحت المجال لهؤلاء المبرزين لأن يكونوا اعضاء في هيئة السوفييت العليا ام في هيئات السوفييت المحليه . وحلت صدورهم بالاوسمة . وقد صدر اخيراً مرسوم يمنح العاملة الكسندرا شتريخينا التي تعمل في فبركة الأحذية « سكورخود » في لينغراد لقب بطلة العمل ، وقد انتخبت على أثر ذلك نائبة في هيئة السوفييت العليا .

ونظام الضمان الاجتماعي الذي سنته الدولة وضع على عاتقها تأمين تعليم وتطبيب العمال وعيلهم مجاناً بواسطة المؤسسات والنقابات التي ينتمون اليها ، فضلاً عن دور الاستجمام ، سواء اكانوا موظفين في مؤسسات الدولة وادارتها ، أم كانوا في غيرها ، وشادت لهم المساكن الشعبية ، وحددت اجورها على شكل يتفق مع مواردهم الخاصة .

ووضعت للضمان الاجتماعي صندوقاً خاصاً تغذيه جميع المؤسسات والادارات والمنظمات . وعهدت الى مجلس الوزراء امر تحديد مقادير الاشتراكات فيه على كل فرع من فروع الاقتصاد الوطني وذلك على أساس نسبة مئوية من مجموع الأجور المدفوعة الى العمال والمستخدمين . وقد بلغت موازنة

التأمينات الاجتماعية عام ١٩٥٦ ٢٨ ملياراً من الروبلات ونيف .

والى هذا فان الدولة رصدت في موازنتها مبالغ كبيرة لمرتبات التقاعد للمقعدين والشيوخ وفي حالة فقدان المعيل . وهذا المرتب يمنح لكل عامل او مستخدم بلغ عمراً معيناً وحقق عدداً معيناً من سنوات العمل بصرف النظر عن قدرته على استمرار العمل وحالته الصحية . وللرجال الحق في تناول مرتب التقاعد عند بلوغهم الستين شرط ان يكونوا قد زاولوا العمل مدة ٢٥ سنة . واما النساء فلهن الحق بتناول هذا المرتب اذا بلغن خمس وخمسين سنة على ان يكن زاولن العمل مدة عشرين سنة . ويبلغ الآن عدد الذين يستفيدون من مرتب التقاعد ١٧ مليون نفس .

ورأت الدولة ، دولة العمال ، من واجبها ايضاً تأمين الأعمال للشعب . وما أن تمت تصفية اوزار الحرب العالمية الأولى حتى انصرفت الى مكافحة البطالة التي كانت متفشية في جميع المناطق . فاذا بالبناء الصناعي الجبار الذي قامت به ، من ثم ، يخفف من وطأة البطالة تدريجياً ، ثم لم يأت على الثورة الا ثلاثون عاماً حتى اصبحت البطالة في الاتحاد السوفييتي من من ذكريات الماضي ، وبذلك وبما قررته الدولة تباعاً من رفع اجور العمال وتحديد اثمان الحاجيات وبدلات اجور المساكن اخذت الضائقة تخف تدريجياً ، وشرع مستوى الحياة الاجتماعية يرتفع من عام الى عام .

لا يتعرض دستور الاتحاد السوفييتي الموضوع في سنة ١٩٤٧ للدين في قليل او كثير . واستناداً الى ذلك فان السوفييت يقولون : « **يستطيع كل مواطن ان يعتنق الدين الذي يريده ، او يتنكر لجميع الاديان . فالدين منفصول عن الدولة والمدرسة ، والدولة لا تتدخل في الشؤون الدينية** » . والذي يقوله السوفييت هو صحيح لأن المرسوم الصادر بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩١٨ بتوقيع لينين قضى بفصل الكنيسة عن الدولة ، ولم يتعرض لحرية الأديان . غير ان السوفييت هم في الواقع أعداء للأديان ، عملاً بالقول المأثور عن ماركس في سنة ١٨٤٣ . « **الدين مخدر الشعوب ، وواجبنا انقاذها من هذا المخدر** ».

لذلك فقد أمسى معروفاً في سائر العالم عن الاتحاد السوفييتي انه يدعو الى الالحاد ، وانه يمارس الضغط والعنف في سبيل محو الأديان كلها من الوجود . وهذه التهمة صحيحة بكل معنى الكلمة بالنسبة لعهدي لينين وستالين . فقد رأى كل منهما أن الاديان عقبة كأداء في سبيل نشر الشيوعية وتوطيد اركانها ، فشددا في القضاء عليها .

وينسب الى لينين قوله عام ١٩٠٩ في التعليق على قول ماركس : « ان هذا القول المأثور عن ماركس هو الحجر الأساسي في وجهة النظر الماركسية كلها ازاء الدين . ان الماركسية تنظر دائماً الى جميع الاديان والكنائس وجميع المذاهب والهيئات

الدينية كأنها أدوات للبرجوازية الرجعية . »

وينسب الى ستالين قوله عام ١٩٢٧ : « ان العلم والدين متعارضان ، ولذلك فان الدولة الشيوعية تتعارض والدين . »

وعلى هذا الاعتبار فقد صدر في ذلك العهد قانون جاء فيه : « ان تلقين الصبية والقاصرين أي مذهب ديني في المدارس هو نوع من انواع الاعتداء على حرية الضمير التي كفلها دستور الاتحاد السوفييتي . »

وقد نقلت الينا الصحف والنشرات التي كانت تصدر في ذلك العهد أنباء كثيرة عن محاربة الدولة للأديان ، وعن اضطهادها للمتدينين ، ولا سيما المسلمين ، ومما رافق هذا الاضطهاد من قسوة ، ومن مصادرة المعابد والاوقاف ، ومن اعدام تعرض له المؤمنون . ولا سيما رجال الدين . وهذه الانباء صحيحة ، وان كان يشوبها أحياناً بعض المبالغات . ولكن ما ان انقضى عهد لينين وستالين القاسي وقام عهد جديد حتى جنح الى الاعتدال في كل شيء ، وعدل عن اضطهاد الأديان والمؤمنين بها ، وترك لهم ، مع التحفظ ، الحرية في ممارسة شعائرهم ، وفي التصرف ببعض معابدهم ، هذا فضلًا عن انه أجاز لهم تعليم اولادهم امور دينهم وسمح للكنيسة الارثوذكسية أن تنتخب بطريركا لها ، ثم رخص للبطريرك الاتصال بالمؤسسات الارثوذكسية التي هي خارج بلاده .

على أن هذا لا يعني ان العهد الجديد نبذ مباديء ماركس التي تدعو للالحاد . بل ان دعاة الشيوعية من رجال الدولة ما

زالوا أمينين على هذه المباديء وقيّمين على نشرها . فهم رغم اطلاقهم حرية الدين وحرية ممارسة شعائره ما فتأوا يعلنون بالاذاعات والصحف ، تصريحات واحاديث كلها حرب على التدين . ويروى عن أحد أقطاب الحزب الشيوعي السوفييتي انه قال في ٢٢ ايلول ١٩٥٥ ما يأتي : « اننا ما زلنا ملحدين ، وسنبذل كل ما نستطع لنحرر فئة معينة من الشعب من سحر الأفيون الديني الذي ما زال منتشراً . »

على ان الدستور السوفييتي كما أطلق حرية تأدية الشعائر الدينية فقد اطلق ، في نفس الوقت ، حرية الدعاية ضد الدين وذلك بما جاء في المادة ١٢٤ منه : « لغاية كفالة حرية الاعتقاد للمواطنين فُصلت الكنيسة في الاتحاد السوفياتي عن الدولة ، كما فصلت المدرسة عن الكنيسة . وحرية تأدية الشعائر الدينية وحرية الدعاية ضد الدين يُعترف بها لجميع المواطنين . »

وفصل الدين عن الدولة أمر مستحب معقول ، غير ان المفهوم من هذه المادة ، او بكلمة اخرى المقروء من وراء أسطرها « ان الحرية الدينية معترف بها في نطاق تأدية الشعائر فحسب دون ان يكون للسوفييتي الحق في الدعاية للدين ، بينما ان حرية الدعاية ضد الدين امر جائز بمقتضى الدستور ».

أما والناس على دين ملوكهم ، وأما وان الدولة أعلنت الحادها وقربت الموالين ، ونأت بجانبها عن المؤمنين ، وحظرت على المدارس تعليم الدين ، فكانت النتيجة ان الجيل الجديد

نشأ على الالحاد ، وان الذين في قلبهم ذرة من الايمان اخذوا يتظاهرون بالعزوف عن الدين ، بغية تأمين مصالحهم .

وقد خبرت ذلك بنفسي مذ بلغت مطـــار موسكو اذ سألت في السيارة احد الذين جاؤوا لاستقبالنا من قبل مؤسسة فوكس عن دينه ، وكان سؤالي مقصوداً ، فأجابني الشاب : « أنا ماركسي » ، ثم طرحت هـــذا السؤال على غيره من الشباب فكان الجواب واحداً لا غمغمة فيه .

وكان من عواقب انتشار الالحاد ان السلطة ، وان أباحت ممارسة الأديان ، فان المعابد التي كانت في العهد السابق لم تعد كلها الى أصحابها الأولين ، وان عدد هذه المعابد التي أعيدت شرعت تقل سنة بعد سنة ، وتغلق ابوابها .

وقد جاء من مصادر غير روسية ما يلي : « ففي عام ١٩١٧ كان عدد المساجد في روسيا حوالي عشرة آلاف مسجد . أما اليوم فان عددها لا يتجاوز ٣٥٠ مسجداً ، كما ان عدد أئمة المسلمين وعلماء الدين كان يبلغ ٢٨ الفاً ، أما الآن فان عددهم لا يبلغ إلا ٤٠٠ فقط . هذا الى ان السوفييت أغلقوا ٨٠٠٠ مدرسة إسلامية عندما أصدروا القانون الذي يقضي بفصل الدين عن المدارس . » والعهدة على الراوي لأنه لم يتسن لي التحقيق في هذا الاحصاء . اما المصادر السوفييتية فهي تروي ان لدى الكنيسة الارثوذكسية الروسية قرابة الفي خورنيـة ومعهدين بدرجة الاكاديمي للعلوم الدينية وثمانية مدارس دينية . وتضيف

الى ذلك قولها ان هناك كنيسة واحـــدة لـكل من الارمن والـكاثوليك والأنجيليين .

على ان قولي بانتشار الالحاد في الاتحاد السوفييتي لا يعني عزوف كل الشعب عن الدين ، بل ان جمهوراً كـبيراً منهم ، ولا سيما من الشيوخ والكهول ، لا يزال في الاتحاد السوفييتي محافظا على أديانه ، وان فريقـاً منهم ، ولا سيما المسلمين ، لا يفتأون يحرصون على عقائدهم ، ويمارسون شعائرها .

وقد رأيت مثالاً على التعصب للدين لما زرت كاتدرائيـة على الدم Kram na Kravi في لينغراد . وهي كاتدرائيـــة عظيمة وجميلة أطلق عليها هذا الاسم لأنها شيدت على المـكان الذي قتل فيه القيصر اسكندر الأول .

وفي غضون ما كنت أقف أمام مدخل هـــذه الكنيسة أراقب باعجـاب فنون هندستها الجميـــلة جاءت امرأة عجوز وركعت عند الباب ، ثم انحنت حتى قبلت أحدى درجاتها ، ولما انتصبت وهمت بالانصراف صلبت على صدرها بكل خشوع. وروى أحد الذين حضروا القداس في كاتدرائيـة متروبوليت موسكو ان الكنيسة كانت على اتساعها مكتظة بالمصلين .

المسلمون بين الشيوعية والايمان

في أعقاب السنوات الأولى التي خلفت الثورة الشيوعيـة نشبت حرب داخلية في روسيا والبلاد الملحقة بها كانت موجهة

ضد البلاشفة . وقد اشترك فيها بعض كبار رجال الدين الاسلامي . وانتهت هذه الحرب الاهلية بانتصار الشيوعيين ، بيد ان رجال الدين الاسلامي ظلوا مع ذلك حرباً على الشيوعية خلال بضع سنين أخرى ؛ وكانوا خلالها وسائر المسلمين المحافظين عرضة للقتل والنفي والمصادرة حتى اذا استطاعت السلطة ان تفرض مبادئها بالقوة بعد مرور السنين اضطر المسلمون لمسايرة الوضع الحاضر ، واذا بهم ينقسمون الى فئتين : فئة صمدت على دينها وظلت تحاول تنشئة أولادها على الايمان ، وفئة اعتنقت المبدأ الشيوعي ، أما عن عقيدة ، وأما وراء مصلحة .

غير ان هؤلاء المسلمين سواء منهم من حافظ على دينه ومن تبلشف لم يكن بوسعهم إلا مماشاة التطور التقدمي العام الذي عم الاتحاد السوفييتي . على ان هذا التطور الذي حدث ما كان بوسعه مع ذلك أن ينتزع من المسلمين حدبهم على تقاليدهم وشعائر دينهم ، فضلًا عن الايمان .

والمفروض ان يكون المسلمون السوفييت القاطنون في غير الأمصار الاسلامية السوفييتية أقل من مواطنيهم المقيمين في هذه الامصار حرصاً على الدين ، وعلى شعائر الدين ، بيد اني رأيت في موسكو ، وهي قاعدة الشيوعية ، ما يدل على ان هؤلاء ليسوا دون أولئك تمسكاً بالاسلام . فقد زرت الجامع ظهر يوم الجمعة فرأيته غاصاً بالمصلين ؛ ولما لم يتسع المسجد وسدته لايوائهم جميعاً جلس فريق منهم في فنائه استعداداً للصلاة . وقد لاحظت ان المصلين هم من مختلف الاعمار ومن شتى

الطبقات ، واكثرهم حاسرو الرأس ، على ان بعضهم كان يعتمر الطاقيات التركستانيـة المزركشة ، بينما يعتمر قليلون منهم القبعات الخفيفة .

وكم لذّ لي ذلك الخطاب الممتع الذي القاه أمـام الجامع الشيخ صالح ضياء الدين وهو من قازان . فقـــد اعتلى المنبر قبيل صلاة الجمعة والقى خطاباً باللغة التركيـة التترية استشهد فيه بالآيات القرآنية ، وكان يتلوها بالعربيـة ويفسرها ، وأورد فيه بعض الأحاديث النبوية ، وكان خــلال ذلك ينتقل الى الكلام باللغة العربية الفصحى ، ثم يترجمهـا ويسهب في اطراء العرب والدعوة الى محبة العرب وينوه بسوريا دون ان ينسى الرئيس شكري القوتلي . ولما أدرك في الختـام الدعاء قال : « اللهم انصر المسلمين ، وانصر من يحتضن المسلمين » .

وبعد ان صلى الامام بالناس انتصب قائمـاً في المحراب وأوقفني الى جانبه فأقبل عليه المصلون يصافحونه قبل انصرافهم وكأنهم كانوا يلتمسون منه البركة ، وكانوا يصافحونني ايضاً وكأنهم كانوا يصافحون يد ضيف جاء من البـلاد المقدسة . وقد شيعوني وراء الامام الى خارج المسجد تشييع اخوان لأخ .

ولما غادرت المسجد ألفت نظري عدد غفير من السيدات على رأس كل واحدة منهن غطاء يستر شعرها، ويتدلى الى كتفيها ، وهن منصرفات الى بيوتهن مع الرجـال . فتساءلت من أين أتت هذه النسوة ولم أرَ في الجامع امرأة بين المصلين ؟ وظلت علامة الاستفهام ماثلة أمام عينيّ حتى علمت ، بعد ذلك ، ان

الجامع مؤلف من طابقين ، وان النسوة كن يصلين في الطابق الارضي ، وكن يسمعن خطاب الامام وتكبيراته في غضون الصلاة ، وكن يصغين الى قرآنه وذلك من كوة واسعة في المحراب تنقل الاصوات بجلاء الى الطابق السفلي . فأكبرت هذا الايمان عند النساء ، واكبرت تقواهن هناك بينما ان المرأة في البلاد العربية التي هي مصدر الرسالة المحمدية لا تقبل على الصلاة جماعة .

وقد حدثني صديق كان قد زار هذا المسجد في عيد الأضحى ، حدثني ان بعض المصلين اذ لم يعثروا على مكان في المسجد جلسوا في فنائه وفي ساحته الكبرى على بسط ممدودة ، وكانوا يملأون الساحة على مسافة نحو مائة متر ، وقد جاؤا للصلاة والمعايدة . ونوه الصديق ايضاً باقبالهم على شراء صور الكعبة والحرم النبوي ، وعلى تسابقهم لابتياع لوحات أخرى مخطوطة باللغة العربية ومزدانة بآيات قرآنية ، أو أحاديث نبوية .

كل ذلك جعلني استنتج ان الاسلام في الاتحاد السوفييتي لا يزال راسخ الاركان ، وان المسلمين هناك لا يزالون يتحسسون بشعور الأخوة بينهم وبين سائر المسلمين ، رغم كل ما يعترضهم من محاولات . وقد زاد ايماني بهذا التعاطف ما لمسته في مناسبات أخرى .

ففي الفندق بموسكو تعرضت لي موظفة علمت اني من المسلمين وأعلمتني أنها مسلمة وانها لا تزال تؤدي شعائر الدين.

وفي لينينغراد اتصل بي موظف آخر في الفندق وكتب اسمه باللغة العربية ، ثم لم يكتف بتلاوة بعض الآيات القرآنية ، بل اسمعني بعض الاوراد . وعلاوة على هـذا أرشدني الى طريقة للتسبيح بالاستعانة بظاهري الكفين بدلاً من السبحة .

وقد اغتبطت بما رأيت من الأمثـلة على ترابط المسلمين ، ولكني أخشى أن يخلف هؤلاء خلف بعد حين ينسى الدين وأهله .

ولا ندري اذا كنا في تشاؤمنا هذا يصح لنا ان نأخـذ عبرة على ذلك من عزوف مسلمي الاتحاد السوفييتي عن الحج بعد ان عدلت السلطة هناك عن منعهم من اداء هذه الفريضة : ان عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي يبلغ نحو عشرين مليون مسلم ، ومع ذلك فان الذين سعوا لأداء فريضة الحج في سنة ١٩٥٧ لم يتجاوز عددهم الخمسين .

فما هو السبب ؟

● هل ان الحوافز التي تدفعهم الى الحـج أمست ضعيفة نتيجة لضعف الدين عندهم ؟

● هل ان حالتهم أمست على مستوى يبيـح لهم شرعاً التخلف عن اداء هذه الفريضة ؟

أم لا هذا ولا ذاك ، وانما لانهم يعتقـدون ان السلطة ، وان رخصت لهم السفر الى اداء الحـج ، فهي ضمناً لا ترتاح اليه فيتخلفون عن اداء هذه الفريضة من باب التقية .

نظام العيلة في الاتحاد السوفييتي

شاء أحد المرشحين للمجلس النيابي في قطر مجاور ان يدعو الى اجتماع انتخابي في منطقة آهلة بالفلاحين . وأراد ان يكسب ثقتهم بالتعرض ، في خطابه ، الى الرأسمالية والاقطاعية وبالحملة عليها . ونوه بالاشتراكية واعداً مستمعيه الفلاحين بتحريرهم من أصحاب المزارع المستأثرين ان قدّر له ان يفوز في الانتخابات ، ووعدهم أيضاً بأنه سيعمل لانتزاع هذه المزارع من أصحابها وتوزيعها عليهم وفقاً للمباديء الاشتراكية .

وقد توهم الخطيب بأنه استطاع ان يكسبهم بالتلويح بالاشتراكية ، ولكنه ما كاد يهبط من المنبر حتى انتصب أحد الفلاحين وفاجأه بقوله : « **نحن لا نريد ان نكسب الارض ونفقد نساءنا باشتراكيتك التي تجعل الزوجات مشاعاً بين الجميع .** »

قال الفلاح هذا وهو متأثر كغيره بالدعايات المغرضة التي يوجهها أعداء الاتحاد السوفييتي اليه ، تلك الدعايات التي تصوره على غير حقيقته : تصوره بلاد بؤس وجهل كم يتمنى فيها الشعب لو تتاح له ثغرة في الستار الحديدي ليفرّ منها ، ويشاطر العالم في نعيمه . وتصوره يرزح تحت أثقال شيوعية عامة تجعل النساء مشاعاً بين الجميع ، أو على شبه المشاع ، اسوة بالمزارع التعاونية والمعامل . وتصوره على شكل يوهم السامع ان العيلة هناك أصبحت اسماً لغير مسمى لأن الجميع هم ملك

الدولة . وتصوره اخيراً وليس آخراً محروماً من محاسن الاخلاق اذ لم يبق للشعب هناك رادع من نفس ، ولا وازع من دين .

والواقع ان هذه الصور المغرضة لا تمثل الاتحاد السوفييتي على حقيقته ، وان الاتحاد السوفييتي أصبح ، بنظـامه القائم ، عالما جديداً ينشد الكمال في أساليب الحيـاة ، وفي مـكارم الأخلاق ، وهو في انقياده التام لقوانينه قد صار كالجنـد في الحرص عـلى التزام النظام .

فالعيلة هناك لا تختلف من حيث الأساس عن أمثالهـا في البـلاد الغربية ، بل قد تكون خـيراً من بعض تلك الـبلاد تمسكاً بالأخلاق . ففي الاتحـاد السوفييتي لا ترى الشبان والشابات على مثل ما تشاهده في بعض المدن الكبرى من الاتصالات المريبة في الحدائق العامة ، وفي الشوارع والمنحنيات . وفي الاتحـاد السوفييتي ، حيث لا وجود للبغـاء الرسمي ، لا تنظر عيناك بنات الهوى يذرعن الشوارع ، ذهاباً واياباً ، ولا سيا في المساء ، لاصطياد طلاب اللذة . وفي الاتحاد السوفييتي لا تشاهد ما تشاهده في غيرها من الافلام التي تثير الشهوات ، ومن المسارح حيث تعرض النساء عاريات .

على ان الحكومة في الاتحاد السوفييتي ، وان وقفت سداً منيعاً في وجه فساد الاخلاق وفي وجـه المغريات التي تؤدي الى رواج الفساد ، إلا أنها لم تحجز حرية العزاب والعازبات ، ولا ترى سبة في المعاشرة بينهما وتبـادل الحب والغرام . وعدا مـا في المدارس والحدائق وقاعات الرقص ، والمـلاعب الرياضية والمسارح العامـة من اختلاط دائم بين الشبان والشابات

ومطارحة الغرام ، فانك ترى الشوارع والميترو حافلة بهم يمشون زوجين زوجين ملتزمين حدود الأدب ، وتقوم صحبتهم على اساس الحب المتبادل دون أن يكون للمرأة مطمع بمال ، ودون ان يكون للرجل نية في ابتياع الاجسام والجمال .

والناس هناك لا يرون في الحب والمعاشرة أمراً فريا : فقد تعرفت الى آنسة أديبة راق لي حديثها فدعوتها الى مرافقتي في اليوم التالي بغية أن استعين بها على زيارة بعض انحاء المدينة . فقالت : « **حباً وكرامة ، وعندي يوما عطلة خصصت اليوم الاول منها لحبيبي ، وبوسعي ان البي دعوتك في اليوم التالي** » . قالت هذا وهي مرتاحة الضمير لا ترى في الحب أمراً فريا ، ولا ترى بالمرافقة شيئاً منكوراً .

فالحب عندهم هو الطريق المباشر الى الزواج ؛ واذا شكل المتحابان العيلة فأولادهما تبقى في حوزتها اسوة بسائر عيل العالم ، ويصبح كل واحد من الزوجين مسؤولاً عن أولاده .

غير ان الحكومة أخذت على عاتقها ، بالضمان الاجتماعي الذي أشرنا اليه ، تخفيف الاعباء عن العيلة . وفضلاً عن انها جعلت التعليم والتطبيب مجانيين فأنها حددت أجور المساكن على نسبة منخفضة الى حد انها تكاد تكون رمزية . فالمساكن هناك كلها للدولة ، إلا ما ندر ، فتعطي لكل عيلة داراً تتفق مع عددها ومورودها ، وتتناول منها اجرة بخمسة على أساس المورد ، وعلى نسبة خمسة في المئة من المورد ، أو تنقص .

ان بدلات الأجور في الاتحاد السوفييتي قليلة بالنسبة

لأمثالها في الغرب . ولذلك فان دولة الاتحاد ، تهتم بايجاد التوازن بين هذه الاجور وبين بدلات ايجارات العمل وبدلات السلع. فقد سألت سائقاً بموسكو عن مورده الشهري فأجـاب : « الف روبل » فقلت له : « كم تؤدي أجرة مسكنك ؟ » فقال : « انني أسكن شقة مفروشة بالضروريات وبعض الكماليـات ، وأؤدي عنها ٢٥ روبلاً في الشهر بما في ذلك المـاء والكهرباء والغاز وتكييف الهواء . »

ولما هبطت بنا الطائرة بمطـار ماكاشكالا على مقربة من باكو تعارفت هناك بشاب ارمني مهندس فسألته عن مرتبه الشهري واجرة داره فأجاب : « **٢٠٠٠ روبل ، وزوجتي طبيبة لهـا مرتب جيد ، ونحن نؤدي اجرة المسكن ٨٥ روبلاً في الشهر** ».

واذا علمنا ان قيمة الروبل تعادل ١٨ غرشاً لبنانياً تقريباً أدركنا ان السائق لا يؤدي للدولة بدلاً عن أجرة داره الشهرية إلا ٤٥٠ غرشاً لبنانيـاً ، وان المهندس المذكور وامرأته لا يدفعان إلا خمس عشرة ليرة لبنانية كل شهر أجرة مسكنهما المزود بالماء والنور وتكييف الهواء بالاضافة الى بعض الرياش الضرورية .

وعلاوة على كل ذلك مما يدخل في نطاق الضمان الاجتماعي فان الدولة حددت اجور الملاهي والمسارح والميترو والسيارات والملاعب الرياضية وغيرها على نسبة رخيصة ، كما انها حددت اثمان السلع والمأكولات على أساس تتحرى به التوازن بين الموارد الفردية والنفقات .

وفي هذا العام (١٩٥٧) زادت الدولة المبالغ المرصدة للضمانات الاجتماعية التي أخذتها على عاتقها فبلغت نحو ١٩٢ مليار روبل، أي ما يوازي ثلث موازنة الدولة.

وبهذه التنظيمات الاجتماعية أصبحت العيلة وافرادها مطمئنين كل الاطمئنان، لحاضرهم ومستقبلهم. وكان من عواقب ذلك ان أقبل الشبان ذكوراً واناثاً على الزواج الباكر، خصوصاً وان الدولة وضعت ضرائب على العزاب.

وماذا بعد يؤخرهم عن الزواج فلا مهر هناك ولا بائنة، ولا أولياء يتطلبون الكثير من الاموال للموافقة على تزويج بناتهم؟ كلا بل يكفي ان يتبادل الشاب والشابة الحب، وان يرى كل منهما في محبوبه الكفائة ليمضيا معاً الى دائرة كاتب العدل حيث يسجلان عقد زواجهما. وبذلك يكثر النسل وتقل الدعارة والابتذال.

هذا وكان دليلنا اسكندر شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، ولمّا ينتهي من الكلية، وكان يطيب لي ان ادعوه «باشا» بدلاً من لقبه «ساشا» وهو تصغير اسكندر عندهم.

وسألني يوماً اذا كنت لا أجد مانعاً من دعوة خطيبته لترافقنا الى المسرح. فقلت له كلا بل ان ما يسرك يسرني، لكني أود أن أسألك لماذا أسميت حبيبتك خطيبة وانت لا تزال يافعاً في المدرسة دون سن الزواج؟ قال هي خطيبتي، وأقبل عليّ يعلمني ان مؤهلات الزواج عندهم موفورة ما زال العمل لكل شاب وشابة ميسور. وان مدارسهم المختلطة تعبد

الطرق لكل منهما لاختيار رفيق الحياة من رفقاء الصفوف .

وهذه السهولة في الزواج ، ازاء ما في بلادنا من عقبات ترجع أكثرها الى ارتفاع المهور والبائنات ، حملت كثيرين من شباب العرب ، الذين يشتهون الزواج ولكن طمع أولياء الفتيات يحول بينهم وبين ما يشتهون ، حملتهم هذه السهولة عند زيارتهم الاتحاد السوفييتي ، على اختيار رفيقات لهن في الحياة على ما بين البلدين من اختلاف في التقاليد والعادات ، وقد عرفت بعضهم ولكني لن أسميهم . وقد تحدث اليّ آخرون عن رغبتهم في الزواج اسوة بالذين سبقوهم ، وقد رأيتهم شديدي الشوق للتعارف بفتيات يرضين بهم أزواجاً . ولكني لم أتورع عن أسداء النصح لهم ، وعن ايراد أمثلة على فشل اكثر الذين تزوجوا من أجنبيات ، أمثلة شاهدتها بنفسي في اوروبا وامريكا فضلًا عن بلادنا .

وهذه ناحية جديرة باهتمام المصلحين في البلاد العربية ، وجديرة باهتمام الحكومات اذ ان الاوطان العربية حافلة بالعزاب الذين لا يمنعهم عن الزواج إلا تقاليد بالية واعتبارات مالية . فحرام ان تبقى هذه التقاليد تحول بينهم وبين ما يرغبون ، وتفضي بالتالي الى انتشار الفجور والدعارة السرية .

المرأة في الاتحاد السوفييتي على وجه عام

ما ان استتب الأمر للحكم الشيوعي حتى كان أولى مراسيمه قوانين تقضي بالمساواة بين الجنسين في الحقوق الاقتصادية

والمدنية والسياسية . وأشفع هذه المراسيم بالعناية في تنفيذها في جميع الجمهوريات مستعيناً على ذلك بالنقابات . وقد استهل عمله بانشاء المدارس ، ولا سيا المهنية ومدارس تربية الأطفال بغية أن يعد من النساء صالحات للعمل ولتربية النشيء الجديد . وذلك فضلًا عن مدارس أخرى أنشأتها الجمهوريات للعاملات والفلاحات في كل مكان .

وما ان أعدت هذه المدارس اخصائيات من خريجاتها حتى أسلمت لهن الدولة بعض المراكز الاقتصادية والاجتماعية ، وعهدت اليهن بصورة خاصة بمهمة التعليم لمكافحة الأمية .

ولم تمضِ حقبة من الزمن حتى كان كثير من النسوة قد أكملن دراساتهن الثانوية والعليا . ثم لم تدخل سنة ١٩٥٧ حتى أصبح الطالبات على وجه عام اكثر عدداً من الطلاب . ذلك ان عدد طلاب المدارس التكنيكية في الاتحاد السوفييتي والمعاهد وسائر المدارس وطلاب المراسلة بلغ خمسين مليون شخص ، أي ربع سكان البلاد ، وكان اكثرهم من الأناث بنسبة ٥٣,٣ في المئة من مجموع عدد الطلاب .

وكان من عواقب هذا الاقبال النسوي على المدارس المختلفة ان نشأ في جمهوريات الاتحاد السوفييتي جيل جديد حافل بالمتعلمات والمتخصصات في شتى العلوم والفنون بينهن ٤٨٠ الف امرأة مهندسة وتكنيكية ، و ٥٣ في المئة من ذوات الاختصاص في التعليم العالي ، و ٦٦ في المئه من الاخصائيات ذوات التعليم الثانوي .

وقد ساقت الدولة هذا الجيش الى العمل وساوته بالرجل في الاجور والضمانات الاجتماعية ، وخصته بدور للولادة والحضانة، ومنحته اجازات ومساعدات إبان الحمـــل ، فاذا بهذا الجيش النسائي يزحف على الوظـــائف الرئيسية في الدولة والادارت المختلفة فيحتل كثيراً منها ، واذا به يساهم في كل انواع بناء الدولة .

ويبلغ الآن عدد النساء في الاعمال الصناعية ٥ر٤٥ في المئة ، ولكنه في المهن التعليمية يزيد على ذلك ، ويزيد بالتالي على عدد الرجال : فقد بلغت نسبة النساء في هذه المهن ٧٠ في المئة ، كما ان نسبة النساء في الاعمال الطبية بلغت ٧٥ في المئة .

هذا الى ان المرأة كانت لها مشاركة في النواحي العلميـــة والاكتشافات ؛ وتقدر نسبة النساء بين المكلفين بالابحاث العلمية ٣٦ في المئة . ويوجد في مؤسسات أكاديمية العلوم وحدهـــا ١١ عضوة مراســلة ، و٧٤١ دكتورة ، و ٢١٢٧ مرشحة في العلوم . كما انه يوجد اكثر منماية امرأة على رأس هـــذه المؤسسات العلمية الكبرى ومختبراتها . ومن مشاهير العالمات في روسيا أولغا ليباسينكايا ، كما ان واندا فاسيليفكا تعتبر من أبرز الأديبات .

وأما في الحياة السياسية فقد كثر عدد الشهيرات بين النساء مذ منحهـــا الحكم السوفييتي الحق في ان تنتخب وتنتخب . وهناك الآن ٣٤٨ امرأه نائبـة في السوفييت الأعلى أي نحو ربع عـدد مجموع النواب ، و ٢٣٠٠ نائبة في السوفييتات العليا

للجمهوريات وفي المناطق ذات الحكم الذاتي ، هذا فضلاً عن نصف مليون امرأة ونيف عضوات في المجالس المحلية والادارات. وقد تبوأ بعضهن الوزارات في جمهورياتهن وهن كثيرات نذكر منهن تاتا نيازويفة وزيرة الثقافة في جمهورية روسيا ، وستيفانيان وزيرة المال في جمهورية أرمينيا .

وكفى بهذه الاحصاءات دليلاً على ما تمتعت به المرأة في العهد السوفييتي من الاستقلال والمكانة .

المرأة المسلمة في الاتحاد السوفييتي على وجه خاص

كان نصيب المرأة المسلمة في الاتحاد السوفييتي نصيب جميع نساء هذا الاتحاد من النزول الى ميادين الاعمال ، ومن المساهمة في التعلم بحكم وحدة القوانين السارية في كل الجمهوريات . وكان لها بالتالي حظ غيرها في ادراك المراكز العليا ، سواء أكان ذلك في النطاق السياسي أم الاجتماعي وفقاً للدستور الموضوع سنة ١٩٣٦ . ففي مجلس سوفييت القوميات ٢٧و٩ في المئة من النائبات ، بينما ان عدد النساء في مجلس السوفييت الاعلى لا يتجاوز ٢٥و٨ في المائة .

والمسلمة الآن تكاد لا تختلف عن سائر نساء روسيا في نشاطها ومستواها العائلي ، ولا سيما في اذربيجان التي هي جزء من قفقاسيا . وقد اشتهر بعض المسلمات ، اسوة بغيرهن ، في النواحي السياسية والاجتماعية .

فمسعودة سلطانوف نائبة ازبكستان أهلتها كفاءتها لان تنتخب نائبة رئيس مجلس القوميات السوفييتية .

والمهندسة زوره عمروفا من كازاخستان انتخبت نائبة رئيس سوفييت الاتحاد واحرزت منصب الوزارة .

ومونو فارا قاسيموفا اسندت اليها جمهورية طاجكستان وزارة صناعة المنتجات الغذائية .

ومارزيا حميدو اللينا عينت نائبة لوزير التجارة في قازان عاصمة جمهورية التتر .

وامنغول محمدوفا ، الحائكة في معمل الغزل بمدينة اشخاذ ، انتخبت نائبة في السوفييت الأعلى لجمهورية تركمانستان .

وآي سلطان ، المديرة لاحدى المدارس الثانوية في تركمانستان والتي زارت بيروت أخيراً ، انتخبت نائبة في السوفييت الأعلى عن منطقة تشاوز .

وحكمة أمانوفا انتخبت رئيسة لسوفييت قصبة باست دراغوم في اوزبكستان ، كما ان الفلاحة ادشاب محمدوفا انتخبت رئيسة سوفييت قرية موليو تشروك . هذا فضلاً عن كثيرات غير هؤلاء انتخبن نائبـــات في السوفييت الاعلى أو في سوفييت القوميات وفي المجالس المحلية ، وبعضهن تبوأن المراكز الرئيسية في هذه المجالس .

والى هذا فقد أحرز بعض النساء المسلمات مكانة مرموقة في النواحي العلمية . وهن كثيرات وحبسنا الاشارة الى ساره جون يوسوبوفا الدكتورة في الجيولوجيا وعلم المعـــادن في

في طاجكستان . فهذه الشابة التي الفت ٥٥ كتاباً علمياً ورسالة تدير الآن شعبة من شعب جامعة بلادها ، ويذكر لها السوفييت مساهمتها في حل احدى القضايا عندما اصطدم بنـــاة مركز بيريبا دنايا الكهربائي ببعض العقبات .

ومن المفيد الاشارة الى ان مسلمات الاتحاد السوفييتي ، وان جمع بينهن التأثر من هذا الحكم والتطور بمقتضاه ، إلا ان أثر الشيوعية لا يبدو متساوياً بينهن وبين سواهن في سائر الجمهوريات السوفييتية . فبينما غير المسلمة المقيمة في احد الامصار الواقعة غربي بحر قزوين تكيفت بالواقـــع الروسي حتى لا تكاد تختلف عن الروسية الأصيلة تجد المسلمة في احدى الجمهوريات الواقعة في شرقي هذا البحر لا تزال محافظـــة على كثير من التقاليد الشرقية ، ما عدا خريجات المدارس والمعاهد . ويتجلى لك هذا الأمر منذ تهبط مطار احدى مدن اوزبكستان مثلاً اذ تشاهد الثياب الملونة المزركشة ، والمناديل التي تتقمط بها رؤوس بنات العامة .

ومن علائم هذه المحافظة على الازياء والتقاليـــد في بعض الاوساط انك لا ترى على الاكثر رسوم النائبات المسلمات اللواتي يمثلن جمهوريات الاتحاد السوفييتي في مجلس القوميات العالي بموسكو الا وترى غطـــاء الرأس يتدلى من رؤوسهن حتى اكتافهن .

على ان المسلمات سواء أكن من الجمهوريات الغربيـة أم الشرقية ، تجمع بينهن الاسماء العربية اسوة بالرجال وان أضيف

اليها فاء النسبة عند الروسيين ، أو بعض الاسماء التركية والفارسية والروسية .

على ان المرأة في الاتحاد السوفييتي هي على وجه عام لا تعنى بالاناقة والتبرج والاصباغ تزين بها شعرها ووجهها ، ذلك لأنهم جعلوها تعتقد انها عاملة مع الرجل في دولة للعمال ، وقد أثر عليها هذا الاعتقاد حتى في حيز اللباس والمظهر . هذا الى ان قلة الموارد والاجور كان لها أثر فعال في التزامها البساطة اسوة بالرجل : ذلك لأن الدولة تؤثر بذل الاموال في سبيل البناء والانشاء بدلاً من بذلها على الكماليات ، وتأمينها للشعب . وكان هذا الايثار الذي أفضى الى قلة الاجور من الاسباب التي حملت الشعب لالتزام البساطة في العيش . فهناك لا تجد المرأة التي عناها الشاعر بقوله :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

بل تلقى شعباً كتب عليه كله العمل حتى لم يبق لنسائه ذيل يجر ، ذلك لأن دستور البلاد ينص في المادة ١٢ على : « ان العمل هو من دواعي الشرف ومن الواجبات المفروضة على كل مواطن يستطيع العمل وفقاً لمبدأ من لا يعمل لا يأكل . »

وثبات الاتحاد السوفييتي في الشؤون العامة

لما ثار العمال والكادحون في روسيا ثورتهم الاشتراكية

الشيوعية المعروفة في تشرين الاول ١٩١٧ وقدر لهم احراز الانتصار على امبرطورية القياصرة لم يكن بوسع الدول الرأسمالية ان تلزم الحياد خوفاً من ان تكون هذه الثورة مثالاً يحتذى به في بلادها. فخفت هذه الدول لانجاد اعداء الشيوعية في روسيا، ثم لما نشبت الثورة الداخلية التي بذرت بذورها الرأسمالية اسرعت هذه الدول للتدخل تدخلاً مسلحاً على أمل خنق ثورة تشرين البروليتارية في المهد.

ولكن الحرب الاهلية انتهت ايضاً باحراز الشيوعيين النصر فيها، وما أن استتب لهم الامر حتى بادروا لتنظيم شؤون حزبهم، ولاقامة سلطتهم على أسس متينة. وحينئذ لم يسع الدول الرأسمالية الا أن تشدد عليهم الخناق وتحاصرهم اقتصاديا كيلا تتسرب الشيوعية الى ما وراء روسيا. وكانت تتوخى من هذا الحصار اشعال ثورات اخرى شعبية اذا ما اشتدت الضائقة على الروس.

وكان من عواقب ذلك قيام عداء بين الفريقين أسفر عن انكماش الجمهوريات السوفييتية على نفسها وافضى الى دورانها حول محورها فحسب، هذا فضلاً عن القائها ستاراً حديدياً بينها وبين العالم الآخر.

وقد رافق هذه التدابير التي لجأت اليها موسكو ضغط شديد على شعوبها وقسوة بغية تهديم كل العقبات القائمة في وجهها التي تحول دون انتشار مبادئها الجديدة، ورافقها أيضاً فرضها التقشف على الشعب، وقطع كل اتصال بالخارج مع

التشديد في منع الدخول الى بلادها ، والخروج منها .

وكان الاتحاد السوفييتي الذي انصرف بكليته وقتئذ الى البناء والانشاء يتوخى من القاء هذا الستار الحديدي ، أن لا يترك مجالاً للخصوم للاشراف على برامجه ، خشية أن يعرقلوا مساعيه الداخلية التي كان يضعها تباعاً بارشاد الحزب الشيوعي صاحب الامر والنهي . وقد استهل عمله بوضع برامج السنوات الخمس الاولى للتعمير والانشاء في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والحربية . فاذا بالاتحاد السوفييتي عند نهاية السنوات الخمس الاولى يصبح دولة صناعية زراعية قوية وحصناً منيعاً للشيوعية .

بيد ان الحرب العالمية الثانية التي نشبت سنة ١٩٣٩ قلبت الاوضاع فاذا بها تجمع سياسياً بين موسكو وبين لندن وواشنطن وباريس ضد برلين ، واذا بها لا توقف اعمال الانشاء في الاتحاد السوفييتي فحسب ، بل تلقيه في أحضان الشدائد والكوارث من جراء الغزو الألماني الهتلري في سنة ١٩٤١ .

ثم انتهت الحرب بفوز الحلفاء ، وفي عدادهم الاتحاد السوفييتي ، على النازية والفاشستية . وكانت حصة هذا من اسلاب الحرب حصة الأسد اذ امتد نطاقه الى برلين والبحر الادرياتيكي . ولكن ما أن وضعت الحرب اوزارها حتى عاد التوتر بين الشيوعية والرأسمالية الى سيرته الاولى ، بل أشد . ونشبت بينهما حرب باردة فاز في غضونها سنة ١٩٤٧ أنصار موسكو في الصين على انصار واشنطن فاكتمل نجاح الاتحاد

السوفييتي بانضمام الصين الشعبية الى رابطة الشعوب السوفييتية. ولا بدع لأن الصين، على اتساعها وثروتها الطبيعية تضم نحو ستمائة مليون نفس.

واستأنف الاتحاد السوفييتي بعد الحرب اعمال الانشاء والتعمير بنشاط لا مزيد عليه، وكان كلما حقق بنجاح مشاريع الخمس سنين يضع برامج أخرى لمشاريع خمس سنين تالية دواليك. ولما آنس في نفسه التفوق خلال الاعوام الاخيرة بادر الى رفع الستار الحديدي تدريجياً، وشرع يدعو العالم الى التعايش السلمي.

وقد اتخذ للدعاية الى نفسه طريقة مبتكرة كانت اجدى من وسائل النشر والاذاعة ذلك انه شرع يوجه الدعوات الى شعوب العالم وسياسييهم لزيارة بلاده، واخذ يطلع الزائرين على اسرار هذا النجاح باطلاعهم على منشآته في جميع النواحي وتنظيماته.

وكان الناس في اول الأمر يقابلون هذه الدعوات بحذر وتردد خيفة اتهامهم بالشيوعية او بموالات القيمين عليها، ثم اقبل بعضهم بجرأة على تلبيتها، وكانوا اذا عادوا لبلادهم يحدثون قومهم عما شاهدوا هناك من تنظيم وبناء لا يتفقان مع الصور التي رسمها في مخيلاتهم اعداء الاتحاد السوفييتي بما كانوا يصدرون من نشرات ودعايات، وبما كانوا يذيعونه من افتراءات. فكانت النتيجة ان هذه الزيارات خدمت موسكو بمقدار ليس بوسع النشرات والدعايات ان تدركه. وكان من نصيبي انني تلقيت

دعوة لزيارة الاتحـــاد السوفييتي فما ترددت في قبولها لأني احرص على زيادة معلوماتي العامـــة . وفي غضون المأدبة التي تلطفت السفارة السوفييتية بلبنان باقامتها لنا قبيل السفر في فنـدق بريستول قال لي مداعباً السيد هاشم الحسيني نائب طرابلس في المجلس النيابي اللبناني : « حينما تعود من الاتحاد السوفييتي ستجد شعر رأسك الابيض قد تحول الى احمر » . فقلت له : « ان شعر رأسي مثل قلبي ابيض وسيظلان ابيضين بعـــد عودتي . »

والواقع ان هذه الرحلة التي لم تبـدل شيئاً من مبادىء جعلتني اتعرف الى الاتحاد السوفييتي والى الصين الشعبية عـلى غير ما صورته لنا الدعايات الغربية خلال أربعين عامـــاً . فالاتحاد السوفييتي قد حقق خلال هذه الحقبـة اشياء تستحق الاعجاب في جميع النواحي المادية والعسكرية ، وتمكن مـــن خلق امة جديدة تسترعي الانظار من حيث نشاطها ومثابرتها على العمل ، والتزامها النظام وكأنها اجناد .

وللتدليل على مدى انطلاق الاتحاد السوفييتي يحسن بنـا ان نستعين بالأرقام وهي ارقام وان كانت روسية المصـادر الا انها تصح مع ذلك للتدليل على البون الشاسع بين مـــا كانت عليه البلاد قبل الثورة وما أدركته في العهد الحاضر ، حتى ولو لم تخل من مبالغات .

ففي التعدين أصبح الاتحـــاد السوفييتي ، على رواية تلك المصادر ، ينتج من الحديد الصب اكثر بكثير مما تنتجه انكلترا

وفرنسا وبلجيكا مجتمعة . وهو يحتل المركز الأول في أوروبا ، والثاني في العالم من حيث انتاج الفحم الحجري ، ويحتل المركز الثالث في العالم من حيث انتاج البترول . والى ذلك فان انتاج التيار الكهربائي زاد نحو ٢٠٠ مرة عما كان عليه عام ١٩١٣ . مما ساعد على كهربة جميع المدن ، وجميع الاوساط العمالية تقريباً وكهربة اكثر من ثلث المزارع التعاونية .

وأما في ناحية الانشاءات الميكانيكية ، التي هي محور التقدم التكنيكي لجميع فروع الاقتصاد الوطني ، فحسبنا الاشارة الى ان انتاجات هذه الانشاءآت والتعدين قد أربيا في الاتحاد السوفييتي على مايتي ضعف على ما كانت عليه عام ١٩١٣ . كما ان الانتاج الصناعي بلغت زيادته حتى عام ١٩٥٧ نحو ٣٣ مرة عما كان عليه في سنة ١٩١٣ تبعاً لزيادة وسائل الانتاج بمقدار ٧٤ مرة عن ذلك العام .

ورغم انخفاض النسبة المئوية في عدد الفلاحين اسوة بسائر العالم من جراء اقبال كثيرين منهم على المعامل فان المحاصيل الزراعية ازدادت عدة أضعاف ، ولا سيا في السنوات الاخيرة ، تبعاً لتقدم الصناعات الثقيلة واقبال التعاونيات الزراعية على استخدام الموتورات والجرارات الحديثة . كما ازدهرت تربية المواشي والأنعام وتضاعفت انتاجاتها مثنى وثلاث .

وأما في الناحية الثقافية فان المصادر الروسية الرسمية تؤكد انه تم القضاء المبرم على الأمية أو يكاد . وان خمسين مليون طالب يتابعون الدراسات في مختلف مؤسسات التعليم ، ومنهم

أربعة ملايين في المعاهد العالية وفي مدارس التخصص . وتؤكد ايضاً هذه المصادر ان ستة ملايين من المهندسين والتكنيكيين والاخصائيين في الزراعة وتربية الانعام ومن المعلمين والاطباء وسواهم يعملون الآن من أجل تقدم البلاد وازدهارها .

على انه مما لا ريب فيه ان السوفييت برزوا في ناحية ما وسع اخصامهم الا الاعتراف لهم بالفوز فيها والتفوق . تلك هي ناحية الاختراعات والاكتشافات التي استخدمت قوى الطاقة الذرية وفتحت مجاهل الفضاء . وحسبي الاشارة في التدليل على ذلك الى الكوكبين الصناعيين اللذين أطلقهما الروس في اواخر عام ١٩٥٧ . ففي ٤ تشرين الأول أطلقوا أول كوكب وظل يدور حول الارض ٩٢ يوماً حتى سقط في الرابع من كانون الثاني ١٩٥٨ بعد ان دار ، على رواية تاس ، ١٤٠٠ دورة حول الارض . وبينما كان هذا الكوكب موضع اعجاب العالم أطلق الروس كوكبهم الثاني مزوداً باجهزة علمية اكثر تنوعاً وذلك قبل ان ينقضي شهر واحد على اطلاق الكوكب الأول ، وكان يحمل الكلبة لايكا فقيدة العلم والاختبار . وروت وكالة تاس ، ونحن نكتب هذا الفصل ، ان الكوكب الثاني أتم حتى الساعة السادسة من صباح ١٢ شباط ١٩٥٨ (١٤٣٩) دورة حول الارض . ثم جاء عن موسكو ان هذا الجرم الارضي السماوي بلغت دوراته حول الارض حتى صباح ٢٤ آذار ١٩٥٨ (٢٠٤٢) دورة . وقد سقط هذا الكوكب في منتصف نيسان ١٩٥٨ بعد ان دار حول الارض ٢٢٧٠ دورة ،

وقطع مسافة تزيد على ماية مليون كيلومتر .

على ان كل ذلك التقدم الذي أحرزه الاتحاد السوفييتي لم يروِ مطامعه الجبارة ، بل قرر في مؤتمره العشرين الذي عقده الحزب الشيوعي خلال حزيران ١٩٥٧ وجوب الاستمرار على التقدم في أعوام السنين الخمس الآتية (١٩٥٩ — ١٩٦٠) للحاق بالبلدان الرأسمالية التي تمشي في الصف الأول وللتقدم عليها في أقصر مدة من الزمن . وهو يعتقد انه سوف يتمكن من احراز السبق في الانتاج الفردي على الولايات المتحدة الاميركية خلال مدة لا تتجاوز الخمس عشرة سنة ، ويكسب المقام الاول في المباراة الصناعية .

مستوى الحياة الاجتماعية في الاتحاد السوفييتي

أحرز الثائرون في روسيا النصر على القياصرة في تشرين الاول ١٩١٧ . وقد لبى دعاة الثورة الشيوعية العمال والفلاحون ، وكانوا يطالبون بوقف الحرب ، وعقد الصلح ، واقامة جمهورية ديموقراطية . وقد انضم اليهم الجنود المتذمرون من الحرب سواء أكانوا من جنود البر أم البحر .

وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ عقد المؤتمر الثاني للسوفييت في بتروغراد عاصمة القياصرة وأعلن الجمهورية وانتخاب لينين رئيساً لها . واستهل البلاشفة حكمهم باصدار مرسومين : مرسوم السلم ، ومرسوم شيوعية الارض ، ثم وقع الرئيس لينين في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٨ مرسوم تأليف الجيش الاحمر .

وقد قامت هذه الجمهورية في جو محموم . ذلك لأن الزحف الالماني كان يهددها من الخارج بينما كان الرأسماليون وانصار العهد السابق يهددونها من الداخل ، فكان عليها ان تعمل عمل الجبابرة ليس لمجابهة هذه الاخطار فحسب ، وانما لتبني وتنشأ على اسس جديدة من اجل رفع مستوى بلاد واسعة الارجاء ، مغمورة بالجهل والفقر .

ثم انتهت الحرب ، ولكن مشاكلها لم تنته من جراء مؤامرات الدول الرأسمالية ، فأقدمت ، على ما بيناه قبلاً ، على اقامة الستار الحديدي بينها وبين العالم الآخر ، وأقدمت بخطى ثابتة على الانشاء في جميع النواحي ، ولا سيما في حقل الاستعداد الحربي .

ولكن انى لها أن تحقق أمانيها بسهولة ودخل البلاد كان ، في ذلك الحين ، قليلاً جداً ؟ لذلك فقد اضطر السوفييت ، في سبيل تحقيق برامجهم الاولى ، الى فرض حياة تقشف على الشعب . فكان من عواقب هذه الخطة ان عاش الشعب في شبه حرمان مدة تناهز ربع قرن كان خلالها لا يتذمر من الحرمان فحسب ، بل من سياسة العنف الشديد الذي لجأ اليها المسيطرون في سبيل توطيد اركان الشيوعية .

غير ان جهود السلطة والحزب الشيوعي لم تلبث أن أعطت أكلها ، ذلك لأن الضائقة المالية كانت قد شرعت تخف تدريجياً بمقدار زيادة دخل البلاد وتأمين العمل للافراد ، كما ان سياسة العنف شرعت تتلطف ، ولا سيما بعد ستالين ، نتيجة

لاستقرار المباديء الشيوعية بين الجيل الحاضر .

فقبل الثورة كان عدد العمال في روسيا لا يتعـدى ١١ مليوناً ، وكان العاطلون عن العمل كثيرون ، ولكن مـا أن انقضى ١٥ عاماً على الثورة حتى اجتست البطالة من اصولها ، واصبح القادرون على العمل ، نساءً ورجالاً ، عمالاً عنـد دولة العمال ، وذلك منذ سن المراهقة . وقد بلغ عددهم مع الموظفين منهم ٥٥،٥ مليوناً .

وهذه الزيادة في عدد العمال كان معناها زيادة الانتـاج ، وبالتالي زيادة الدخـل القومي الذي تخطى فى سنة ١٩٥٧ نحو عشرين مرة انتاج روسيا القيصرية . كل ذلك أتاح للسلطة المبادرة الى التوسيع على الشعب في ناحيتين : (١) ناحية زيادة أجور العمال تدريجياً الى أن أضحت الزيادة تناهز ٨٢ في المائة على وجه عام ، و ٩٥ ٪ في الصنائع على وجه خاص . (٢) ناحية تخفيض اثمان الحاجيات التي تباع بالمفرق ، ولا سيما المأكولات. وقد جرى تخفيضها على مراحل تسع مـا بين اعوام ١٩٤٧ و ١٩٥٧ حتى بلغ تخفيضها مقدار ٥٧ في المئة .

وكان لرفع الاجور وتنزيل الاثمان آثار عظيمة من حيث ارتفاع مستوى الحياة في البضع سنين الاخيرة . حدثني صديق زار موسكو قبل ثلاث سنوات ، ثم عاد اليها أخيراً انه رأى الفرق كبيراً في مستوى حياة الشعب خلال هذه الاعوام القليلة.

ومع ذلك فان الذي يزور الاتحاد السوفييتي الآن آتيـاً من الغرب ، أم من بلد كبلدنا في الشرق ، سرعان مـا يشعر

بالفارق بين مستوى حياة الروس الحاضرة وبين غيره من البلاد المرفهة . يشعر بذلك ليس من حيث العمران لان هذا موفور في الاتحاد السوفييتي ، وانما يلمسه في الثياب والهندام والمساكن ، وفي بساطة العيش على وجه عام .

نظرة الى المارين في الشوارع ، والمتنزهين في الحدائق ، والمقبلين على المسارح تريك شعباً كأنه لا يبالي بالزينة ، ولا يتمنى ان يظهر بمظهر الثراء ، وتريك النساء وكأنهن ينكرن بروز النهود والكشف عن السواعد والزنود ، ويزهدن بتصفيف الشعور ، وتجميل الوجوه . وذلك لأن هؤلاء يمثلون جيلاً نشأ في رحاب التقشف ، وألف البساطة ودرج عليها . رغم ما وسع عليه الآن بمقدار . واذا رأيت ، ثم رأيت سادة وسيدات هناك تلفت بزاتهم الانظار ، ويسترعي تبرجهم العيون فهم غرباء زائرون ، أم أفراد من البعثات السياسية الاجنبية .

ونظرة أخرى الى واجهات المخازن وما فيها من معروضات من أنواع الالبسة والأقمشة وأنواع الحاجيات ، أو زيارة المخازن الكبرى كمخزن كوم في موسكو فانك تجد فيها كل شيء . ولكنك لا تعثر فيها إلا قليلاً على الأجناس الثمينة ، واذا لقيت شيئاً منها فهو مجلوب من خارج البلاد ، ومعروض باثمان باهظه . وذلك بسبب زيادة المكوس المضروبة على أمثاله ، ولغلاء ثمن القطع الاجنبي في الاتحاد السوفييتي ، ولندارة النقد النادر .

وقد بدت لي ظاهرة في الاتحاد السوفييتي وفي بلغاريا

مدارها أن حياة التقشف التي عاشها هناك الجيل الحاضر بالاضافة الى تطلع البشر بصورة طبيعية الى محاكاة من كان أحسن منهم وأفضل كونت في مخيلة بعضهم صورة براقة لحياة غيرهم ، ولا سيما اميركا التي يسمعون عن ثروتها ووسائل الرخاء فيها . وقد لمست هذه الظاهرة بسؤالين متشابهين طرحا عليَّ : مرة في صوفيا ، ومرة في موسكو . وفحوى السؤال : « اذا كنت من اميركا ! »

على انك اذا انتقلت الى الأرياف وشاهدت الفلاحين شاهدت هناك كيف ان مستوى الشعب لا يزال محافظاً على سذاجته الاولى . وقد اتيح لي أن أرى نماذج منهم في الساحة الحمراء بموسكو ينتظرون دورهم لزيارة الموزليه ، مقام لينين وستالين ، فاذا هم لا يختلفون بازيائهم عما رأيت منهم في صوفيا ، ولا يتميزون بشيء عما كنا نراه من رسوم امثالهم في العهد القيصري .

واما ما يصح ان يسمى بضائقة في البلاد السوفييتية ، ولا سيما في حواضرها التي اصبحت اوساطاً صناعية ، فهي أزمة المساكن . والسلطة هناك تشعر بهذه الأزمة وتعترف بوجودها ؛ ولذلك فانها جادة في اقامة العمارات الكبيرة التي يستوعب كل منها مئات العائلات مخصصة مبالغ وافرة لهذه الغاية ، وهي تؤمل أن تسد هذا الفراغ خلال مدة تتراوح بين ١٠ و ١٢ عاماً . ويقول المسؤولون انه سيتم لهم خلال هذه السنوات تشييد ٨،٢٠٠،٠٠٠ مسكن .

وإذا عرفنا أن السوفييت أنفسهم يقدرون النقص في المساكن بنحو ثمانية ملايين مسكن أدركنا مبلغ هذه الازمة؛ كما انا اذا علمنا انه يقتضي لسد هذا الفراغ دزينة من الاعوام قدرنا كم سوف يتحمل أفراد الشعب اثقال هذه الازمة الى حين .

وقد أدلى أخيراً ن . خروشوف الأمين الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الذي انتخب اخيراً رئيساً للوزارة ادلى بحديث الى هنري شابيرو مراسل وكالة يونايتدبرس الاميركية جاء فيه :

« اننا نريد تأمين مسكن لكل عائلة ، وليس تأمين غرفة فقط . ولا يعني أن اقول لك اذا كانت جميع المساكن ستكون حسنة جداً . أجل فلن يتوفر في جميع المساكن ، على الارجح ، خلال عشر او اثنتي عشرة سنة أسباب الراحة التي من شأنها أن ترضي جميع الناس ارضاء تاماً . وبالطبع يلزم لذلك وقت اكثر بقليل » .

وهذا الحديث من شأنه أن يدل على مقدار الأزمة ، ويدل أيضاً على مبلغ حرمان المساكن الحاضرة من تأمين راحة ساكنيها . حقاً ان ما بني منها وما هو قيد الانشاء هو في ضخامته يشبه الثكنات ، وبعضها يبز القصور في جمال هندسته وكبر حجمه . ولكن ما الفائدة من صروح لا يصيب العيلة منها الا غرفة أو غرفتين . ولا يتمتع ساكنوها بلذة الاستقلال ؟

أجل فان للبيت التي تتوفر فيه شروط الاستقلال الذاتي لذة لا تضاهيها لذة من شأنها أن تجدد النشاط في كل يوم ، لذة لا يفتأ الانسان يفضلها على كل منزل آخر حتى ولو اتيح له أن يسكن اكبر الفنـــادق ، وأن يُضاف في أفخم الدور ، ولذلك قيل في الأمثال العامة « **ما في احلى مـــن بيتي** » .

وهذه اللذة مفقودة في الاتحاد السوفييتي على وجه عام ، وسوف تبقى مفقودة ما زالت الشيوعية قائمة على اعتبار ان كل الشعب عمـال . وعلى اعتبار أن مستوى الشعب يجب أن يبقى في نطاق العمال .

ولا أدري ، من بعد ، اذا كان الشعب في الاتحاد السوفييتي يشاطرني هذا الرأي . وأظنه على رأيي ، وكيف لا وهم يقضون نهارهم عمالاً مقيدين او شبه العمال ، ثم اذا جن الليل وازف وقت الراحة لا يجدون في المساكن التي يأوون اليهـا ذلك الاستقـــــــلال المنشود ، فضلاً عن ذلك الاتساع الذي يؤمن وسائل الراحة لهم ولعيالهم .

واذا كان لا بد لي من ان اضرب مثلاً على ازمة المساكن هنالك فحسبي أن أتكلم على دار اعدت لأحـدى السفارات . فلما دعانا أحد السفراء لتناول الطعام معه خيّل لي انني سأشاهد قصراً يليق بالسفارة . وما أشد عجبي حينما وقفت السيارة امام بيت يقع في الطابق السفلي من احدى البنايات ؟ بيت ليس فيه الا أربع غرف لا يرضى السفير في بلده أن يتخذها داراً له .

وزاد في عجبي اذ علمت أن هذا البيت الصغير معد ، في وقت واحد ، للسفارة واسكنى السفير وعيلته . ولما أبديت له عجبي من الارتضاء به اعتذر بما هنالك من صعوبـــة الحصول على دار أفضل .

هل الشعوب السوفييتية راضية ؟

سبق لنا أن قلنا ان الشعب الروسي مطمئن الى حاضره ومستقبله اذ أمنت السلطات لأفراده تعليم الأولاد ، وتطبيب المرضى ، ورعاية الامهات والأطفـــال ، وتأمين العمل لـكل واحد من الناس ، واعطاء المرتبات للذين يبلغون سن التقاعـد والمقعدين ، واعـداد المساكن الشعبية بأجور تـكاد تكون رمزية . ويدرك ما لهـــذه المنح والمساعدات من أهمية الذين يعيشون في بلاد كبلادنا تعاني أزمـــات المدارس والتطبيب والبطالة ، والذين يكابدون الصعوبات من أجل تأمين المساكن ، ويتذمرون من غلاء أثمان الأدوية وارتفاع اجور المساكن .

وهذه ناحية لا تذكر الا وتذكر معهـا أيادي السلطات السوفييتية ، ولكن ليس بالخبز وحده يعيش الانسان ، بل ان مطامعه تتعدى حد الخوف من الجوع والجهل والمرض . فهو يطمع بأن يعيش حراً طليقاً مستقلاً عـــلى غير الشكل الذي تعيش فيه تلامذة المدارس الداخلية ، وعلى غير نسق حيـــاة العساكر في الثكنات والدساكر . وهو الى هذا يأبى على كل سلطة أن تجعل مستوى حياته دون مرتبة معاصريه في البلاد

الأخرى التي تتسرب اليه أخبارها والتي تنقل الانباء اليه افانين رفاهيتها . لذلك فان فريقاً من الشعوب السوفياتية ، ومن الشعوب الاخرى التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي غير راض عن الحكم القائم وأساليبه ، وهو يشكو في السر ويتذمر ، وان كان لا يستطيع اعلان ما يضمر . اما شكاوى هذا الفريق فهي تتلخص بالامور التالية :

● ان الحرية الفردية مفقودة في الاتحاد السوفييتي وفي البلاد الملحقة به . فلا يستطيع الفرد الانطلاق وراء مطامعه الذاتية ليتسنى له احراز المركز الذي يتفق مع كفاءته .

● ان القيود في الحياة الشيوعية ، من حيث تحديد الثروة ، تحول بينهم وبين امنياتهم الى حد انك اذا كنت ذكياً شاطراً لا تستطيع أن تؤمن لنفسك ثروة تتفق مع كفاءتك ، وانما يفرض عليك ان تعيش عيشة البساطة على غرار جميع الشعب .

● ان حرية الفكر مفقودة لأن كل شيء هناك مسير وفقاً لارادة الحزب الشيوعي وتوجيهه ، ولا يستثنى من ذلك الادب والفن . والخوف من العيون والرقباء لا يحول بين الناس وبين حرية الرأي فحسب ، بل يحرمهم من فوائد النقد والمعارضة ، فتظل الأمور جارية على وتيرة واحدة وفقاً لارادة كتلة واحدة دون أن يكون للشعب فيها رأي الا بالأمر .

ان الشيوعية تفاخر بانها ردت السلطة الى العمال . وكيف تكون السلطة في قبضة هؤلاء وهم مقيدو الفكر مساقون الى

العمل دون أن يكون لهم ارادة ، كما تساق الأنعام ؟

ان الحزب الشيوعي الحاكم بأمره يبرر وجوده بأنه هو طليعة الشعب ، وانه يعمل لخير الشعب . وهذا قول يتستر وراءه كل ديكتاتوري مستبد . فما الفرق اذن بين الديكتاتورية الفردية والديكتاتورية الجماعية ما زال الحزب الشيوعي يحكم على هواه ويتعدى نفوذه مستوى الشعب الى مجالس الحكومات الى حد انه ينحّي من يشاء من الوزراء ويوقف ما يشاء من قرارات الوزارات وأوامرها ، ويقيد الانتخابات ؟

● ان الشيوعية تحارب وجود الطبقات بين الشعب . فأي مسوغ اذن لوجود طبقة تسيطر على مقدرات الجمهوريات وهي غير منتخبة انتخاباً شعبياً ؟

● اذا كانت الثورة العمالية بررت في بداية العهد وجود هذه الطبقة التي تسمى الحزب الشيوعي دون غيرها من الاحزاب فما يبرر بقاءها بعد مضي اربعين سنة على الثورة، وبعد ان استتبت الامور واستقر النظام الشيوعي ؟ وما يبرر بالتالي حرمان البلاد من الاحزاب المعارضة بينما ان بعض الدول يبلغ من حرصها على خلق الاحزاب المعارضة انها تسعفها بالمساعدات ؟

● ان السلطات ما تزال تمنع الشعب السوفييتي من الاتصال بالشعوب الاخرى فتراقبهم ان كاتبوا ، وتقيم في وجوههم العقبات ان أرادوا السفر الى الخارج . والآن وقد أصبح العالم واحداً فكيف يلذ العيش للانسان الذي يري نفسه تحت

المراقبة ان راسل ، ويرى حريته محجوزة اذا شاء السفر للتجارة أم للنزهة ، وكيف يلذ له العيش وهو يرى نفسه كأنه في سجن على وجه عام ؟ بلى ان الرئيس خروشوف قد أعلن أخيراً انه بلغ عدد زائري الاتحاد السوفييتي ٥٥٠ الف زائر ، وان عدد السوفييت الذين خرجوا لزيارة البلاد الاخرى يناهز ٧٥٠ الفاً ولكن ما أهمية هذين العددين بالنسبة لبلاد يبلغ سكانها مايتي مليون من الناس ؟

● ان السلطة وان أطلقت في العهد الاخير حرية الاعتقاد، وسمحت للمتديّنين بان يمارسوا شعائر اديانهم ، وذلك في المعابد القليلة التي تركتها لهم ، ولكن سياستها إزاء الاديان لا تزال على ما كانت عليه من الدعاية للالحاد ، ومن ابعاد المتديّنين . أما وان هذه السياسة قد أفضت الى الالحاد الى حد انه لم يبق غير المسنين بين المتديّنين فان هؤلاء يترقبون ، اذا استمرت سياسة الدولة على هذا المنوال ، ان لا يبقي مؤمن بعد زوال الجيل الحاضر المخضرم .

● ان لبعض الاديان شرائع اذا حاد المؤمن عنها اعتبر خارجاً عن دينه . والواقع ان صاحب القول الفصل في الاتحاد السوفييتي هو جهاز القضاء التابع للدولة وحده ، ولو كان حكمه يتنافى مع شريعة المتقاضين . وكيف تكون الحرية الدينية مضمونة اذا كانت احكام شرائع الاديان معطلة بالنسبة لمعتنقيها ؟

● ان أجور العمال لا تزال قليلة رغم ما أصابها من زيادات في السنين العشر الأخيرة ولا تسمح للشعب بأن يرتفع

الى مستوى غيره من الشعوب ، وان حالة المساكن لا تؤمن الراحة المنشودة لساكنيهـا فإلى متى سوف تبقى الشعوب السوفييتية تتمنى ان تحيا حياة سعيدة مثل غيرها ؟

فهذه الشكاوى والانتقادات وامثالهـا تجول في خواطر شعوب جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، ولا سيما في الجمهوريات التي يطلق عليها اسم جمهوريات الأقليات . وتتردد على الأكثر في أذهان الطبقات التي عاصرت الجيل السابق . ولكن من يجرأ ان يبوح بها ؟ ومن يجسر ان ينشر شيئاً منها ؟

وبعد فاني اعتقد ان السوفييت مقدمون حتماً على مسايرة الزمن ومراعاة المطاليب المتفقة مع الحريات العامة . انهم مقدمون على ذلك اسوة بالدول الديموقراطيـة التي كان الخوف من انتشار المبادىء الشيوعية حافزاً لهـا على تحسين احوال العمال ورفع انظمة الضمان الاجتماعي .

واعتقادي هذا قائم على أساس ان العالم الذي نعيش فيه أصبح عالماً يكاد يكون واحداً ، ولا سيما بعد ان رفع السوفييت الستار الحديدي . عالماً يأخذ من بعضه البعض ويعطي ، فيتقارب حتى يأتي يوم يصبح فيه وطنـاً واحداً يرفرف فوقه علم الانسانية والأخوة .

وقد جاء الدليل على ذلك في الانتخابات النيابية التي جرت في عموم البلاد السوفييتية في ١٩٥٨/٣/١٦ . فان حكومـة العهد ما ان نفست اخيراً على الشعب في حريته حتى بـدا المزيد من المعارضة بمقدار ما نفست عنه . ورغم انهـا تفرض

على المقترعين ان يقولوا «نعم أم لا» في انتخابهم المرشحين من قبلها فان عدد الذين تجاسروا على القول «لا» في الانتخابات الاخيرة كان يزيد على ضعف عدد هؤلاء المعارضين بالنسبة لعام ١٩٥٤ . وقد جاء عن موسكو ان حوالي مليون ناخب قد اقترعوا ضد مرشحي الحزب الشيوعي في هذه المرة . وهذا العدد وان لم يكن يزيد عن الواحد في المائة بالنسبة لعدد المقترعين الاجمالي البالغ ١٣٣ مليون و٧٩٦ ناخباً الا انه ذو معنى كبير . ومعناه ان ازدياد الحرية الذي لا مناص منه في الاتحاد السوفييتي سوف يفضي الى تعديل سياسة الحزب الشيوعي تعديلًا متتابعاً مسايرة للظروف حتى يؤدي في النتيجة الى التلاقي بسائر العالم الذي يتطور هو نفسه اجتماعياً شطر كثير من المباديء الشيوعية .



الفصل الثالث

عاصمة القياصرة « بتروغراد »

جمال لينغراد ومعالمها

غادرنا موسكو على القطار الحديدي مساء يوم ١٠ ايلول ١٩٥٧ قاصدين الى لينغراد: الى عاصمة القياصرة التي كانت تسمى من قبل سان بطرسبرج أو بتروغراد.

وما كاد يستقر بنا المقام في القطار حتى رأينا احد الفنانين اللبنانيين يدخل علينا تصحبه آنسة روسية لعوبة. وقدم لنا رفيقته على انها صحفية شهيرة بالنقد الفني! وقد أدركت فوراً انها يهودية لأن اسمها منحوت من ابراهيم.

فكيف تعرفت بها وماذا اتى بكما لمرافقتنا ؟

أسئلة كان من الطبيعي ان نطرحها على المواطن الفنان ٠ وكان جوابه انه تعرف اليها في الفندق ، وانها مـا ان علمت بعزمه على السفر الى لينغراد حتى تخلت عن صاحبهـا الذي كان يرافقها ، وانساقت بقوة الجاذبية الى السفر معه ، وبالتالي معنا الى لينغراد .

ولكن هذا الجواب وضع أمامنا علامات الاستفهام «؟؟؟» خصوصا وان مواطننا علق على جوابه ما يفيـد أن رفيق هذه الآنسة الذي تخلت عنه في الفندق لم يحرد ، ولم يستول عليه الغم ، بل جاء مع صاحبته الى المحطة ليشيعها ، وقد تمنّى لها سفرة سعيدة .

ومهما كان السبب الذي حمل هذه الآنسة على مرافقتها لنا فان وجودها معنا ، على ما هي عليه من الاستهتار ، أضفى على جو ليلتنا شيئاً كثيراً من الأنس والسرور . ولمـا أصبح الصباح وأشرفنا على مقربة من لينغراد كان القطار يسير بين الغابات والغياض ذات الاشجـار الباسقة حتى اذا أدرك المحطـة بادر للترحيب بنا موفدان من فرع مؤسسة فوكس في لينغراد ، وهما اسكندر باركاجف رئيس الفرع ، والكسي روفينياكوف. وسارا بنا الى اوتيل اوروبا التي تعد من اقدم فنادق المدينة وأفضلها . وعقب استراحة قليـلة تلطف الكسي بمرافقتنا في جولة عامة للمدينة قصد تكوين فكرة اجمالية عنها قبل زيارة معاهدها . وحينئذ أدركت لماذا اختارها القياصرة عاصمة لامبراطوريتهم.

ان المدينة تقوم في بقعة كثيرة الروعة والجمال . وتستمد جمالها من نهر النيفا الكبير الذي يخترق قلبها ، وتنساب روافده في سائر انحائها . والنهر اذا انساب في بلد أبدع في خلق الروائع ، ولا سيما اذا كان مثل نهر النيفا الذي كوّن البحيرات وشق الترع وحمل على ظهره السفن في غدوها ورواحها . وقد ذكرتنا مناظر لينغراد الجميلة باستامبول وبوسفورها .

وجمال لينغراد لا يرجع الى موقعها والى نهرها فحسب ، بل يعود ايضاً الى ما بذل القياصرة من اموال في سبيل عمرانها . اما وان القياصرة قد اختاروها لتكون عاصمة لأمبراطوريتهم فمن البديهي ان ترتفع عظمة العاصمة الى مستوى عظمة الأمبرطورية . قصور فخمة ، وكاتدرائيات ضخمة ، وقلاع منيعة، وحدائق بديعة ، ومسارح فنية ، ومعاهد علمية ، كلها جميل ، وتزدان جمالاً بروافد النهر التي تنساب حولها ،وبحيراته التي تربض في بعض اوساطها ، هذا فضلاً عن تلك الجسور الواسعة الكبيرة التي تهزأ بجبروت النهر فتصل بين ما قطع من انحاء المدينة .

وأما الحدائق والساحات والشوارع فلا أدري باي شيء تفاخر أكثر . أفي اتساعها أم في اخضرارها أم في تلك التماثيل الشامخة والانصاب الكثيرة التي ترتفع في كل بقعة منها ؟

انها مدينة جميلة ، وحسبك ان تلقي نظرك على خارطة تحدد مواقع القصور فيها والكنائس والحدائق والملاعب والمتاحف والمسارح ، وتصورها مصغرة ، حتى تدرك مرتبة العاصمة القديمة،

وتعتقد انها اوفر عمراناً من موسكو العاصمة الجديدة .

والمجال رحب للتبسط في وصفها ، ولكن هذه المذكرات لا تتسع للاسهاب فنكتفي بهذا التنويه . على ان نقف فقط عند ما هو جدير بالذكر بالنسبة لنا .

فقد تحولت كل هذه الصروح التي شيدت على التوالي من أجل تأمين رفاه أفراد معدودين وتحقيق شهواتهم تحولت الى الشعب ، أو بكلمة أخرى الى دولة العمال ، فأعـــدت معظمها المنافع العامـة . أجـل فقد تحولت قصور الأمس الى متاحف وجامعات ومعاهد علمية ومستشفيات وغيرها ، وبدلت أسمـاء الشوارع والحدائق باسماء جديدة لكبار رجـــال الثورة من أمثال لينين وكيروف . كما ان تماثيل القياصرة وأبطال العهد الماضي ونوابغه لم تبق وحدها ، بل قامت تنافسهـا ، في كل مكان ، تماثيل أخرى لرجالات العهـــد الحاضر من السياسيين والشعراء والعلماء .

ولا بأس على بتروغراد اذا استبدل اسمهـــا بلينينغراد ، واستبدلت اسماء شوارعها وحدائقها بغيرها فلها اسوة بكثير من حواضر الاتحاد السوفييتي الأخرى .

وهذا نهر الفولـكا الكبير لو تكلم لعدد لك مدناً كثيرة حوله أسميت باسماء جديدة مثل ستالينغراد ، وفورشيلوف غراد ، وستالينو ، ومولوتوف ، هذا فضلاً عن مدن أخرى هي أبعـد عن مجرى النهر مثل لينين آباد في ازبكستان ، وكيروف غراد باذربيجان .

على ان عاصمة القياصرة وان تحولت الى مدينـــة كسائر أمهات المدن السوفييتية الا انها مـا برحت تمتاز بمكانتهـــا الاجتماعية استناداً الى تراثهـا القديم الامبرطوري . فهي حافـلة بالمؤسسات العلمية الـكبرى والمتاحف المختلفة والمسارح . فاذا ذكرت المتاحف يذكر معها متحف الدولة الروسية ومتحف السوفييت الأعلى لأكاديمية العلوم وخزائن المستندات التاريخية للدولة ، واذا ذكرت الجامعات يذكر معها جامعة السوفييت العليا للفنون ، واكاديمية بوشكين الدراماتيكية . واذا ذكرت المسارح ذكر معها مسرح بوشكين الدراماتيكي التابع لجامعة الدولة .

على ان قصر الشتاء الذي يسمى الآن Hermitage يعتبر من أضخم هذه القصور ، وتعتبر محتوياته من أثمن التحف . ولهـذا الاعتبار لا بد من الوقوف عنده خصوصاً وان معهد الدراسات الشرقية يقوم في ناحية من نواحيه .

قصر الشتاء ومعهد الدراسات الشرقية – الكتب العربية

شاد هذا القصر بطرس الاكبر في أجمل بقعة في العاصمة ، وهو يقع في وسط المدينة على بحـيرة كبيرة تلتف حولهـــا القصور . ولما زرنا هذا القصر كانت امنيتنا الاولى تستهدف زيارة القسم الخاص بمعهد الدراسات الشرقية ، ولا سيما مكتبته . وهناك تقدم للترحاب بنا مدير المعهد بيلائيف ومعاونوه . وهو

مستشرق ومن تلامذة المستشرق الروسي الأشهر كريستوفسكي، ولكنه، وان كان يفهم اللغة العربيـــة ويكتبها، الا انه لا يحسن الكلام بها .

وقد تلخص لنا من حديثه ان هـذا المعهد الذي نزوره أنشيء سنة ١٨١٨، ولكنه أصبح الآن فرعاً لمعهد الدراسات الشرقية بموسكو . وأما مخطوطات خزائن كتبه فتقدر بأربعين الف مخطوطة، وثلاثين الف مستند تاريخي ما بين رسائل متبادلة ووثائق اقتصادية . هذا بالاضافة الى مخطوطات روسية وقبطية ويونانية كثيرة العدد، وكلها تتعلق بالشرق . وفي هذه الخزائن ١٢ الفاً من المجلدات العربية، ومثل ذلك من المخطوطـات العربية أم تزيد .

وما كان بوسعنا ان نتصفح هذا الحشد من المخطوطات، بل اقتصرنا على بعضها وتصفحنا الكتب التالية :

١ – الحشائش لغياث الدين محمد الريضاوي .

٢ – ديوان مصور لعلي نيفائلي كتب في هراة باللغة الازبكية التركية .

٣ – الملوك للفردوسي باللغة الفارسية، وهو المعروف بالشاهنامة

٤ – عجائب المخلوقات للقزويني كتب بالفارسية في سنة ٩٨٨ﻫ بخط «العبد غياث الدين علي الاصفهاني»، وهو مزدان بصور متقنة . وقد رأينا هناك نسخة أخرى منه مصورة ايضاً يعود تاريخها الى القرن الثالث عشر الميلاد . ويظن بيلاييف انها كتبت في الموصل .

وقد أرانا المدير كذلك بعض أجزاء من القرآن الكريم كتبت بالخط الكوفي الجميل. ثم سار بنا الى المتحف الأسيوي الذي يجاور المكتبة، وهو متحف لا أهمية له، ألا انه لا يخلو من التحف والنفائس والآثار القديمة التي تعود لأمم الشرق عامة والمسلمين خاصة. وبعد ان طفنا في هذا المتحف مدة قليلة ودعنا المدير ومعاونيه شاكرين لهم حفاوتهم وانتقلنا الى متاحف الأرمتاج الاخرى.

وهنا يمكنك ان تتحدث ما شئت عن هذه المتاحف ولا حرج، أما وأننا لا نجد متسعاً لمثل هذا الحديث فنكتفي بالقول في وصف هذه المتاحف الغنية التي تعود الى عهد القياصرة انها تجمع من النفائس ما لم نرَ بمقدارها في موسكو. بيد أننا لاحظنا ان المعروضات الشرقية فيها، ولا سيما الاسلامية، نادرة بما لا يتناسب مع ثروة هذه المتاحف المختلفة.

على ان ما يستحق المزيد من التنويه هو قسم المجوهرات والمصاغات الذهبية؛ فهو كنز لا تقتصر قيمته على ما فيه من ثروة مادية، وانما تعود في الأكثر الى قيمة محتوياته من الناحية التاريخية.

المتحف الروسي – وتفتح مشاعر العامة

وزرنا بلينينغراد من المتاحف والمؤسسات شيئاً كثيراً، ولكننا نخص المتحف الروسي بالذكر دون سواه للاشارة الى

بعض الامور التي يفيد ذكرها .

فقد طاب لسائق السيارة ان يقف معنا برهة عند باب الحديقة الانيقة التي توصل الى هذا المتحف ، يشاركنا في تأمل التمثال الكبير القائم في وسطها .

لمن هذا التمثال ؟

أجاب السائق : « تمثال الشاعر المحبوب بوشكين » . واحتار كيف يصف لنا صاحب التمثال . وكيف يعبر عن اعجابه به ، وعن شغف الشعب باشعاره ، ولكنه كان في حيرته هذه بليغاً في افهامنا مقدار مشاركة عامة الشعب للخاصة في تقدير الأدب وأهله .

أما رفيقتنا في المتحف وهي احدى موظفاته فما تركت قاعة إلا وتحدثت عن كل لوحة فيها ، ولا رواقاً إلا وعرفتنا بالتماثيل المنتصبة فيه وأخبارها . وعلمنا منها ناحية لم نكن نعرفها قالت : « **ان في حوزة هذا المتحف مايتي الف رسم روسي وصورة ، ولكن المعروض منها في القاعات لا يزيد على العشرة آلاف فقط .** »

وعلقت على ذلك بقولها : « **هذا شأن المتاحف الكبرى فهي لا تعرض كلما في حوزتها من لوحات ، بل تكتفي بعرض جزء منها وتحتفظ بالباقي في مستودعاتها** » . وهو أمر لم نكن نعرفه .

قصر بترهوف والالمان

كان مرافقنا ساشا قد اخبرنا ان الجيش الالماني بلغ في غضون الحرب العالمية الثانية مشارف لينتغراد ، واحتل قصر بترهوف الذي يبعد ١٢ كيلومتراً عنها .

ما هو هذا القصر ؟

قال : « ان بطرس الاكبر بناه في القرن الثامن عشر لرفيقته كاترينا ، وهو من القصور الجميلة ذات الحدائق الغناء . وتبلغ مساحة حدائقه ١٠٥ هكتارات . أما الان فقد تحول القصر وحدائقه الى متنزه للشعب » . فقلنا له : « هيا بنا الى هذا القصر فنحن من ضيوف الشعب . »

وقد استرعى نظري اثناء الطريق قصور أنيقة متعددة ، ولكنها مندكة الاركان أو متهدمة الجوانب . وقد طاب لي ان أسأل عن شأن هذه القصور . ولماذا لا تزال متهدمة ؟

فقيل لي انها من مخلفات الحرب هدمها الغزو الالماني . واما القسم الثاني من السؤال فلم أحظ بجواب عليه . بيد انه لم يكن من الصعب ان أعلل سبب بقاء هذه القصور مهدمة حتى الآن . ان اصحابها الأول ربما كانوا قد غادروا البلاد مع أمثالهم من الأريستوقراطيين ، أو انهم اصبحوا في الدولة القائمة مثل سائر العمال ليس بوسعهم ان يرمموا القصور ويسكنوا الصروح . أما الدولة التي أصبحت تملك ما فوق الارض وما في بطنها ، وتملك في جملة ذلك تلك القصور المهدمة فلم ترَ

لزوماً لها اذ ان حاجتها لا تتعـدى البيوت الشعبية ، فبقيت الدور تنعي من بناها .

أما قصر بترهوف الذي احتله الالمان فانه لا يزال قائمـاً على حاله ، ولكنه لم يعد للألمان ولا ملكـاً للقياصرة الذين طردوهم منه ، بل أصبح ملكاً للدولة ومتحفاً للشعب . ولكنا وجدنا القصر موصد الأبواب فلم يتسنَ لنا ان نشاهد داخله وما فيه من تحف . على ان ما حول القصر من مفاتن كان من شأنه ان يعوض علينا الخسارة التي منينا بها اذ حرمنـا من داخله . وحسبك أن ترى تلك الشلالات الاصطناعية التي تتساقط مياهها من علٍ وتتدفق من البقعة العالية التي شيد عليها القصر الى الحدائق ؛ ثم تنساب فيها أقنية حتى تنسكب في بحـيرة لادوكا . حسبك ان ترى كل ذلك لتقف مأخوذاً بروعة الجمال . واذ كنا على مقربة من بحيرة لادوكا التي تتصل بالبحر البلطيكي ما بين فنلندا وأستونيا ، أدركنا اننا أصبحنا على مقربة من العالم الغربي .

وجمـال شلالات القصر ليس مرده الى المياه الرقراقة التي تنساب فحسب ، بل تعود لتدفق تلك المياه من تماثيل مذهبة مختلفة الاشكال تقوم على الجانبين : فهذه التماثيل البديعة المصطفة فوق كل درجة من درجـات الشلال ، وما حولها من اقنية جارية يضفيان على الشلالات جمالاً وروعة .

كيف حال المسلمين في ليننغراد ؟ ـ اللغة العربية

هـذا سؤال كان يجول في خاطري في كل من عـاصمة القيـاصرة وعاصمة البلاشفة وغيرهما . ولكن انىّ لي ان اطرح مثل هـذا السؤال على أحد ، فاما أن احرجه وأما ان يعتبر الرقباء هذا التدقيق من قبيل التدخل في شؤون البلاد . لذلك كان سؤالي لا يخرج عن نطاق الاستعلام عن عدد المسلمين ومساجدهم .

وكان الجواب في ليننغراد على هـذا السؤال أن عدد المسلمين فيها لا يزيد عن ٢٥٠٠ نسمة ، اي أقل من عددهم في موسكو ، ولهم مسجد واحد . وكان عددهم من قبل كثيراً الا انه تناقص تدريجياً في العهد السوفييتي ، وكان من اسباب تناقصه أنتقال العاصمة من بتروغراد الى موسكو .

فكان علي أن أقصد الى هذا الجامع الوحيد في المدينة لأراه وأرى فيه بعض المصلين ، وأتسقط أخبارهم . وكم سرني أن اشاهد في ليننغراد جامعاً على مستوى ما رأيت هناك من فخامة وأتقان ومكان ؟

عمّر هذا المسجد عام ١٩١٤ في بقعة تواجه من بعيد قصر الأرميتاج ، وهي من الاحيـاء العامرة في ليننغراد التي تزدان بشبكة من الشوراع الواسعة والحدائق ، ومنها واحدة امام المسجد . والمسجد على الاجمال فخم المبنى يشبه جوامع استامبول من حيث الفنّ المعماري . وكان المسجد مغلق الأبواب حينما زرناه

في غير موعد الصلاة فأسفنا لحرماننا من مشاهدة داخله ، واكتفينا بالطواف حوله وبقراءة بعض الآيات القرآنية المنقوشة على جدرانه باللغة العربية . بيد انا وقفنا برهة امام مدخله الواسع نشاهد زينته اللطيفة المدبجة بالفسيفساء ، ونقرأ ايات أخرى على رتاج الباب مخطوطة بلغتنا الحبيبة ، وبخط جميل .

الله الله ما هذه اللغة التي عمّ انتشارها في سائر العالم حتى أصبح السؤال عنها لا يصلح ان يكون أين توجد ؟ وانما الاصح ان يقال أين لا توجد ؟

كأني كنت في موقفي هذا أتمنى أن أسمع الآذان لأسمع في لينينغراد لغة العروبة تدوي في الفضاء ، فرفعت نظري الى المأذنة الأولى ، ثم الى الثانية اللتين ترتفعان عاليا فوق جبهة المسجد ، ولكني ما رأيت مؤذناً ، بل رأيت منارتين أنيقتين شامختين ، ومن ورائهما قبة مستطيلة تشكلان مع القبة منظراً آخر من مناظر الفخامة فاستعضت عن لذة الآذان بالاستمتاع بلذة جمال الهندسة والبنيان .

ملحوظات عامة – تقارب الشرق والغرب

لما حان موعد العشاء وأقبلنا على المائدة في الفندق ألفت نظري علم صغير يرفرف فوق مائدة من موائد غرفة الطعام الواسعة تقع في زاوية من القاعة . هو علم انكليزي فما شأنه هنا ؟ وكان الجواب ان وفداً برلمانياً انكليزياً أمّ موسكو

واكتسب هذه الفرصة لزيارة لينينغراد .

وكنت قد رأيت في موسكو قبل ايام وفداً كهذا أتى من فرنسا ، كما شاهدت هناك كثيرين من الانكليز والافرنسيين والالمان يملأون فندق اوكرانيا ، وأكثرهم من رجال الاقتصاد . واستناداً الى هذه البوادر قدرت ان العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والعالم الرأسمالي في أوروبا صائرة الى التوثق في وقت قريب رغم تشدد واشنطن .

وألفت نظري شيء آخر في لينينغراد وأعني به الأعلان عن فيلم عربي المعروض عند مدخل احد المسارح ، وهو ايضاً من أفلام فاتن حمامة . فتساءلت كيف تروج الافلام العربية والقوم لا يعنون إلا بلغتهم ؟ أجل فاذا مررت بالشوارع وقرأت اللوحات المرفوعة على أبواب مخازنها واللافتات ، واذا دخلت متحفاً والقيت نظرك على ما هو مكتوب تحت صوره وتماثيله وهلجرا ، فانك تبقى كالاطرش بالزفة لا تفهم شيئا ، لأنها كتبت كلها باللغة الروسية دون اية لغة أخرى . هذا فضلًا عن ان القوم لا يعنون في الكلام والمراسلة إلا بلغتهم .

إذن فما هو السر في رواج الفيلم العربي بين هؤلاء القوم الذين لا يعنون إلا بلغتهم . وتراءى لي ان السر في ذلك يعود الى ان الروس ، وان كانوا جغرافياً من الغربيين ، إلا أنهم ، في الواقع ، يتذوقون كثيراً أهواء الشرق ، خصوصاً وان عدداً من جمهورياتهم عريق في التقاليد الشرقية .

وهذا التماوج بين الشعوب الشرقية والغربية في الاتحاد

السوفييتي أفضى الى شيء من التفاهم الروحي بينهما ، وأدى الى التقارب في كثير من النواحي الاجتماعية ، مما لا تجده في غربي اوروبا . وأدى بالتالي الى تلاقي الذوق الفني في بعض الاوساط . وهذا ما يعبر عنه اقبال الروس الشديد على مشاهدة تمثيليات رشيد بيلوف في موسكو وانتشار شهرته في الآفاق السوفييتية.
وقد قضينا سهرة في مسرح هذا الفنان الأذربيجاني من خير سهرات الأنس والطرب . وكان المسرح غاصاً بالنظارة فاذا بآنسة تفتتح الاستعراضات الفنية بكلمة ترحيب باللغة الاذربيجانية تستهلها بالعربية : « السلام عليكم . » وكأن الجمهور في الاتحاد السوفييتي من غير المسلمين أصبح يفهم معنى هذه التحية لكثرة تردادها . فما ان القتها الآنسة حتى دوى المسرح بالتصفيق . ولما رفع الستار ظهر وراء المسرح فرقة موسيقية كاملة ترتدي كلها البذات السوداء الأنيقة ، فاستهلت العرض ببعض الأنغام الاذربيجانية ، وتعاقب الرقص ما بين شرقي وغربي ، وتتابعت أدوار التمثيل ما بين هزلية وجدية ، وما بين روسية وتركية . وكان رشيد بيلوف مدار اعجاب الحاضرين سواء أكان يغني أم يمثل ، وقد طاب لي أن اسمعه يذكر « مجنون ليلى » اثناء التمثيل في سياق أنشودة له نوه بها بالحب والمحبين المتيمين .
ثم جاء بعد عودتي الى موسكو شاب وشابة من اذربيجان : فكرة أميروف وأميرة نظيروف ، وأحييا ليلة في قاعة كونسرفاتور تشايكوفسكي الكبرى فأفتنا الجمهور بالحانهما المتجاوبة مع الألحان العربية ، ولما سئلا عن مصدر هذا التجاوب

قالا : « الموسيقى العربية ذات جذور مشتركة مع الموسيقى الاذربيجانية . انها قريبة منا ونحن نفهمها جداً منذ الصغر . فقد كانت الاغاني العربية تصل الى بلادنا فيتاح لنا ان نستمع الى صوت المعذبين المفعمين ارادة والى احلامهم في الحرية والسعادة . ان الاحداث التي وقعت في العام الفائت في السويس قد أثرت فينا تأثيراً كبيراً فأردنا ان نعبر بالموسيقى عن أعمق مشاعرنا وافكارنا حول مصائر الشعب العربي . »

ويخال لنا بعد هذا العرض ان اقبال الروس على الفن الأذربيجاني ، سواء أكان في الغناء أم الرقص أم التمثيل ، جاء بمثابة الخطوة الاولى لاقبالهم على الفن العربي ، وعلى استعذابهم بالتالي الافلام السينمائية العربية .

وأما ملحوظاتنا الاخيرة فانها تتعلق بصورة الحمامة البيضاء التي تكاد تراها في كل مكان بروسيا : تجدها على جدران البيوت ، كما تجدها على ابواب المخازن ، وهي رمز للسلام . غير انك لا تلبث ان تجد رمزاً آخر أشد انتشاراً من الحمامة البيضاء تجده على الابراج وفوق المؤسسات وعلى أرتجة المداخل العامة ، وأعني به النجمة الحمراء رمز الثورة .

وهكذا ترى الاتحاد السوفييتي يجمع بين النجمة الحمراء رمز الحرب والثورة وبين الحمامة البيضاء رمز السلام والوئام ، وهو في ذلك يذكر معاً مآتي ماضيه ، ويذكر آماله وأمانيه في مستقبله .

الفصل الرابع

جمهورية أذربيجان

العروبة والاسلام في اذربيجان

في الطريق الى باكو

درجت روسيا على سنة دعوة ضيوفها العرب ، سواء اكانوا افراد بعثات سياسية ام شعبية ، الى زيارة احدى الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفييتي . وعلى هذه العادة رغب الينا الرفيق كشيان نائب رئيس مؤسسة فوكس ان نختار جمهورية من هذه الجمهوريات . فاخترنا اوزبيكستان في آسيا الوسطى. وكان الحافز لنا على هذا الاختيار رغبة ملحة في مشاهدة تلك المدن التي تردد كثيرا ذكرها في التاريخ العربي مثل

طشقند وبخارى وسمرقند بالاضافة الى ان لي صديقا هناك اود ان اجتمع اليه في بلاده بعد ان تلاقينا في بيروت قبل عام ونيف . وهو الشيخ ضيـــاء الدين بابا خان رئيس الادارة الدينية في جمهورية اوزبيكستان .

ولكن نائب رئيس مؤسسة فوكس او بالاصـــح نائب رئيستها لان هذه المؤسسة ترأسها سيدة اسمها ن . بوبوفا ، حاول بلطفه ان يصرف نظرنا عن اوزبيكستان الى غيرها .وكانت حجته ان وفوداً كثيرة غيرنا اضافت هـــذه الجمهورية لذلك فهو يرى من اللياقة التخفيف عنها ، وعرض علينـــا زيارة تاجكستان الواقعة على حدود الصين . فاستبعدنا المسافة ووقع اختيارنا على باكو عاصمة اذربيجان .

بيد ان تحويلنا عن زيارة اوزبيكستان لم تمر دون علامة الاستفهام . خصوصاً وان ضيوفا آخرين سُمح لهم ، من قبل ومن بعد ، الذهاب لزيارتها . وكان مدار علامة الاستفهام يرجع الى انه اذا كان لاجتماعنا بالشيخ ضياء الدين في بيروت صلة بهذا التحويل عن زيارة بلده .

وفي صباح ١٤ ايلول ١٩٥٧ ركبنا الطائرة قاصدين الى باكو التي اخترناها لقربها . ولكن قربهـــا لم يكن الا نسبيا لانها على مسافة ٢١٠٠ كيلومتر تقريباً من موسكو . وخلال الطريق حطت بنا الطائرة تباعاً في فوردنيج وستالينغراد على نهر الفولـكا ، واستراخان وموخاشكالا على بحر قزوين ،

ثم ادركت مطـــار باكو في مساء اليوم بعد تسع ساعات من السفر .

وكانت قد استقلت طائرتنا في مطار استراخان امرأة فلاحة كهلة تعلق على صدرها اربعة أوسمة أحدها وسام ستالين فاتجهت اليها أنظارنا . ومن تكون هذه المرأة ؟ وماذا قدّمت حتى منحت كل هذه الأوسمة ؟

هذا أمر غريب بالنسبة لنا اذ ان الاوسمـــة اذا منحت فانما تمنح لرجال السياسة دون الفلاحين ، وتمنح للموالين خاصـة والمحاسيب دون العاملين ، وهي قد بلغت عندنا صدور بعض الفنانات ، ولكنها لمّا تصل بعد الى صدور الفلاحات والعاملات. بل لمّا تدرك صدور العلماء كالشيخ عبـدالله العلايلي والشعراء كبشارة الخوري والأدباء كمخائيل نعيمة وغيرهم .

وقد دفعني حب الاستطلاع الى مخاطبة هـذه المرأة والى الاستفهام منها عن الخدمات التي أدتهـا للوطن حتى استحقت هذا التكريم . وما وسام ستالين بالشيء القليل . فقالت بـكل بساطة : « انني قروية فلاحة . أما الخدمات التي أديتها لوطني فهي ترجع الى عنايتي بزراعة الكرمـة ، وتفوقي على أترابي في استثمار هذه الزراعة . »

فأكبرت هذا الجواب ، وقدرت للحكومة حسن الاختيار . انها لا تنسى العمال النشيطين سواء أكانوا في المعامـل أم في المزارع فتتفقدهم بالمنح ، وترفعهم أحياناً الى مجلس السوفييت الأعلى . وأما المطبـلون والمزمرون والمبخرون فلا نصيب لهم

عندها من العطايا والمكافآت .

وكنت أفكر في هذا حينما هبطت طائرتنا في مطار باكو حيث كان وفد من اعضاء فرع مؤسسة فوكس ينتظرنا حاملا بيديه باقات الزهور . ويسمى فرع المؤسسة في اذربيجان « اذا فوكس » باضافة الحرفين الأولين من اسم الجمهورية على اسم فوكس تمييزاً له عن الأصل . وهكذا في سائر الجمهوريات . وكان الوفد مؤلفاً من رضا كوليبف رئيس الفرع والدكتور آ. مصطفى طوبجي باشيبف الجراح الأشهر والعضو في مجلس السوفييت الأعلى ، ومحمد قاضيبف مدير المتحف التاريخي ، يرافقهم هاشم حسين ، ومحمد أوكتاج ، ويوسفلي ضيالي ، وهم من اعضاء الفرع .

وقد القى الرئيس عند اللقاء خطاباً ترحيبياً باللغة التركية شكرناه عليه وعلى بوادر الحفاوة التي شملونا بها . ثم استقلينا السيارات الى باكو العاصمة التي تبعد اربعين كيلومتراً عن المحطة . ولما توسطنا المسافة رأينا اضواء كثيرة تشع في بقعة واسعة جداً فسألنا الدكتور مصطفى طوبجي باشيبف الذي كان قد تلطف بمرافقتنا في السيارة . سألناه اذا كانت هذه الانوار هي أنوار باكو . فقال لا ، وانما هي انوار الابراج الرافعة للبترول ، وبعض هذه الابراج قائم على الشاطىء ، وبعضها قائم في البحر . ثم لم نفاجأ حينما شاهدنا عند مدخل الثغر تمثالاً كبيراً لكل من لينين وستالين ، ذلك لأنا ألفنا هذه البادرة في غضون رحلتنا . وانما أتينا على ذكرها هنا

لمناسبة زيارتنا لاحدى جمهوريات القوميات التي كنا نحسبها في نجوى من اقامة هذه التماثيل السوفييتية على غرار البلاد الروسية.

لمحة عن اذربيجان في ماضيها وحاضرها

أذربيجان في التاريخ كانت تطلق على بلاد واسعة من اعمال ايران معروفة بخصبها حافلة بالجبال والانهار . وكانت قاعدتها تبريز . وقد احتلت روسيا سنة ١٨٢٨ القسم الشمالي منها الذي يقع في القفقاس على بحر قزوين ، وظل القسم الجنوبي في حوزة ايران .

ولما نجحت ثورة تشرين ١٩١٧ انكب الشيوعيون على نشر مبادئهم في اذربيجان الروسية التي كان يحتلها الانكليز فتبلشفت سنة ١٩٢٠ واصبحت من ثم جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي الخمس عشرة وذات استقلال داخلي . وفي ظل الحكم السوفييتي واستناداً الى منابع النفط الغزيرة فيها أصابت اذربيجان تقدماً كبيراً حتى أضحت كأنها قطعة من غربي اوروبا ، بينما ان قسمها الجنوبي الباقي في حوزة ايران لم يصبه من التطور غير القليل .

وتعتبر لغة اذربيجان القومية فرعاً من فروع اللغة التركية ، وتكتب الآن بالأحرف اللاتينية . وقد لاحظنا ان لهجتها متأثرة باللهجة الايرانية . على ان اللغة الروسية اصبحت هناك رائجة رواج اللغة القومية .

والنظام السوفييتي يسري على الجمهورية الآن دون شريك . وبمقتضاه شملت المساواة الطبقات والافراد ، كما شملت الذكور والاناث . وكان من نتيجة ذلك ان تساوى الجنسان في الارث والشهادة والوصاية والتضامن في النفقات ، هذا فضلاً عن المساواة في الاعمال والاجور والضمان الاجتماعي . وبالتالي منع تعدد الزوجات ، وانحصرت مهمة عقود الزواج بالموظفين المدنيين دون سواهم ؛ اما الطلاق فهو موجود اسوة بسائر الجمهوريات؛ ولكنه لا يقع إلا في حالات محدودة وبحكم من المحكمة المدنية.

وأما الذي ظل سليماً من هذا النظام فهي الاسماء العربية التي لا تزال منتشرة بين الرجال والنساء ، وان ألحق الى آخر بعضها حرف الفاء ، وهو حرف النسبة في اللغة الروسية . ويكثر بينهم اسم عليميف نسبة للامام علي بن ابي طالب ، ذلك لأن السواد الأعظم منهم من أهل الشيعة . وهم ، خلافاً للترك في العهد العثماني ، لا يزالون ينتسبون الى اسرهم وعيلهم. وكذلك فان اسماء نسائهم لا تزال عربية ، الا قليلاً من الاسماء الايرانية أم التركية كنيكار .

وبالاضافة الى الاسماء القديمة كفاطمة وعيشة وزينب فان الاسماء الحديثة تكثر في اذربيجان كجميلة ونظيرة ومنيرة وسلطانة وطاهرة وظريفة .

وعلاوة على النفط الذي يقدر انتاجه يوميا بسبعين الف طن اي اكثر من انتاج ايران ، تحفل اذربيجان بالمعادن من حديد وملح حجري ومانغنيز وبالمياه المعدنية . وازدهرت فيها

الزراعة ، ولديها القطن والكرمة والحمضيات والفواكه على اختلاف انواعها ، وكثرت المواشي والدواجن والانعام ، وبالتالي الصنائع الزراعية . ومنذ عهد قريب انتهى مشروع للري عظيم وذلك بانشاء سدود يبلغ ارتفاعها ٨٢ متراً تروي مليون هكتار من الاراضي فازدادت محاصيلها الزراعية .

وقد جرت اذربيجان مجرى روسيا في انشاء التعاونيات الزراعية ، ولكن على نطاق اضيق ، وبلغ عدد الحكوميات منها التي يطلق عليها كولخوز ٢٨ تعاونية مزودة كل واحدة منها بدار حضانة ومدرسة ومستشفى .

وتقدمت الصنائع في اذربيجان ايضاً تقدماً محسوساً ، وقام فيها اربعة عشر مركزاً صناعيا مجهزة باحدث الادوات الثقيلة والكهربائية .

والمرأة في اذربيجان تزاول الاعمال كالرجال شأنها في روسيا : في الحقول والمعامل وفي وظائف الحكومة وغيرها . ففي مجلس الوزراء نائبة رئيسة تدعى سلطانه هانم ، وفي مجلس السوفييت والندوة النيابية للجمهورية وقيادة الطائرات الحربية تساهم المرأة مع الرجل . وفي مجلس الوزراء سيدة تدعى ظريفه هانم . وفي نقابات العمال سيدة اخرى تسمى طاهرة هانم . هذا وقد لاحظت ان لكل مدير مؤسسة او رئيس مديرة مساعدة ؛ او رئيسة ثانية .

والى هذا فقد كانت للمرأة الاذبيجانية مشاركة مع الرجل في الشعر والادب والفن . وهناك بعض النسوة اللواتي

ادركن حد الاشتهار من امثال ميرفريد وليبازي ونيغيار رافيبيلي في الادب ، ومحمد وفا بالتمثيل ، وامـــيره نظيروف في الموسيقى .

وفي الجملة فان بين المرأة الاذربيجانية سكرتيرة لرئيس الجمهورية وبينهن كناسة في الشوارع والطرق . وعدد الطبيبات ينوف على عدد الاطباء اسوة بروسيا .

هذا وكنت اظن ان الجمهورية الاذربيجـانية وان تأثرت بالنظام الشيوعي الا انها كجمهورية مستقلة تتمتع بالاستقلال الذي نص عليه الاتحاد السوفييتي .

ولكني ادركت هناك انها ليست محرومة من حق ممارسة العلاقات مع البلاد الأجنبية فحسب ، بل ان جندها وبريدها وتمثيلها الخارجي كل ذلك من حق موسكو وحدها .

وبالاضافة الى كل ذلك فان اذربيجان اصطبغت بمظهرها الخارجي بالصبغة السوفيتية . فلما اصبح الصباح في اليوم التالي لوصولنا خرجت من غرفتي في اوتيل انتوريست الى الشرفة لأشاهد الثغر الرابض عـــلى بحر قزوين ، ولأتمتـــع بجماله واتساع شوارعه وفخامة مبانيه ونضارة حدائقه التي تمتد مسافة طويلة بين البحر والفندق . فاذا بي أرى تمثالاً ضخماً جداً يرتفع على رابية من روابي المدينة التي تطل على البحر ، وعلمت من بعد انه نُصب تذكاراً لشركوف الذي كان حاكماً للمدينة . وان مدينة أخرى في أذربيجان تحمل اسم هذا الحاكم بـدلاً من اسمها القديم كنجه .

ثم كنت أرى أينما سرت في الشوارع تماثيل أخرى لرجال الثورة السوفييتية ، وبعض الذين خلفوهم على الحكم ، وعلى هامة بعضها ترتسم النجمة الحمراء رمز الثورة . كما اني كنت أشاهد في قاعات الاستقبال لدور الحكومة والمؤسسات والمتاحف صوراً كثيرة لهؤلاء ، ولا سيما للينين وستالين . وأخص بالذكر منها قاعة رئيس الجمهورية . هذا فضلاً عن تمثال كبير للينين أمام مدخل قصر الجمهورية .

وأهل أذربيجان على وجه عام يتسمون بصباحة الوجه واعتدال القامة ، ويتمتعون بذكاء فطري وفطنة .

مصافي النفط

ثغر باكو مركز من مراكز النفط المهمة في الاتحاد السوفييتي ، وهو يجمع بين الينابيع وبين معامل التكرير ، وعددها خمسة . ووجود النفط في هذه المدينة بغزارة ، وما يتبع ذلك من وفرة الأعمال افضيا بالتالي الى تأمين الرخاء بين أهلها وعمرانها . كما ان موارد النفط في أذربيجان وما تتمتع به البلاد من انهار جارية واراض خصبة ومعادن مختلفة وما قامت به من مشاريع اقتصادية كل ذلك رفع مستواها المادي الى مرتبة الأمصار المرموقة .

أما والنفط يأتي في مقدمة مرافقها فقد شاء مضيفونا أن يستهلوا سياحتنا بزيارة احدى مصافي البترول . فساروا بنا الى

المصفاة الثالثة التي تقع في ضاحية البلد على رابية من روابيه .
وقد شاهدنا في طريقنا الى هده المصفاة شيئاً لم يسبق لنا ان شاهدناه في بلد آخر ، وأعني بذلك أغراس الزيتون على حافتي بعض الشوارع غرست لتزيينها بدلاً من الأشجار التي لا تثمر والتي اعتاد الناس على نصبها حول الطرق . وقد استصوبت عمال بلدية باكو لان اشجار الزيتون تحتفظ باوراقها في كل الفصول فيبقى من ثم الاخضرار يزين الشوارع .

والحديث عن المصفاة ذو شجون ، ولكن ليس للمرء ان يوفّيه حقه الا اذا كان من ارباب الفن والاختصاص . أما أنا فما بوسعي أن أزوّد القارىء الا بوصف عابر ، وقد استقبلنا مدير المصفاة عند المدخل وطاف بنا في انحائها ، وكان يشرح لنا وظائف كل آلة واسرارها ، كما يشرح لنا ما ينتجه النفط من المواد الكثيرة الكيمائية . ثم صعد بنا المدير الى الطابق الرابع عشر من البرج الحديدي فتسنى لنا ان نشرف من علٍ على انحاء المدينة التي تشبه بيروت بموقعها على البحر ، وبقيامها على هضاب متعددة تلتف حول خليج يحاكي خليج بيروت من المعاملتين الى المنطقة المعروفة برأس بيروت . واتيح لنا ايضاً ان نشرف على الابار البرية — البحرية التي تشبه غابة بابراجها الحديدية ، تلك الابراج الصغيرة التي تسحب النفط وتدفع به الى المصافي الخمس .

وقد سألت احد الرفقاء اذا كانت موارد النفط ملكا للجمهورية وحدها فقال «لا ، وانما تقسم مناصفة بين اذربيجان

والسلطة المركزية في موسكو . » ومع ذلك فقد قدّرت ان نصيب اذربيجان منها كثير جدا هذا اذا صح الخبر انها تتناول النصف كاملا .

المتاحف في باكو

حقاً ان النزهة في احياء باكو المرتفعة رائعة ، والمناظر فيها خلابة ولا سيما في البقعة المنسقة التي ينتصب عليها تمثال شركوف . وبعد تجوال في تلك الاحياء قصدنا الى المتحف التاريخي صحبة مديره محمد قاضييف . فاذا بنا ندخل قصرا فخما هو متحف بمبناه لما يزدان به في الداخل والخارج من الفنون المعمارية والاصباغ الفتانة . وقد كان هذا القصر لاحد اثرياء المدينة قبل ان تصادره الحكومة وتعدّه داراً للمتحف .

وفي قاعة الاستقبال الواسعة عرفنا المدير بالسيدة ساره عاشوربكلي (بيلي) المديرة الثانية التي طافت بنا في قاعات العرض واحدة واحدة . وعنيت بشرح تاريخ المعروضات . وهي شيء كثير من الآثار القديمة والرسوم . وقد رأينا في بعض القاعات اقساماً خصصت لعرض مؤلفات ومخلفات بعض ادباء اذربيجان مع تماثيلهم . ولكننا لاحظنا ان رسوم رجال الثورة الروسية واللوحات التاريخية التي تصور بعض المواقع التي تتعلق بالثورة تملأ جدران القاعات على حين ان المتحف فقير بالنسبة لآثار اذربيجان في عهدها الاسلامي .

وذكرت هناك الاستاذ سلامه موسى الذي يزعم ان مما اخر المسلمين عن ركب الحضـارة عزوفهم عن التصوير والصور بهذا الزعم الذي فندته في كتابي « العروبة والشعوبيات الحديثة » . ذكرته هناك اذ رأيت في احدى قاعات المتحف قطعتين من النقود الفضية مصورتين ، وعلى كل واحدة صورة خليفة لم استطع ان اقرأ اسمه من وراء الزجـاج ، ولكني علمت انهما من نقود الأمويين حينما كانت أذربيجان تابعة لعاصمتهم دمشق .

وقد أعرب احد الرفقاء عن اعجابه لوصول الأمويين الى اذربيجان على رغم ما نشعر الآن ببعدها مع وجود الطائرات . فقلت له ليس العجب في بلوغ الامويين اذربيجان بينما ان فتوحاتهم امتدت من تخوم الصين الى المحيط الأطلسي ، ولكن العجب ان تفتح جيوش العرب أذربيجان في خلافة عمر بن الخطاب ولم يكن قد أتى على الهجرة النبوية إلا عشرون سنة ونيف وذلك رغم ما بين الحجاز وأذربيجان من ابعاد ، ورغم صعوبة وسائل الانتقال في ذلك الزمان .

وقد لاحظنا في المتحف التاريخي وفي متحف نظامي الأدبي ، الذي زرناه من بعد ، عنـاية خاصة بامرأتين ورجـل . والامرأتان هما :

١ – ناتوان وهي أولى المطالبات بحقوق المرأة . دعت ، في القرن السادس عشر الميلاد ، لتحريرها ونهضتها . وقد نصبوا لها تمثالاً بين تماثيل كبار أدباء أذربيجان في احـدى واجهات متحف نظامي ، ورفعوا صورتها في المتاحف .

٢ ـ مِهْسَتي الشاعرة في القرن السابع عشر للميلاد صاحبة الرباعيات المشهورة . وكانت من الطبقة الارستوقراطية ، ومن الممتازات بجمالها واناقتها .

وأما الرجل الذي يعتبر حبيب الشعب وموضع اجلاله فهو الشاعر الذي طار صيته في آفاق الشرق نظامي كنجوي من اهل القرن الثاني عشر للميلاد . فعدا انهم اطلقوا اسمه على احد متاحف البلدة ، وخصوا احدى قاعات هذا المتحف بآثاره وتآليفه ، فقد نصبوا له تمثالاً أمام هذا المتحف الأدبي ورفعوا صوره في امكنة كثيرة . وقد أهدتنا مؤسسة اذا فوكس الثقافية كتابه « ليلى ومجنون » وهو ديوان مصور يقع في ثلاثماية صفحة ونيف مكتوباً باللغة الاذربيجانية وبالأحرف العربية . وقد ألف الشاعر ديوانه باللغة الفارسية وترجمه الى الاذربيجانية حمد وورغون ، وموضوع الديوان قصة قيس بن الملوح وعشيقته ليلى تلك القصة البدوية المشهورة بين القصص الغرامية العربية .

السناتوريوم ـ دور الاستجمام

شاء مضيفونا ان يذهبوا بنا الى السناتوريوم الواقع في ضاحية من باكو على بعد اربعين كيلومتراً فرحبنا بدعوتهم على اعتقاد اننا نزور مصحاً للمرضى هو واحد من الاحد عشر مصحاً الموجودة في الجمهورية . وفي طريقنا الى السناتوريوم

مررنا بمنطقة آبار النفط التي حسبنا انوارها ، عشية وصولنا الى باكو ، اضواء المدينة . ولما أدركناها خلنا أنفسنا أننا نسير في



(الدكتور م. طوبجي باشييف والمؤلف أمام متحف كنجوي)

غابة من ابراج الحديد لكثرتها . وهي أبراج معدة لرفع النفط وصبه في أنابيب تنقله الى المصافي ، فتغرف البترول من ينابيعه وترفعه بصناديق على التوالي كصناديق النواعير وتدفع به الى المصافي .

ولما أقبلنا على السناتوريوم بدا أمامنا صرح كبير قائم في حديقة واسعة تلتف حوله وتمتد حتى شاطىء البحر ، ولكنا ما ان دخلنا الى السناتوريوم حتى تجلت لنا حقيقته فاذا به على غير ما كنا نتخيل . اذا به مؤسسة عظيمة معدة لاستجمام العمال ولقضاء أيام العطلة حيث يتمتعون بجميع انواع التسلية والراحة ، ويمارسون شتى الالعاب الرياضية . وقد رأينا في فنائه جمهوراً كبيراً من نزلائه مصطفين على شكل دائرة وهم يرقصون ويهزجون على انغام جوقة من أجواق الموسيقى الأذربيجانية ، وأصوات ضحكهم تحلق في عنان السماء .

وقد استقبلنا المدير ومعاونوه في المكتب حول مائدة حافلة بالفواكه ، ولا سيما العنب الممتاز . وهذه عادة مرعية في أذربيجان وسائر ذلك الشرق وفي الصين ايضاً . اذ يقدمون الفواكه لضيوفهم ويدورون عليهم باكواب الشاي . ودار الحديث في المكتب حول السناتوريوم ، فتلخص لدينا المعلومات الآتية :

ان الاجرة التي يتقاضاها السناتوريوم اربعمائة روبل عن اثني عشر يوماً يقضيها العامل في هذه المؤسسة . على انه لا

يتحمل منها إلا عشرين في المئة . وأما الباقي فتؤديه النقابة التي ينتسب اليها .

ان كثيرين من غير العمال يستفيدون ايضاً من هذه المؤسسة طلباً للراحة والاستجمام . وبعضهم من أهل اليسر . على انهم يؤدون الأجور من جيوبهم الخاصة .

ولما صعد بنا المدير الى الطابق العلوي رأينا فعلاً فريقاً من هؤلاء ذكوراً وأناثاً جالسين في الشرفات ليطلوا منها على الحديقة وعلى الحوض المتسع الجميل الذي يقع عند مدخل الدار ، وليشاركوا في السرور الراقصين والراقصات بجوار الحوض ، وليستمتعوا بسماع انغام الموسيقى .

والواقع ان تلك الحلقة حلقة الطرب كانت تثير فينا الشوق للانضمام اليها ، وتحملنا على الرغبة في اختصار التجوال في المؤسسة . ولما هبطنا اليها انتصب شبانها وشاباتها واقفين ورحبوا بنا واجلسونا بينهم على مقعد من مقاعدهم الخشبية ، ثم استأنفوا هرجهم ومرجهم ، ورقصهم وعزفهم . وكانوا تارة يرقصون رقصات غربية ، وتارة رقصات شرقية ، وكانوا ينشدون احيانا ، ويغنون احيانا اخرى ، بينما كانت موسيقاهم الوطنية تلهب حماسهم ، وتضفي عليهم نشاطا جديدا فوق نشاط الفتوة ، وقد غمرنا السرور وجرتنا القافية الى حد رفع الكلفة . فصفقنا كثيرا معهم ، وساهمنا في الانشاد والغناء ، ثم استرسلنا في رفع الكلفة حتى شاركناهم في الرقص .

ولما هممنا بالانصراف انتصب الجمهور لوداعنا وشيعونا بمثل

ما استقبلونا به شيعونا بعبارات ملؤها العطف والحنان .

وكنا اثناء العودة نفكر في عمـــال بلادنا المحرومين ، ونتمنى لو ان حكوماتنا تعني بهم بقـــدر ما تعني حكومة أذربيجان ، خصوصاً حينما علمنا ان هذه المؤسسة ليست واحدة في تلك البلاد ، وان في الاتحاد السوفيتي مئات من امثالها .



(واجهة السناتوريوم في باكو)

رئيس الجمهورية ـ سؤاله عن لغة لبنان

دعينا في اليوم التالي لزيارة رئيس جمهورية اذربيجان . ولما وصلنا الى دار الرئاسة لم نجد احداً من رجـال الشرطة

والامن والدرك عند الباب ، ولا حرساً آخر شاكي السلاح مما كنا نشاهده ببلادنا في عهدي السلطنة والانتداب ، ومما لا نزال نلقاه في عهد الاستقلال .

وكان هذا مثار اعجابنا نحن الذين الفنا رؤية الحرس وهي لا تقتصر على قصور رؤساء الجمهوريات ، ودور الرؤساء الآخرين ، بل تشمل بعض الذين اقيلوا من مناصبهم ، او قضوا نحبهم .

وصعدنا السلم المؤدية الى الطابق الثاني فلم نر فيها احداً ايضا غير سكرتيرة رئيس الجمهورية التي رحبت بنا وادخلتنا الى قاعة الرئاسة . وعلى حسب العادة استقبلنا رئيس الجمهورية حول مائدة حافلة بشتى انواع الفواكه الفاخرة ، ودار بيننا وبينه حديث طريف انتقل من المجاملات الى بعض الشئون العامة . ولكنا لاحظنا خلال الحديث انه غير ملمّ بشئون لبنان اذ بدر منه سؤال يشير الى انه لا يعرف شيئا عن موطن الجمال والاشعاع . فقد سألنا الرئيس « **اذا كانت لغة لبنان هي نفس لغة سوريا** » ، وسوريا طبقت اخبارها عندهم الآفاق ، ومثلها مصر .

وقد اخذنا العجب من هذا السؤال خصوصا وان الرئيس الشاب الذي يدعى ميرزا ابراهيموف ، اديب كبير ومؤلف رفعته شهرته في الادب الى مقام رياسة الجمهورية . وقد تلطف واهدانا كتابا من تأليفه في موضوع قصصي .

الاسلام في اذربيجان والعروبة

رأينا الحياة في اذربيجان لاتختلف عن مثلهـــا في البلاد الاوروبية . فالعادات الغربية وبعض التقاليد طغت عـلى كل شرقي فيها ، فضلا عن الزي واللباس . ولاحظنا ، مع ذلك ، ان الحياة فيها اكثر زهواً من موسكو . وقـد رددت هذا الى ثروة البلاد الطبيعية ، والى الموارد الاضافية التي تأتيها من النفط واعمال استثماره .

وسكان تلك الجمهورية مسلمون، والسواد الاعظم منهم على مذهب الشيعة ، ولكن النظام القائم هو النظـــام السوفييتي الشيوعي . ولذلك فقد امسى وجه اذربيجان غيره في الامس واضحى اهلها ، نساء ورجالا ، عمالا لجمهورية العمال والفلاحين اسوة بروسيا .

ولما رأيت في الشارع امرأة متأزرة كاشفة الوجه تساءلت اذا كان يوجد في باكو واحدة اخرى تحتفظ بالازار . ولكني ما ان زرت مسجد تازابير الكبير حتى تبين لي ان الاسلام لا يزال راسخ الاركان في بعض الاوساط . ذلـــك لانني شاهدت الجامع مكتظا بالمصلين من رجال ونساء ، وشاهدت كثيرات فيه وفيما حوله من سكان المحلة متأزرات او مغطيات الرأس بمناديل يعقدن اطرافها تحت الذقون شأن الفلاحات في البلاد الاسلامية .

اما الجامع ، الذي ترتفع حول منبره الاعـــلام السوداء

اعلام العلويين ، فهو مقسوم الى قسمين بستار كثيف . قسمه الامامي للرجال ، وقسمه الخلفي للنساء . وهذه القسمة تشير الى ان الصلاة جماعة لا تزال مرعية هناك عند النساء الأمر الذي لم يبق له أثر في بلادنا .

ومذ أدركنا فناء الجامع خف لاستقبالنا الإمام وصحبه ورحبوا بنا باللغة العربية ترحيب الأخوان بالأخوان . والإمام يحسن لغة القرآن على أتم وجه . وقد أعرب عن سروره بلقائنا ، كما انا استأنسنا بلطفه وبوجهه الصبوح .

ولما خلعت نعلي قصد الدخول الى الجامع شاء مرافقنا حاشا ان لا يحرمني من رفقته فخلع نعليه ايضاً وهمّ بالدخول اليه ورائي . فما عرفت معنى لهذه المرافقة وأنا لا أحتاج هناك لترجمان . أو لعلّي عرفت وتجاهلت .

هذا وقد فهمنا من بعد ان في باكو خمسة مساجد أقفل أحدها لنقص عدد المصلين . واني لأخشى اذا انقرض الجيل الحاضر وانقرض معه المحافظون ان تغلق ابواب المساجد الباقية ، خصوصاً وان التعليم الاسلامي لم يبق له مدرسة واحدة في أذربيجان .

المجمع العلمي ونصيب العروبة والاسلام منه

كان من الطبيعي بمقتضى علاقتي (بالمرحوم) المجمع العلمي اللبناني وبغيره من المجامع ان تتوق نفسي لزيارة المجمع العلمي

في باكو . فسألت عن موقعه فقيل لي انه يقـــع في شارع « باكو قومينست كوجه سي » . فذكرت عند سماع هذا الاسم ما تحفل به شوارع باكو من اسماء ابطال الثورة الشيوعية ، ومن تماثيلهم شأن سائر مدن الجمهورية السوفييتية .

والواقع أننا رأينا المجمع العلمي هناك على غير ما كنـا نتوقع ونترقب بالنسبة لما نعهده في المجامع العلمية العربية دون استثناء . هو مؤسسة أشبه شيء بحكومـة ان دلت على شيء فانما تدل على مبلغ ما أدركه الأذربيجانيون من مستوى ثقافي عالٍ في العهد السوفييتي .

استقبلتنا في قاعة الاستقبال هيئة من أركان المجمع نسجل اسماءها للذكرى وهم : زاهد خليلوف وعلي صحبة نائبا الرياسة ، ومحمـــد عارف داداش من شعبة الرياسة ، وحميد اراس بيّي استاذ الادبيات والتاريخ ، وموسى موسايف مدير شعبة الطبيعيات . وشرع كل من هؤلاء الاساتذة يشرح لنا على التوالي المعلومات التي تتعرض لها وذلك بمقتضى اختصاصه . وحمدنا الله خـــلال ذلك لان احداً لم يسألنا عن المجمع العلمي في لبنـــان كيلا نضطر للاباحة لهم بان السلطة في عهـد الانتداب قطعت عن المجمع المخصصات له ، ثم لم تعن الحكومات في عهد الاستقلال باحيائه رغم المراجعات التي قمنا بها مع بعض اهل العلم ، ورغم ان المجلس النيابي اللبناني قرر في سنة ١٩٤٤ ان يرصـــد في موازنة الدولة مبلغا من المال لاعادة المجمع .

وحمدنا الله ايضاً خلال ذلك لان احداً من هؤلاء الاساتذة

لم يتطرق الى الاستعلام منا عن التعليم في بلادنا كيلا نضطر لفضح امرنا بافشاء ما يعانيه اولياء التلامذة من صعوبات من حيث تأمين المدارس لاولادهم ، وكيلا نبوح بالسر ونقول لهم ان اعتمادنا في لبنان يقوم ، في الاكثر ، على المعاهد الاجنبية .

اما الذي تلخص لنا من الاحاديث التي دارت بيننا وبين عمدة المجمع في باكو فهو ما يلي :

عدد اعضاء المجمع ٢٢ ، منهم ١٣ مراسلون . وتنتخب هيئة الرياسة من اعضائه .

يتألف المجمع من ٢٢ شعبة ، بعضها مؤسسات علمية للدراسة والتحقيق ، وبعضها معارض ومتاحف مختلفة الالوان .

المجمع ادارات متعددة بعضها علمي تدخل في نطاق « ادارة التدقيقات » وبعضها اقتصادي تنضوي تحت « ادارة التجهيزات ».

عدد موظفي شعب المجمع يبلغ الفي موظف ، بينهم تسعماية من ارباب الثقافات المتنوعة .

يقسم المجمع في ناحية التعليم الى خمسة فروع على الوجه التالي :

١ – الجيولوجيا (طبقات الارض) والجغرافيا .

٢ – الفيزيا والرياضيات ، ولا سيما علم الفلك ، ويعني هذا الفرع بشئون نظريات توليد القوى ، ولا سيما النفط من حيث التنقيب عنه واستثماره .

٣ – الكيميا . ولهذا الفرع معهد بترولي ذو شعبتان : شعبة تعنى بتصفية البترول وبتقضية جمع الاجزاء النفطية ، وشعبة

تعنى بالمعادن والتنقيب عنها .

٤ – بيولوجيا والزراعة . ولهذا الفرع شعاب متعـــددة ، فمنها ما يدرس العلوم الزراعية والنبات وتحليل التربة ، ومنها ما يتعلق بعلم الوراثة الطبيعية . وله فوق ذلك معهد خاص بالهندسة القروية ومحطات الاختبار .

٥ – العلوم الاجتماعية وتشمل الادب والتاريخ والاقتصاد والحقوق . ولهذا الفرع شعبتان : معهد التاريخ ،ومعهد فقه اللغات يضاف اليهما معهد اقتصادي يتناول فـــيما يتناوله الهندسة والشئون الزراعية .

ومن المفيد الاشارة الى ان المجمع العلمي في باكو لا يشرف على المعاهد العلمية ويتولى توجيهها فحسب ، وانما هو القيّم على المتاحف ايضاً : متحف اذربيجان التاريخي ، ومتحف نظـــامي الخاص بالأدبيات ، ومتحف المتحجرات الذي يبدي اهتمامـاً خاصاً بالتنقيب عن الحيوانات المتحجرة في شبه جزيرة أبشرون الأذربيجانية حيث تحفل اراضيها بهذه المتحجرات .

وطاب لنا أن نستزيد من هـذه المعلومات ، ولا سيما في ناحية جهاز التعليم ، فقيل لنا ان عدد أساتذة هذه المعاهد يبلغ ٢٥٠ معلماً متدرجـــاً ، و ٦٠ دوكتوراً في العلوم ، و ٤٠٠ مرشح لنيل الشهادات العلمية (بكالوريا) . وأضاف محدثنا الى ذلك قوله : « ان في أذربيجان ٧٦ مؤسسة للدراسة والتدقيقات. بعضها عائد للمجمع ، وهي التي تعنى بالبحث والتدقيق والدراسة ، وبعضها يرجع الى الحكومة كمعهد القطن والحرير ، وكالمعاهد

هي تعنى بالشؤون الاقتصادية. وأما المكتبة العامة فهي تابعة المجمع، وفيها نصف مليون كتاب، بينها ثلاثون الف مخطوطة، منها ١٢ الف مخطوطة عربية.

وعلاوة على ذلك أحطنا علماً بالأمور التالية:

● يوجد في جهاز الحكومة وزارتان: وزارة التعليم، ووزارة التربية.

● موازنة الحكومة تبلغ ٤ مليارات روبل، منها ٤٥ مليون روبل اعدت مخصصات للمجمع سنوية، والنية منصرفة لزيادتها في الأعوام الآتية.

وشاقنا ان نعرف بعد ذلك شيئاً عن مقدار العلماء المتخرجين من تلك المعاهد العلمية لنقدر مستوى البلاد العلمي فكان الجواب انهم يعتبرون علماء اولئك الذين يحملون شهادات علياً من الجامعات والاسبرنتور. وعدد هؤلاء يناهز الآن ٩٠٠، ويزداد عددهم تباعاً في كل عام. ففي عام ١٩٥٧ بلغت الزيادة في عددهم مايتين، ومن المنتظر ان تتضاعف الزيادة في سنة ١٩٥٨.

وبقي علينا ان نستعلم أخيراً اذا كان للغة العربية وآدابها، وللعلوم الاسلامية نصيب من اهتمام حكومة أذربيجان فكان الجواب على الوجه التالي:

● النية منصرفة لتدريس العلوم والآداب الشرقيـــة، وفي عدادها اللغة العربية بصورة خاصة.

● لا يوجد في أذربيجـان معهد لدراسة العلوم الاسلاميـــة

والشؤون الدينية ؛ غير ان للجامعة معهداً يدرس الفلسفة ، وله ثلاث شعاب تعلم المواضيع الآتية :

الاولى : تاريخ أذربيجان ويشمل الشرع الاسلامي ، وما يتعلق به .

الثانية : تاريخ الماركسية وفلسفتها .

الثالث : فلسفة الامم الشرقية ، وهي تتناول فلسفة الترك والعرب . والى هذا فان معهد التاريخ في باكو يعنى ايضا بتدريس تاريخ العرب والاسلام .

واما تعليم الشريعة الاسلامية في مدارس خاصة او مدارس حكومية فلا وجود له البتة في اذربيجان .

وقد شكرنا عمدة المجمع على ما زودونا به من معلومات ، وودعناهم ونحن معجبون بتلك النهضة العلمية الجبارة ، ومشفقون في نفس الوقت على مصير الاسلام في تلك الجمهورية المسلمة ، او بكلمة اصح التي كانت مسلمة .

الكنسرفتوار . (المعهد الموسيقي) . الموسيقى العربية

تقارب الشرق بالفتح الاسلامي الذي ادرك الهند وتخوم الصين ، وتخالطت شعوبه فتفاعلت في فنونها وادابها . وكان اشد الاختلاط والتفاعل ذلك الذي حدث بين العرب من جهة وبين كل من الفرس والترك من جهة اخرى بتأثير العوامل السياسية : فقد بسط العرب حكمهم على هؤلاء الاعاجم حينا

من الزمن ، ثم اتيح لهؤلاء ان يبسطوا سلطانهم على البلاد العربية في غضون الخلافة العباسية وما بعدها . فكان لهذا الاختلاط اثره .

وقد اصاب الموسيقى العربية خلال التمدن العربي الاسلامي ما اصاب غيرها من الازدهار ، فكان الفرس والترك ، حتى اقصى امصارهم ، يتغنون بها ويستعذبون انغامها والحانها شأن الاقطار العربية حيال الموسيقى المصرية في هذا العصر .

وذلك ما يفسر قول اميرة نظيروف الملحنة الاذربيجانية في حديث لها بموسكو « **ان الموسيقى العربية ذات جذور مشتركة مع الموسيقى الاذربيجانية . انهـــا قريبة منا ، ونحن نفهمها جيداً منذ الصغر** . » وذلك ما ثبت لدينا عند زيارة الكنسرفتوار في باكو .

ان طبيعة اذربيجان توحي الشعر والفن كلبنان ، ذلـــك لان مياهها الجارية وجبالها الشامخة الخضراء ومفاتن مظـاهرها انجبت شعبا يحن ، على نشاطه ، الى الشعر والطرب والموسيقى والرقص ، ويجيد هذه الفنون . وآية ذلك ما اصاب رشيد ـ بيلوف الفنان الاذربيجاني من النجاح في موسكو الى حد ان مسرحه فيها ٢ الذي احتل مكانة عالية بين المسارح ، لا يفتأ مكتظاً بالنظارة والمستمعين .

ولا أدري اذا كان هـذا الفنان الاذربيجـــاني هو من متخرجي كونسرفتوار باكو اسوة بفكرة أميروف وأمـيرة نظيروف الملحنين المعروفين أم لا ، ولكن الذي تأكد لي ان طبيعة أذربيجان ومؤثراتها أتاحت لهذا المعهد الموسيقي ان يحتل

المنزلة السامية التي احتلها بين أمثاله .

وإذا كان الاثر يدل على المؤثر فهذه البناية الكبيرة التي أعدت للمعهد الموسيقي في باكو تدل على مبلغ اهتمام حكومتها وأهلها بالفن . وقد زرنا هذا المعهد فاذا بمديره حاجي أحمد جودت ومديرته الثانية نيكار هانم ، وهي من الجامعيات ، يرحبان بنا ترحيب الأهل بالأهل ، واذا بمعاونوهما يلتفون معهما حولنا في قاعة الاستقبال ، ويحدثوننا عن مؤسستهم المحبوبة .

والكونسرفتوار ، الذي أنشيء سنة ١٩٢١ ، هو مدرسة لتخريج الموسيقيين من ذكور وأناث منذ الصغر . وهو يعنى بتدريس (١) تاريخ الموسيقى (٢) والنظريات الموسيقية (٣) وتاريخ موسيقى أذربيجان . وله فرعان (١) فرع المؤلفين والملحنين (٢) وفرع الضرب على البيانو . وتبلغ مخصصاته في موازنة الجمهورية ثلاثة ملايين روبل .

ولما زرنا قاعات المعهد واحدة واحدة ، وبلغنا قاعة السماع حططنا الرحال فيها لأننا استطعنا هناك ان نتصل بعالمنا العربي ونستمع الى اناشيده وأغانيه . ولا سيما غناء فيروز المنشدة اللبنانية . ثم انتقلنا الى قاعة البيانو فاذا بأميرة نظيروف احدى استاذات هذا المعهد تسمعنا من الضرب على البيانو ما يهز النفوس ويثير الاعجاب .

وقبل الوداع شاء المدير ان نعود الى غرفته فاذا بنا نجد المائدة حافلة بالفواكه ، واذا بنا نسمع ، لأول مرة ، الاغاني الأذربيجانية المطربة ، ونرى أصابع المطرب تتلاعب على أوتار

آلة موسيقية وطنية كالعود يسمونها اثار . وكانت ساعة سرور كادت تنسينا لذة الاستماع الى أغاني فيروز لأن ما سمعناه من الاغاني الاذربيجانية التركية كانت منسجمة مع أذواقنا الشرقية.

فالشرق شرق مهما تباعدت أمصاره واختلفت أوضاعه ، واذربيجان قطعة لا تنفصل عن هـذا الشرق وان أمست سوفييتية . انها لا تزال منسجمة في تلحينها مع البلاد العربية ومرتبطة بالاصول الفنية التي تجمع بينها ، وفضلاً عن ذلك فان ملحنيها ومنشديها لا يزالون يجنحون في تآليفهم الى المواضيع العربية .

لقد اتخذ أدباء أذربيجان منذ القدم الأدب العربي مورداً عذباً لهم ، وأمامهم في ذلك عميدهم نظـامي كنجوي مؤلف ديوان «ليلى ومجنون» ، ولا يزال أحفادهم يجنحون مثله الى المواضيع العربية . وها هو فكرة أميروف خريج الكونسرفتوار الذي ذاع صيته في وضع مقامات سمفونية عن الشرق ، ها هو يقوم الآن باعداد أوبرا جديدة بعنوان « شيخ سنان » تستلهم قصة عربية تدور فصولها حول انتصار حب شريف .

جامعة الجمهورية الاذربيجانية ـ اللغة العربية

تقع هذه الجـامعة في شارع « باكو قومينست كوجه‌سي » وهو ذات الشارع الذي يقع فيه المجمع العلمي . وكان رئيسها غائباً حينما زرناها فلم نحظ بالتعرف اليه . واستقبلنا بالنيابة عنه

معاونه عبدالله قرابيف وبعض الاساتذة ، وكانت بينهم سيدة . وتولى الترجمة علي عسكر بن جعفر ، وهو شاب نشيط لا يحسن العربية فحسب ، بل يتكلم بها مثل أبنائها وبلهجة لا تختلف عن لهجة بلادنا . وقد تلخص لنا من الحديث الذي دار بيننا وبينهم في قاعة الاستقبال المعلومات التالية :

انشئت جامعة باكو سنة ١٨٢٠ ابان ما كانت اذربيجان كلها جزءاً من ايران ، ولكن ازدهارها يرجع الى العهد الروسي ، ولا سيما السوفييتي منه . وفي هذا العهد صارت اكبر جامعة من جامعات الجمهورية ، وتفرع عنها جامعات كجامعة الطب ، وجامعة التربية ، وجامعة الشؤون الاقتصادية .

كان الروس عهد القياصرة يسيطرون على الجامعة ويستأثرون بالتدريب فيها ، ويعملون لنشر لغتهم وآدابهم . أما الآن فقد استقل الاذربيجانيون في ادارتها وفي التعليم الذي أصبح باللغتين الأذربيجانية والروسية .

وعدد تلامذة الجامعة خمسة آلاف نصفهم من الأناث .

ويتألف جهاز الاساتذة فيها من ١٧٠ مرشحاً للدكتوره ، في شتى العلوم ، و ٣٥٠ استاذاً ، و ٧٥ من خريجي الأسبرانتور ، وهو معهد للابحاث العلمية تعادل شهادته البكالوريا . وفي هذا الجهاز التعليمي خمس سيدات دكتور ، وعشرون آخريات اسبرنت .

موازنة الجامعة تبلغ نحو الاربعين مليون روبل ، ومدة الدراسة فيها خمس سنين ، بينما ان مدة الدراسة في جامعة

الطب ست سنين .

للجامعة مطبعة وجريدة اسبوعية ومجلة شهرية لنشر الاختبارات العلمية ، ولها مكتبة يزيد عدد كتبها على مليون كتاب ، ولها متحفان تابعـــان : المتحف البيولوجي ، والمتحف الجغرافي والمينرولوجي (المعادن) .

تقسم الجامعة الى ثمانية معاهـد (١) التاريخ (٢) اللغـــة والآداب (٣) الحقوق (٤) الاستشراق. وتعلم في هذا المعهد اللغات الفارسية والعربية والتركية وآدابها (٥) الطبيعيات والرياضيات (٦) البيولوجيا (علاقة الانسان بالكائنات) (٧) الكيميـــاء (٨) الجغرافيا وعلم طبقات الارض . وفي هذه المعاهـد ٥٣ منبراً للتعليم .

التعليم مجاني ، أما المسكن والطعام فهما على نفقة الطلاب ، على ان اجرة المسكن قليلة جداً الى حد انها تكاد تكون رمزية .

وبعد هذا العرض عن الجامعة ومعرفة ان في باكو جامعتين أخريين ، وبعد ان استعرضت المعلومات التي سمعتها في المجمع العلمي والكونسرفتوار لم يسعني إلا ان اكبر الجهود المبذولة في هذه العاصمة لنشر العلم ، خصوصاً وان نهضتها هذه ، التي كانت تعتمد على الاجانب من قبل ، يضطلع بها الآن أهل البلاد .

ليلة الوداع

أقامت لنا لجنة أزافكس مأدبة عشاء في فندق أنتوريست

حيث نزلنا دعت اليها بعض الوجهاء والعلماء ، وكانت بمثابة حفلة الوداع . وأثناء ما كان يطوف علينا بالاطعمة والاشربة الفاخرة فتيات كأنهن لؤلؤ منثور كانت جوقة موسيقية وطنية تشنف الآذان فتسمو بنا الى مستوى الخيال خصوصاً حينما كان أحد أفرادها يضرب على آلتهم الموسيقية المسماة آثار وينشد الأناشيد الأذربيجانية .

وبين الفترة والفترة كان يقف الخطباء تباعاً للتعبير عن عواطفهم ، ويتولى علي عسكر بن جعفر ترجمة أقوالهم الى اللغة العربية . أما الخطب فكان محورها الاشادة بما أدركته اذربيجان من التقدم والازدهار في ظل العهد السوفييتي ، هذا دون ان تتعرض لذكر الاسلام والمسلمين او ما يتفق مع ذلك من عبارات الأخوة ، في حين ان الداعين والمدعوين ، وان تباعدت بلادهم ، كانت تجمعهم وحدة الاسلام والشرق .

غير ان واحداً من الخطباء القى قصيدة حيّا بها مصر وأبطالها تخللها بعض التنويه بعواطف تنمّ عن غيرة على الشرقيين . وهي قصيدة كان قد نظمها باللغة الأذربيجانية في غضون حرب العدوان المثلث على مصر . فتساءلت عند سماعها اذا كان لهذا الشاعر جرأة على نظم هذه القصيدة فيما لو لم تكن سياسة موسكو مواتية ، وفيما لو لم تكن موسكو ظهيرة لمصر عند العدوان على بورسعيد .

وشاء خطيب آخر ان ينوه من بعيد بالروابط التي تربط بعضنا بالبعض الآخر فلجأ الى التاريخ ، وتناول مشاركة

أذربيجان لسائر الشعوب الاسلامية في خدمة العلم في غضون التمدن العربي . وأورد اسماء بعض علماء أذربيجان في ذلك الحين وبينهم كثيرون ممن ألفوا باللغة العربية .

بيد إنا رغم كل تحفظ لمسناه كنا نشعر بان عواطف الأخوة وان كانت تخبو تحت رماد السياسة إلا أن وميضها لمّا ينطفىء في القلوب . ولما حان موعد الوداع أقبلوا علينا يزودوننا بأطيب العبارات ، ثم في صباح اليوم التالي شيعنا فريق منهم الى المطار حيث أعدوا لنا مائدة فاخرة حتى اذا حان موعد السفر أعربنا لهم عن شكرنا الجزيل لما لاقيناه في رحابهم من الحفاوة .

وقد عدنا الى موسكو لنستقل منها طائرة أخرى الى الصين ذلك لأن الخطوط الجوية التي تربط بين الاتحاد السوفييتي وبين الصين غير متوفرة إلا بواسطة الحواضر الروسية .

الذكريات في الطائرة – الفرق بين أذربيجان والشرق العربي

كانت مدة السفر بين باكو وموسكو متسعة لاستعراض الذكريات ، والمقابلة بين ما شاهدنا وعلمنا في أذربيجان ، وبين ما نشاهد ونعلم عن احوال الشرق العربي .

ففي الناحية العلمية قضي في جمهورية أذربيجان على الأمية أو كاد ، وارتفع المستوى العلمي الى حد أنه تناول التعدين والنفط والاستشراق بينما ان الأمية لا تزال فاشية في اكثر

البلاد العربية ، وان المدارس لا تزال قليلة بالنسبة للطلب في كل الامصار العربية ، ولا يستثنى منها لبنان بلد العلم حيث لا يزال حتى في بيروت ، وهي عاصمته ، يجد أوليـاء الأولاد صعوبات جمة في صدد تأمين المدارس لأولادهم فيبقى فريق منهم محرومين من نعمة العلم . هذا فضلاً عن ان المستوى العلمي في بعض الدول العربية لا يتعدى القراءة والكتابة والأدب بالاضافة الى العلوم الدينية .

وفي أذربيجان اتكل أهلها على أنفسهم في تأمين المدارس والمعاهد حتى انهم استغنوا عن الروس زملائهم ، بينما ان بعض البلاد العربية لا تزال تعتمد في هده الناحية على الجامعات والكليات الاجنبية على اختلاف مراميها في حين ان حكوماتها لا تجهل الأضرار التي تنجم عن الاعتماد على الاجانب في تربيتهم الناشئة على هواهم .

وفي الناحية العملية قضي في أذربيجان على البطالة ، وبالتالي قضي على العوز والحياة الوضيعة المرة بينما ان البلاد العربية لا تبرح تعاني ازمات البطالة ولا تزال ترزح تحت أثقال فئة من المحتكرين المستثمرين حتى اذا لم يجد المحرومون من الشعب أعمالاً اضطر بعضهم اما الى التسول ، واما الى تعاطي السرقة والنشل ، ولجأ بعض المستضعفات البائسات من النساء الى بيع أنفسهن في أسواق الدعارة . أما الطبقة البائسة التي تتعالى عن كل هذه الموبقات فلا تلقى أمامها إلا الانتحار . وهو أمر قد فشى في هذه الايام ، ولا سيما في بيروت التي اكتظت باللاجئين

واللاجئات من سائر البلاد .

وفي الناحية العائلية بأذربيجان استتبت الامور من جراء تأمين حاضرهم بالعمل وتأمين مستقبلهم بمرتبات التقاعد لكل العاملين ، واقبلوا بالتالي على تأليف العيلة حتى تكاد العزوبية تستأصل . وأما هنا في البلاد العربية حيث البطالة فاشية والتقاعد محصور بموظفي الدولة وبعض الشركات ، وحيث المهور ونفقات الزواج باهظة فان كثيرين من الشبان والشابات يشتهي كل منهم عبثاً ان يؤلف عيلة ، وان يتمتع بزينة الحياة الدنيا . وأما وان الطبيعة الانسانية جامحة فان الشبق يفضي الى سلوك هؤلاء طرقاً غير مشروعة ، فتنتشر الدعارة وتنتشر معها الموبقات الأخلاقية والأضرار الصحية .

وفي الناحية الصحية بأذربيجان تؤمن الجمهورية للشعب الطب والعلاج والمستشفيات والمصحات ودور الاستجمام والاستحمام فلا يموت المريض بدائه ، ولا يعجز عن تأمين دوائه ، ولا يقضي الولد نحبه في سن الطفولة . ويتكاثر بالتالي النسل وتتوفر صحة الاجسام . بينما نحن ، ولا استثني من ذلك لبنان ، نرى الغني اذا أصابته عاهة أو مرض ، فضلاً عن الفقير ، يكاد ينوء تحت أثقال أجور الاطباء والمستشفيات والمصحات الباهظة ، ولا سيما اذا طال أمد مرضه ، ويتبرم من ارتفاع اثمان العلاجات .

أما الفقير ، وهو الذي يؤلف عادة كثرة الشعب ، فيا ويله . واذا أتيح له دخول أحد المستشفيات الخيرية على نفقته أو

على نفقة الحكومة فانه يُعالج في الدرجة الثالثة ، أو يكون نصيبه مستشفيات محرومة من نطس الاطباء والجراحين ، بينما ان المستشفيات وأمثالها في الاتحاد السوفييتي لا تميز بين الطبقات ، وبينما ان قضية الطبابة والدواء هي من أولى الضروريات لان الانسان قد يستغني عن اللبـــاس وعن كثير من المآكل ، ولكنه في حالة المرض لا يستغني عن الطبيب الماهر ، والجراح الخبير ، ولا يستغني عن العلاج الثمين .

وفي ناحية الأغذية والاثمان فلا وجود بأذربيجان للاحتكار والمساومة بل كل شيء مبذول هناك باثمان محددة ومعتدلة . أما هنا فالعين بصيرة واليد قصيرة بالنسبة للسواد الاعظم من الشعب : واذا مرّ الفقير أمام باعة الحلوى ورأى هناك الصواني المصفوفة ثارت شهوته لتناول شيء منهـا لنفسه أو لأولاده ، ولكنه لا يملك ما يعالج به هذه الشهوة فيردد قول الشاعر :

فيا دارها بالقرب مني وانما نصيبي بها تقبيل باب وجدران

أجل ان هذه الحلويات قريبة من الفقير ، ولكن أنّى له ان يبتاعها وثمن الكيلو الواحد منها يكاد يزيـد على كسب يومين من أيامه ؟

أجوليت ... ما هذا السكوت ؟

وفي ناحية المساكن فقد أمنت أذربيجان وغير أذربيجان للناس منازلهم باجور رخيصة ، وأقامت المساكن الشعبية للعمال والـكادحين ، بينما ان هذا المشروع لا يزال عنـدنا حبراً على ورق رغم انه قرر من سنين ، ولا يفتأ في بعض البلاد العربية

نسياً منسياً .

وبعد فقد مرّت في خاطري هـذه الذكريات وأنا في الطائرة بين الارض والسماوات فأكبرت الفرق بين أذربيجان وبين البلاد العربية ، وتساءلت من ثم اذا كان السبب يعود لوفرة المال عندهم وقلته لدينا . وكان الجواب لا ، وانما يرجع الى اختلاف النظم الاجتماعية ، والى التفاوت في التشديد على تطبيق النظم المسنونة .

اجل فالمال اصبح في العصر الحاضر موفوراً في البلاد العربية ، ولا سيما حيث ينبع الذهب الاسود ، وهو ينصب على انحائها صبا من قبل الدول التي تكافح الفقر والمرض والجهل حباً بوقف انتشار الشيوعية ، ولكن هـذه الاموال ، كلها او بعضها ، بدلا من ان تنفق على محاربة البطالة ، وتأمين المساكن الشعبية وعلى اقامة المستشفيات والمصحات ، وعلى انشاء المزيد من المدارس تبذر تبذيرا على الكماليات . فحينا تبذر على زيارات رسمية متتابعة وعلى استقبال اثر استقبال لرد الزيارات . وحينا تبذر على حفلات اثر حفلات ، وبعثات عقب بعثات ، القصد منها اشباع نهم المقربين والموالين . هذا فضلا عن تبذيرها على اجور باهظة لدور الحكومات او لقصور الحكام . بينما ان انشاء مدينة للعمال او مستشفى كبير للحكومة وتجهيزه باحدث المعدات وفتح المزيد من المدارس وتأميم الجامعات الاجنبية هو مقدم على اشادة القصور ودور الضيافات ، ومقدم على انشاء الكماليات .

حقا ان البلاد العربية تثب وثبة جبارة في الناحية العمرانية وتحفل بمشاريع اقتصادية كثيرة الجدوى ، ولكنها ، مع ذلك ، لا تزال عرضة لانتشار الشيوعية رغـــم الاموال التي تصبّ عليها بغية مكافحتها . ذلك لانه لا يزال الشعب الفقير في اكثر البلاد يرى الاراضي الواسعة يتمتع بها الاقطاعيون وهو محروم منها ، ويشاهد القصور الفخمة التي يشيدها المترفون وهو لا يجد احياناً كوخاً يأوي اليه ، وينظر حوله انواع الـــترف والبذخ التي يعيش فيها المحظوظون وليس نصيبه منها الا الحسرة والتأفف .

وحقا ان البلاد العربية لا تنقصها ، على الاكثر ، القوانين والنظم الاصلاحية التقدمية ، وانما الذي يفوتها هو تطبيق هذه الشرائع على حبها ، ولا سيما الضمان الاجتماعي .

فالى متى سيبقى الحال في العالم العربي على هذا المنوال ؟

الى متى وقد امسى الفقراء فيـــه يراقبون كل شاردة وواردة تقع فيما وراء الستار الحديدي ؟

الى متى وقد امسى المتعلمون منهم ، بعـــد ان توفرت اسباب الاختلاط بالعالم الشيوعي ، يتأهبون لقبول مباديه بغية تأمين مطامع انفسهم ، وعلى قصد العيش برخـــاء في مستوى واحد مع المنعمين والمترفين ؟

⊠⊠⊠⊠

الفصل الخامس

سيبريا ومنغوليا

ابان وجودنا في موسكو وردت الينا دعوة من لجنة السلام في بكين لزيارة الصين للاشتراك بالعيد الوطني الذي يقع في اول تشرين الاول ١٩٥٧ لمناسبة ذكرى ثماني سنين على انتصار الثورة الشعبية .

فنحن اذن سنجتاز سيبريا ومنغوليا هذين البلدين اللذين يتمثلان في مخيلتنا على شكل رهيب : سيبريا بلد الثلوج والمنافي ، ومنغوليا بلد جنكيز خان وهولاكو هذين العاهلين اللذين كان لهما شأن وأي شأن مع العرب والمسلمين . ونحن اذن سنصل الى الصين بلاد العجائب والغرائب فمرحى لهذه الدعوة ، ومرحى لهذه الرحلة .

سيبريا ـ كيف كنا نتخيلها ، وكيف الفيناها

سيبريا بلاد واسعة الارجاء تمتد من جبال الأورال الى بحر اليابان ، وتمتد من الشمال الى الجنوب مساحة ثلاثة الاف كيلومتر . وهي حافلة بثروات عظيمة ، ولا سيا في غربي الاورال وحول جبال الطاي ، وثروتها ترجع الى ما فيها من المعادن المختلفة من ذهب وفضة وكرانيت وغيرها .

غير ان هذه الناحية من صورة سيبريا التي تعرفنا اليها في المدرسة لم تكن مدار اهتمامنا بها ، وشغفنا برؤياها ، وانما الذي كان يحدونا الى مشاهدة سيبريا هي الناحية الاخرى من صورتها ، أي تلك التي كنا نشاهدها في السينما ونقرأ عنها في الكتب الغربية والصحف . تلك الناحية التي رسخت في الاذهان وارتسمت في المخيلات على شكل رهيب . والانسان مطبوع على حب مشاهدة الغرائب .

وكيف لا وقد كنا نتخيلها بلاداً صحراوية تغمرها الثلوج وترتادها الوحوش الكاسرة ، ولا سيا الدبب البيضاء والحيوانات البرية والبحرية . اهلها همج اقزام لا يزيد عددهم في تلك البلاد الواسعة الشاسعة عن سبعة ملايين ، وليس عندهم وسيلة لاجتياز المسافات الشاسعة غير (الترويكا) الزحافة على الارض التي تجرها البهائم ، أولئك الذين ما ان شاهدوا الخط الحديدي ينساب في أقطارهم ، في أواخر القرن التاسع عشر ، حتى جفلوا منه واعتبروه من علامات الساعة .

وفضلاً عن هذا وذاك كنا نتخيل، سيبريا على ما رأيناها في السينما وقرأنا عنها انها بلاد المنافي، كانت ولا تزال مأوى المغضوب عليهم حيث يسامون سوء العذابات، ويدفعون الى الاعمال الشاقة لا فرق في ان يكون هؤلاء من اعداء القيصرية والشيوعية أو من أسرى الحروب.

ولكنا ما ان اجتزناها واستطلعنا أخبارها حتى تبخر هذا الرسم من مخيلتنا، وبدت لنا سيبريا على غير ما كنا نتصورها. بدت بلاداً عامرة بصناعاتها وتجارتها وزراعتها، حافلة بالمؤسسات الثقافية والفنية والكهربائية، مرتبطة بعضها بالبعض الآخر بالخطوط الحديدية وبالطرقات الواسعة، وآهلة بالسكان ويبلغ عددهم عشرين مليوناً.

على ان الصورة التي كنا نتخيلها وان كانت صحيحة بالنسبة الماضي، وصحيحة تقريباً حتى الآن بالنسبة لمناطقها الشمالية، حيث تسكن شعوب الاسكيمو وسواها، ولكنها لم تعد تتفق مع المناطق الوسطى والجنوبية التي استفحل فيها العمران خلال العهد السوفييتي حتى صارت لا تختلف عن سائر امصاره إلا باتساع أرجائها اتساعاً جعل مراكز العمران فيها كواحات في صحراء.

وبعد فقد غادرنا موسكو في منتصف ليل ٢٠ ايلول ١٩٥٧، وبعد خمس ساعات هبطت بنا الطائرة في قازان على نهر الفولكا، وهي من المدن التي تردد اسمها في التاريخ الاسلامي، ولا سيما في عهد المغول. واشتهرت بكاتدرائيتها وعذرائها

وبالأساطير التي نسجتها حولها مخيلات البسطاء ، كما اشتهرت في العهد الحاضر بلينين الذي كان استاذاً في احدى جامعاتها ، والذي أطلق فيها سهام مباديه الثورية فأفضى ذلك الى اعتقاله أكثر من مرة ، ثم الى نفيه الى سيبريا سنة ١٨٩٧ . وقد أصبحت قازان الآن آهلة بنصف مليون من السكان .

وبعد ثلاث ساعات من مغادرة قازان هبطت بنا الطائرة في محطة ثانية أي في مدينة سفردلوفسك ، وهي أولى الحواضر السيبرية ، وتقع على مقربة من نهر أورال ، الذي يفصل بين اوروبا وآسيا ، ويمتد الفي كيلومتر حتى ينصب في بحيرة بيكال المشهورة بصيد الأسماك . والمسافة بـين موسكو وتخوم سيبريا تبلغ ١٥٠٠ كيلومتر . وكان الصباح قد أسفر عن وجهه المنير في اليوم التالي فأتاح لنا أن نشاهد منذ اجتزنا جبال الاورال الى سيبريا تلك المساحـات الشاسعة الواسعة المكسوة بخضرة الغابات ، والمغطاة بالاحراج ، ويتخللها أحياناً بقـاع حافلة بالمزارع والبساتين المثمرة تجري من حولها الأنهار والسواقي ، ولا سيما على مقربة من المدن .

ولما أدركنا سفردلوفسك أولى المـدن السيبرية مودعين أوروبا ومستقبلين آسيا أشرفنا ، على غير ما نتوقع ، على بلد كبير لا يختلف في العمران عن سائر الحواضر الروسية وعما فيها من المعامل الصناعية الكثيرة .

وهذه المدينة بنيت في عهد بطرس الكبير سنة ١٧٢٣ ، وسميت وقتئذ باسم زوجته كاترينا صاحبة القصة المعروفة مع

الصدر الأعظم وقائد الجيش العثماني محمد بلطجي باشا تلك القصة التي رويناها في الجزء الثاني من كتابنا « فلسفة التاريخ العثماني » خلال الكلام على موقعة نهر بروث عام ١٧١١ . ثم استبدل اسم المدينة في العهد السوفييتي وأطلق عليها سفردلوفسك نسبة لسفردلوف رفيق لينين في الثورة .

وفي هذا العهد أصبحت هذه المدينة وسطاً صناعياً كبيراً للصناعات الثقيلة ليس كمثلها شيء في الاتحاد السوفييتي ، وارتفع عدد سكانها الى سبعمائة الف نسمة . وقد اشتهرت بمعهدها البوليتكنيكي العالي ، وبمصنعها العظيم المسمى سرغواود جنكتزي.

وفي اليوم التالي أدركنا مدينة أومسك بعد ثلاث ساعات قضيناها في الجو ، وهي مدينة تقع الى جانب نهر ايرايلك ، ولا يقل عدد سكانها عن ٨٠٠ الف نسمة . وبين المدينتين اراضٍ شاسعة مليئة بالأنهر والبحيرات الكبيرة .

ثم أقلعت بنا الطائرة فقضينا بقية نهارنا والليل وشطراً من اليوم الثالث في الأجواء الى أن حطت بنا في نوفو سيبرسك عاصمة سيبريا . وتقع هذه المدينة على نهر نانيسي الى جانب جبال مترامية الاطراف . ورغم ان سكانها لا يزيدون عن ٣٥٠ الف شخص فقد عُرفت بثروتها لجمعها بين الزراعة والصناعة.

وبعد قليل من الراحة في هذه العاصمة استأنفنا السفر قاصدين الى اركوسك آخر محطة في سيبريا بين موسكو وبكين، وبلغناها بعد ثلاث ساعات ، ونمنا في فندق مطارها شطراً من الليل .

وهذه المدينة الصناعية الزراعية الحافلة بمناجم الذهب تقع على مقربة من بحيرة بيكال ولا يتجاوز سكانها ٣٤٣ الف نسمة . بيد انها تعتبر ذات مكانة استراتيجية وتاريخية : فقد كانت ولا تزال مركزاً للمواصلات بين روسيا والشرق الاقصى ، وكانت في عهد القياصرة مقرا لحاكم سيبريا العام ، وبالتالي المنفى المفضل للمغضوب عليهم .

ويزداد عدد سكانها وعمرانها سنة بعد سنة نظراً لموقعها ولاهميتها التجارية والصناعية . وتبلغ الآن مؤسساتها الصناعية مائة مؤسسة ، منها ما هو للصناعات الخفيفة في وسط المدينة ، ومنها ما هو للصناعات الثقيلة في الضواحي . وفضلا عن جامعتها العلمية ومتحفها وندوتها الادبية فالمدينة حافلة بالمسارح ودور السينما والرياضة شأن كل الحواضر الروسية .

قالت لنا مضيفتنا في مطار اركوسك اننا سنغادر الليلة سيبريا ونحلق فوق بلاد المغول للوصول الى بكين .

— وكم هي المسافة بين اركوسك وبكين ؟

— هي الفان من الكيلومترات اذا اضيفت الى ٣٢٠٠ كيلومتر من موسكو الى اركوسك فان المسافة بين عاصمة الاتحاد السوفييتي وعاصمة الصين تبلغ ٥٢٠٠ كيلومتر .

فهيا بنا اذن الى الطائرة لنودع سيبريا . وقد حلق بنا بساط الريح عند بزوغ الفجر فاذا بنا نجتاز في الاجواء عالماً آخر مليئا بالمناظر . وحبذا لو كنت من الوصافين لتصوير هذا العالم الجديد . انها مناظر مدهشة تستحق الوصف اذ

كنا نرى الغيوم والسحاب التي تمر من تحتنا كأنها تارة سلاسل الجبال ، وطوراً كأنها البحار المنبسطة . وبين هذا وذاك كنا نشاهد السحاب احياناً كانه الاشجار واحياناً كأنه الحيوانات . وكم كانت هذه المناظر تخفف عنا اعباء السفر الطويل بما تضفي علينا من مشاعر الغبطة والابتهاج .

ولما كانت هذه السحب والغيوم تتبدد ، وتفسح بيننا وبين الارض ، خلال اجتياز سيبريا ، كنا نشاهد القرى والدساكر قائمة بين الاحراج الكثيفة والانهر الغزيرة والبحيرات الكبيرة ، قائمة على اساس التعاونيات الزراعية ، وهي اشبه شيء بالثكنات العسكرية ، ولكنها ثكنات كثيرة العدد مصطفة الى جانب بعضها البعض وتفصل بينها الشوارع الواسعة ، وتحيط بكل ثكنة منها حديقة صغيرة . واكثر هذه القرى مبني بالاخشاب .

وكنا نرى بعض المزارع حافلة بمداخن المصانع وكأنها غابات تتمنى ان تنافس الاحراج في علوها وكثرة اشجارها .

على ان هذه الرحلة فوق سيبريا استطاعت ان تنتزع منا الصورة التي حملناها عنها ، تلك الصورة المرسومة بريش الدعايات والاغراض ، فاذا بنا نرى هناك بلادا آهلة بالسكان ، عامرة بالمدن ، غنية بالصنائع والمزارع والمناجم ، مروية بالانهر والبحيرات ، بلادا اصبحت افضل معين للاتحاد السوفييتي على تحقيق برامجه الاقتصادية والحربية ، وعلى تزويده بالمحصولات الزراعية .

بيد انا رأينا مع ذلك ان اهل سيبريا الوسطى والجنوبية ، وان كانوا في حواضرهم لا يختلفون في المستوى التقدمي عن

سائر امصار الاتحاد السوفييتي ، الا ان اهل القرى منهم والدساكر لا يزالون مختلفين عن هؤلاء كثيرا في المستوى الاجتماعي . لذلك فقد شاهدت في مطار نوفوسيبرسك عاصمة سيبريا نفرا من فلاحي سيبريا لا يزالون يحتفظون بالزي القديم البالي وبعاداتهم المتأخرة . رأيت اناسا منهم يفترشون ارض المطار ، وينامون بمدي الاجسام على الارض دون مبالاة . وهم ينتظرون موعد سفر القطار الحديدي . وهذا شيء لم اره في روسيا ، ولم اشاهده في اي قطر آخر ، واذا دل على شيء فيدل على مبلغ تأخر فلاحي سيبريا في الناحية الاجتماعية .

هذا وأما المنافي التي ما كان يذكر اسمها ألا وتذكر سيبريا معها فلا تزال موجودة في تلك البلاد ، وآهلة باسرى الحروب والمحكومين ، ولكن المنفيين فيها أصبحت أحوالهم خيراً منها في عهد القياصرة ، ذلك لأنهم بدلاً من الاعمال الشاقة التي كانوا عرضة لها أضحوا عمالاً للدولة تستثمرهم تحت مراقبتها في مختلف الاعمال الانشائية .

☎☎

مغوليا في ماضيها وحاضرها

ذكريات التاريخ بين المغول والمسلمين

لما أعلنت مضيفة الطائرة أننا على أهبة اجتياز منغوليا استولى على نفسي شعوران مختلفان في وقت واحد : الألم والسرور . الألم لذكريات ما أصاب المسلمين والعرب من المغول ، والسرور لأن الفرصة أتيحت لي لان أشاهد البلاد التي خصصت لها فصولاً في الجزء الأول من كتابي « فلسفة التاريخ العثماني . »

أجل فما ان طرنا من ايركوسك قبل الفجر وحلقنا فوق بحيرة بيكال حتى شرعت ذكريات الاحداث الماضية تتتابع في خاطري تتابع فصول السينما . ذكرت جنكيز خان ، ذلك العاهل الوثني العظيم ، الذي انشأ امبراطورية المغول في القرن الثاني عشر للميلاد كانت عاصمتها قره كوروم في شمالي غربي صحراء كوبي امبراطورية امتدت رقعتها من شواطيء بحر الصين الى البحر الاسود ، وشملت الصين الشمالية وغربي اوروبا

الجنوبي وما بينهما من الامصار . وذكرت فيما ذكرت تقدم هذا الفاتح الجبار في بلاد الاسلام واستيلائه على بلاد ما وراء النهر (اورال) وخوارزم وخراسان وقندهار وملتان وهمذان وأذربيجان وايران . ولولا تحول وجهة الفتح المغولي الى نواحي الهند ، والى استكمال الاستيلاء على الصين ، ولولا موت جنكيز خان خلال ذلك لكان الغزو المغولي بلغ شواطىء البحر المتوسط بحر الشام .

وذكرت ايضاً كيف ان كوبلايي خان بن جنكيز خان استأنف الزحف على الصين وأنشأ فيها عام ١٢٧٩ م الأمبراطورية المغولية متخذاً من بكين عاصمة لها ، وكيف قام بعد ذلك عام ١٣٥٨ راهب صيني بوذي وأجلى المغول عن الصين واستولى على عرشهم .

ثم تمثل أمامي هولاكو وما ارتكب من الفظائع في البلاد العربية خلال القرن الثالث عشر ، ولا سيما في بغداد وحلب ودمشق . وما كان لهذا الفتح المغولي الثاني في بلاد الاسلام من مغبات وعوامل أفضت الى القضاء على استقلال العرب وعلى تدهور مدنيتهم .

وتمثل أمامي ايضاً ما أصاب المغول بعد جنكيز من الانقسام وتعدد الممالك ، وما وقع بينها من الحروب التي أدت الى خسرانهم ذلك الملك العظيم ، ثم الى ضياع استقلالهم .

وكانت العاقبة ان مغوليا أصبحت الآن مجزأة . الجزء الشمالي منها يقع في منطقة نفوذ روسيا حيث مد القياصرة

الخط الحديدي الذي يصل ما بين عاصمتهم وبور ارثور على بحر الصين . ذلك المرفأ الذي تردد ذكره خلال الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٥ . وأما الجزء الجنوبي منها فكان نصيبه الدخول في نطاق أراضي الصين ، وان تقوم فيه جمهورية صغيرة تدعى جمهورية مغوليا الشعبية عاصمتها اولانباتور ، وسكانها لا يتعدون الثلاثة ملايين ، واكثرهم على مذهب لاما .

وقد رافقتني هذه الذكريات مدة ساعتين وذلك ابتداء من مغادرة آخر مدينة من مدن سيبريا حتى حطت الطائرة في مطار اولامباتور عاصمة منغوليا . فاذا بنا نرى هنا اجساماً غير التي كنا نراها في روسيا ، ووجوهاً جديدة ، أجساماً أقصر طولاً ، ووجوهاً صفراء أو سمراء مبلطحة ذات العيون الغائرة ، والخدود النافرة .

أولئك أحفاد جماعة جنكيز خان وهولاكو الذين أقاموا الارض وأقعدوها ابتداء من القرن الثاني عشر . فتساءلت حينما رأيت نماذج من هؤلاء في المطار كيف استطاع المغول ان يبسطوا سلطانهم على جزء كبير من العالم ؟ ، ثم كيف أوتي لهم أن يبلغوا تخوم أواسط اوروبا على ما بين بلادهم وبين تلك الممالك الغربية من أبعاد وأبعاد جعلتنا نحن الذين نستقل بساط الريح نشعر بالتعب الشديد ؟

بيد أن العجب لم يلبث ان زال حينما ذكرت مؤهلات جنكيز خان ذلك الفاتح الذي لا تقف في وجه أمثاله الصعاب . حقاً انه كان أمياً ، ولكنه كان عبقرياً ، ولا سيما في فنون

الحرب ، وكان عمرانياً لم ينتصر في ساعات القتال وكفى ، بل وضع لقومه لغة مدونة وشرعة محكمة في كتاب اسمـــاه « السياسة الكبيرة ، » شرعة ظلت مدة طويلة مدار قوانين ملوك آسيا الى ان تغلب الاسلام ، واعتنقه بعض أحفاد جنكيز خان.

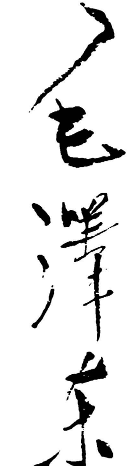
وقد تناولنا الغداء في مطعم مطار أولامباتور وكان طعاماً شهياً ، ثم عدنا الى الطائرة ونحن نعـد الدقائق للوصول الى بكين . ولما دنونا منها وأشرفنا على الجبـــال التي تصل بين الصين وصحراء غوبي الكبيرة رأينا أحد عجائب الدنيا ، رأينا قسماً من السور العظيم الذي ينساب فوق الجبال ، في علوها وانخفاضها وفي تعاريجها واستقامتها ، انسياب الحية الرقطـاء . هو السور الشهير الذي شيده تباعاً امبراطرة الصين بغية حماية بلادهم من غزوات المغول والتتر .



الجزء الثاني

جمهورية الصين الشعبية

رئيس جمهورية الصين الشعبية
ماوتسي تونغ
وقد تلطف باهداء هـذا الرسم
المؤلف ؛ مزداناً بتوقيعه (الى
اليمين) واسم المؤلف (الى الشمال)



賈[illegible]尔·貝亨先生

الفصل الاول

بكين ومعالمها

« السلام عليكم »

ها نحن في مطار عاصمة الصين ، وصلنا اليهـا ظهيرة يوم السبت الواقع في ٢٢ ايلول ١٩٥٧ ، ولقد حططنا الرحال بعد قضاء ٣٢ ساعة تارة في السماء وتارة أخرى في المطارات.

ماذا أرى على رتاج مدخل المطار ؟ هل مـا أرى حقيقة أم هو حلم في اليقظة ؟ كلا هو حقيقة . انهـا لافتة مستطيلة تمتد بمقدار عشرة أمتار كُتب عليها بأحرف عربية كبيرة تحية الاسلام والعروبة : « **السلام عليكم** » .

فما عسى ان يكون شأن هذه اللافتة ؟

أجاب أحد أفراد الوفد الذي جاء لاستقبالنا : « **ان محمد**

حتا رئيس وزراء اندنوسيا يصل اليوم الى بكين مدعواً من حكومتها لمناسبة العيد الوطني ، وقد رفعت هذه اللافتة للترحيب به . »

وكلمة السلام محببة على قلوب الصينيين لانها تتفق مع مبادئهم القديمة وتنسجم مع اهدافهم الحديثة ، ويرددها ملايين الصينيين في كل مناسبة ، كما يرددون كلمة الشعب وان كل سلطة تنبثق من الشعب وذلك على غرار الاتحاد السوفييتي .

وكان الوفد الذي جاء لاستقبالنا يمثل « لجنة السلام » التي دعتنا لزيارة الصين ودعت آخرين من وجهاء لبنان وصحفيين أتوا وفداً بعد اسبوع من وصولنا . وكان بين المستقبلين شابان مثقفان يتقن أحدهما اللغة الافرنسية ويدعى تونغ- تنغ- شوان ، ويتقن الآخر اللغة الانكليزية ، ويدعى كونْ-هسين . وقد رافقانا الى فندق بكين ، ثم تناوبا على مرافقتنا في زيارة معاهد بكين ومعالمها وفي السفر الى غيرها من بلاد الصين .

وكان أول ما ألفت نظرنا في الطريق الى اوتيل بكين ، وهو من أفخر فنادق العالم وتقيم فيه الحكومة حفلاتها الرسمية ، كان أول ما ألفت نطرنا مباني حديثة متعددة تعدها الحكومة مساكن للشعب فيما وراء سور العاصمة القديم ، ومعاهد مختلفة على نحو ما كنا شاهدناه ابان مغادرة مطار موسكو الى الفندق.

وكلما دنونا من وسط بكين كان يلفت أنظارنا أيضاً شيء جديد لا عهد لنا به في البلاد الأخرى ، وأعني به عربات على الدراجات معدة للنقل لا يضاهيها في الكثرة إلا دراجات

فردية اخرى (بسكليتات) تملأ الشوارع .

اما وان موعد المهرجان العظيم الذي دعينا اليه سيكون بعد اسبوع ونيف من وصولنا الى بكين فقد أقبـل علينا دليلانا المشار اليهما يعرضان علينا باسم اللجنة برنامج الزيارات لقصور المدينة ومعاهدها ومتاحفها ومعابدها القديمة . واقترحا ان نبدأ بالقصر الصيفي . وهو قصر جـدير بان تستهل به الزيارة ليس لانه افضل قصور بكين فحسب ، بـل لانه يصح ان يكون خير نموذج على ما كان اباطرة الصين يتمتعون به من حياة تشبه حياة الآلهة بينما كان الشعب يتمرغ في حمأة الفقر والحرمان . وقد اصبح هـذا القصر وسائر القصور الامبراطورية الاخرى والمعابد مفتوحة الابواب للشعب لمشاهدة اثار الاقدمين وللتنزه في حدائقها الرائعة .

القصر الصيفي ـ نائب افرنسي يؤيد الجزائر

يقع هذا القصر في طرف من اطراف بكين ، وهو وان أسمي قصر؛ الا انه في الواقع جنة لاينقصها الا الحور العين . قصور فوق قصور تقوم على هضاب ورواب بـين الاحراج والحدائق ، وتشرف على بحيرة متسعة تدعى « كوانغ منغ » ذات روافد واقنية تنساب في اودية خضراء . وفوق هـذه البحيرة جسر له ١٧ قنطرة يمتد في وسطها الى شبه جزيرة فيضفي على البحيرة المزيد من الروعة .

انشأ هذا القصر الامبراطور اي – هو – يين من اسرة تنغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤) في القرن الاول من تأسيس هذه الدولة ، واتخذه مصيفاً له ، وظل كذلك في عهد خلفائه من اسرته ومن اسرة شنغ (١٦٤٤ – ١٩١١) .

وكان اباطرة الصين القدماء يعنون كثيرا بتزيين قصورهم وباقامة تماثيل رمزية لبعض الحيوانات ، ومنها ما كان مجوفاً يعد مباخر للطيب والبخور . لذلك فانك ما ان تشرف على فناء القصر حتى ترى كثيراً من هذه التماثيل امام مدخله الجميل ويلفت نظرك تمثالان متقابلان احدهما يمثل التنين ، وهو رمز السعادة عندهم ، والآخر يمثل العنقاء رمز الخلود . ثم اذا دخلت القصر الاول لا تلبث ان تجد نفسك في متحف ملوكي لا عهد للقياصرة والاكاسرة بمثله . وليس مرد ذلك الى الرسوم والصور المنقوشة على جدران القصر فحسب ، بل لما ازدانت به قاعاته الفسيحة من التحف النادرة . هذه غرفة النوم المصنوعة من خشب العاج الاسود والمنقوشة بنقوش دقيقة مختلفة . هي ذات نقوش مرصعة بالجاد النفيس على اختلاف الوانه تحسب ان يد الانسان لا تستطيع ان تجيد صنع امثالها . وفي الغرفة سريران متقابلان احدهما سرير الامبراطور والآخر سرير زوجته ؛ والسريران تحفتان أخريان من مفاتن هذه الغرفة . وهذه قاعة الطعام ، وما ادراك ما هي ، انها لا تقل عن غرفة النوم في مفاتنها . تتوسطها ثلاث موائد كلها من الذهب الخالص . وحولها صناديق شفافة تسبح فيها الاسماك

المتنوعة التي كانت تقدم ، على تلك الموائد ، طعاماً شهياً .
والمطبخ الصيني شهير بوفرة الالوان وكانت العادة ان يعرض على الامبراطور وزوجته مائة لون من الطعام تقريباً فيختاران منها ما يطيب لهما . وهذه غرفة العمل ، وتلك قاعة الاستقبال ، وهذه قاعة الاستراحة وتلك قاعة الانتظار ، وفي كل منها رياش وتحف حدث عنها ولا حرج .

واذا غادرت هذا القصر الى غيره من القصور اخذتك الروعة من ذلك الممر الضيق الطويل الذي يصل بينهما . وهو ممر ليس على شيء من ضخامة المباني الرومانية ، ولكنه على ضيقه وانخفاض سقفه يمتاز عليها بالرسوم والصور والنقوش والالوان والزخرف حتى تحسب نفسك ، وانت تجتازه ، انك في متحف معد للصور والرسوم .

ولا بد وانت تسير في هذا الطريق الطويل الذي يمتد عن يمينك بين الحدائق وينبسط عن شمالك الى جانب البحيرة ان تشخص بنظرك الى الرابية التي تسمى جبل وان تشو . وهناك يسترعي نظرك صرحان فخمان يقع احدهما وراء الآخر على علو متفاوت ، وهما مزدانان بالفنون الصينية الرائعة وبالالوان المشرقة . وحولهما اشجار باسقة تزيد في مهابتهما ، وكأن هذين القصرين يقول كل منهما للآخر : « **ها انذا ومن في العالم مثلي ؟** »

انهما على ربوة عالية جداً ، وفي الوصول اليهما مشقة ، ولكن جاذبيتهما تهوّن الصعاب ؛ اذن فلنقصد اليهما . وقد صعدنا سلما

ربما بلغت درجاته الثلاثمائة ، وكنا نقف بين الفينة والفينة ليس للاستراحة فحسب ، بل للتمتع بمشاهدة سائر القصور الرابضة الى جانب بعضها البعض ، ولتسريح النظر فيما هناك من مناظر خلابة تحيط بالبحيرة .

وقد طاب لي ان اسأل المرافق وقد اعيانا التعب كيف كان الامبراطرة يبلغون هذين القصرين على ما هما عليه من علو شاهق ؟ فقال : « **انهم لم يكونوا يتسنمون هذه الذرى مشياً على الاقدام ، وان نساءهن ذوات الاقدام الصغيرة لم يكن يسرن على الارض ، وانما كانوا يُحملون جميعاً على الكراسي الملكية التي رأيتموها !** » وحينئذ تمثل أمامي ذلك الزمن وكأنه جبال قليلة ، يمثل الذروة منها الامبراطرة والأمراء ، بينما ان كلا فيه وهاد يمثلها شعب بائس مستعبد .

وبلغنا القصر الأول المسمى قصر السحب والعطور : قصر بوذا فرأينا تمثال هذا الحكيم ، الذي أصبح معبوداً ، يقوم في وسط القصر على حجم كبير كما يتخيله الصينيون ، والى جانبه تمثالان على حجم الانسان العادي ، وهما تمثالا اثنين من تلامذته. والتماثيل كلها ملبسة بالذهب .

وقد خرجنا الى الرواق الكبير الذي يحيط بهذا القصر وشخصنا بانظارنا الى القصر الآخر الذي يقوم على رابية أعلى ، وراودتني نفسي بان أتوقل اليه أيضاً ، ولكني قدرت المشقة فاخترت الاكتفاء منه بمتعة النظر ، وان نهبط الى المطعم .

ومطاعم الصين الكبرى سواء أكانت في الفنادق الممتازة أم غيرها تخيرك بين الطعام الصيني وبين الاطعمة الاوروبية ، وقد طاب لنا في هذه المرة ان نتناول المأكولات الصينية الحافلة بالتوابل والبهارات . وبعد تناول الطعام دعانا مرافقنا الى نزهة في البحيرة ، وكان القارب وما فيه من مائدة حافلة بالفواكه والشراب ينتظرانا على مقربة من سفينة سين-يان-فان ، أي السفينة الحجرية . وعندما بلغنا هذه السفينة وقفنا عندها ملياً وكان لسان حالنا يقول للمرافق « **خفف السير واتئد يا حادي** . » انها تحفة تسترعي الوقوف عندها . انها سفينة من الرخام ترسو على شاطيء البحيرة ، وتمثل سفن ذلك الزمان ، ولكنها ليست كبقية السفن ، وانما هي في الواقع ، قصر ذو طابقين تلتف حوله الاروقة والاعمدة ، وكلها من الرخام المزخرف .

وما كنا نقف وحدنا أمام هذا الغندول معجبين بروعته ، بل كانت تشاركنا في هذه المتعة وفود أخرى أجنبية ، وبينها بعض الافرنسيين وعلى رأسهم نائبان من الحزب الشيوعي . ولما استقلينا القارب المعد لنا شاء أحدهما وهو نائب ووزير سابق ان يرافقنا مع زوجته فارتحنا لمرافقتهما . خصوصاً وأننا كنا قد تعرفنا اليهما من قبل ، ولمسنا فيهما اللطف والتواضع . وقد أتيح لنا ان نشاهد في هذه الجولة البحرية القصر الصيفي بحدائقه وغاباته وقصوره جملة واحدة ، وان نرى ايضاً ما وراء تلك البقعة من جبال تشبه الى حد كثير سلسلة جبال لبنان

المترامية وراء بيروت .

وإبان هذه الجولة دار بيننا وبين رفيقنا النائب الافرنسي حديث سياسي كان على أشد ما يكون من الصراحة لمست بعد نهايته ان فريقاً من الأفرنسيين يشاطروننا رأينا في صدد رعونة السياسة التي تتمشى عليها حكومات باريس المتعاقبة . فقد أخذت الحرية في ذلك الجو الطلق لأن أعرب لرفيقنا في القارب عن الألم الذى يحز في نفوس العرب من جراء مواقف فرنسا حيال القضايا العربية عامة ، وقضية الجزائر بصورة خاصة . وشجبت سياستها ، إذ تأخذ جانب اسرائيل وتعلن عداوتها للعرب فتتخلى بذلك عن صداقة سبعين مليوناً من الناس لتكسب رضاء مليونين فقط ، وهي في ذلك تمشي مع عواطفها وتتناسى مصالحها ، وتكسب العار بارتكابها اموراً في الجزائر ومظالم لا تتفق مع الانسانية ، ولا مع تقاليد الامة الافرنسية نفسها . ولما اسهبت ، مسترسلاً مع الحماس ، في شجب سياسة الافناء التي ترتكبها حكومة باريس في الجزائر دون رحمة ولا شفقة ذكّرت النائب بما كان لمثل هذه السياسة الافرنسية من العواقب الوخيمة في الفيتنام ، وذكرته ايضاً بموقف الجنرال دولاتر دوتساني قائد تلك الحملة اذ دعا الجيش الى قطع دابر ثيران الفيتنام بغية افناء اهلها بالمجاعة وقال :

« ان قتل ثور هو خير من اعدام عشرة من الفيتناميين »

ذكرته بان الحملة الافرنسية ما ان نفذت اوامر قائدها حتى قضت على قسم كبير من الناس بالمجاعة ذلك لان الثيران

هناك هي مورد البلاد الاساسي . وعلقت على ذلك بما كان لهذه السياسة من عواقب واهمها احـــلال القطيعة التامة بين الفيتنام وفرنسا ، بعد ان اضطرت للانسحاب قسراً ، بينما ان انكلترا ، التي كانت الهند بمثابة الروح لها ، تخلت عنها عندما نظرت الى العواقب ، ثم تخلت عن سواها ، وآخرهـــا غانا ، واستطاعت بهذه السياسة ان تحتفظ بصداقة مستعمراتها القديمة ، وان تحتفظ بهذه المستعمرات ضمن الكومنولث البريطاني .

وكنت اترقب ان اتلقى عقب الانتهاء من تنديدي بفرنسا جوابا لا يقل عن كلامي شدة ، ولكني لقيت من النـــائب وزوجته ما لم اكن انتظر ، رأيت النائب يصادق على كل ما اوردت ، بدلا من ان يثور عليّ ، بل يزيدني علما بما كنت اجهل من مساوىء الاستعمار الافرنسي . هذا وليس بوسعي ان اورد كلما قال النائب حبا بالاختصار ، وانمـا اكتفي بذكر بعض ما استشهد به على سياسة الافناء التي قامت وتقوم به حكومة باريس في الجزائر ـ قال « **انها تقتل الابرياء من اهل القرى تباعاً ، ثم تعمد الى احراق القرية بعد القرية اخفـاء لمعالم جرائمها . بينما انها كانت قبل الثورة تستثمر هؤلاء استثمارا لا هوادة فيه . من ذلك ما كان الرأسماليون الافرنسيون يرتكبون حيال العمال الجزائريين . انهم كانوا يؤدون لهم اجوراً لا تسمح لاحدهم بان يقتات مع عيلته الا بحبـات قليلة من التين او سواها ، هذا فضـلا عن انهم كانوا يجبرونهم على مزاولة الاعمال طوال النهار دون ان يكون**

لهم ساعات الراحة . »

وأضاف هذا الافرنسي الحر الى ما أوردته عن الفيتنام، مثالاً آخر على ما ارتكبته حكومات باريس من الفظائع في جزيرة مدغسكر : « **فقد قتلت ماية الف من اهلها ، دون شفقة ولا رحمة ، في سبيل اخفات كل صوت يرتفع فيها، مطالباً بالحرية والمساواة .** »

وانتهى الى القول : « **ان الحزب الشيوعي بفرنسا ينكر انكاراً تاماً هذه السياسة الفاشلة التي تتمسك بها باريس.** » ودلل على قوله بما قام به هذا الحزب من المعارضات في الجمعية العمومية ، ومن الاحتجاجات والمظاهرات في خارج الجمعية ضد موقف فرنسا في الجزائر .

ولما اعربت له عن سخافة مشروع موليه رئيس الوزارة وقتئذ ، الذي اقترحه لحل قضية الجزائر ، على اساس تقسيمها ، جرياً على سياسة « فرّق تسُدْ » ، وافق على رأيي وزاد عليه التنديد بحكومات باريس اذ قبلت ان تكون فرنسا جميعها منطقة نفوذ لأمريكا مذ قبلت ان تسمح لها باقامة القواعد العسكرية في طول اراضيها وعرضها .

على ان هذا الحوار الذي دار بيني وبين هذا النائب الافرنسي الذي كان وزيراً اكثر من مرة ، جاء برداً وسلاماً على قلبي المتألم ، كما جاء دليلاً على ان الانسانية لا تزال حية في قلوب كثيرين من الافرنسيين الذين يساهمون مع العالم في انكار مواقف باريس ، اذ تحاول ان تطبق في القرن العشرين

سياسة البرتغال وهولاندا الاستعمارية خلال القرن السادس عشر .

السوفييت في الصين – المعرض الزراعي الروسي

نشبت الثورة الشيوعية في الصين استناداً الى الاتحاد السوفييتي . فكان من الطبيعي ان يمدها بالعتاد والرجال والمال بينما كانت واشنطن تظاهر المارشال شان كاي شك . ولما انتصر الشيوعيون على الحكم القائم كان نصراً لموسكو على واشنطن . ولكن الاميركان شاؤا وقتئذ ان يحمّلوا شان كاي شك تبعات الفشل فحملوا عليه وألصقوا به عار الانكسار . غير انهم ظلوا من بعد يحمونه في فرموزا ، قصد ان تبقى لهم هناك قاعدة حربية ضد الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية .

ولما قامت حكومة الثورة في بكين سنة ١٩٤٩ ووضعت مشروع السنوات الخمس الأول اعتمدت في تحقيقه على موسكو وتعاقدت معها على اتفاقيات صناعية وزراعية وعلمية وانشائية وحربية على أساس الاستعانة بخبرائها وأخصائييها . كما ان روسيا تطوعت من نفسها لتجهيز الصين بمنشآت الطاقة الذرية .

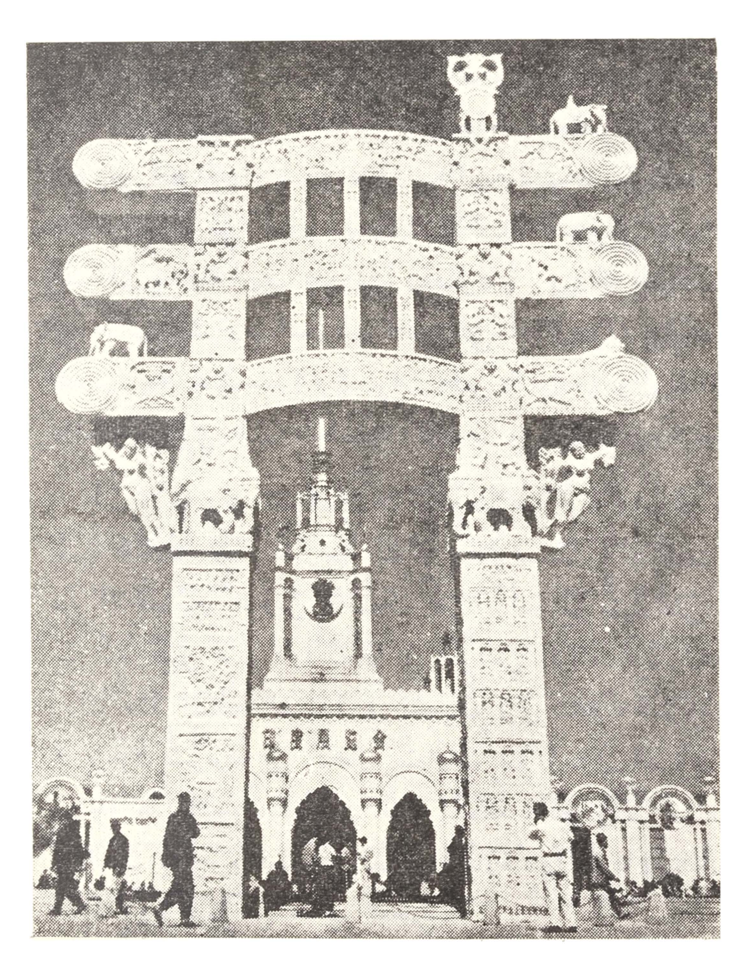
وبمقتضى هذه الاتفاقات كان للخبراء الروس الفضل الأكبر في تحقيق ١٥٦ مشروعاً وضعتها بكين تحت التنفيذ خلال المدة المحددة لذلك المشروع . فقد أوفدت موسكو الى الصين عدداً كبيراً من الاخصائيين في كل الحقول . في الصناعة والزراعة والري والتحريج والخطوط الحديدية والبريد والبرق

والتعدين والتربية والصحة فضلاً عن الشؤون الحربية ، فكان لهؤلاء الخبراء أيادٍ مشكورة في بناء الصين الحديثة . كما ان روسيا استقبلت في معاهدها ومصانعها ومزارعها ومناجمها وبمعسكراتها فريقاً كبيراً من طلبة الصين الذين أصبحوا ، فيما بعد ، القائمين على تحقيق هذا البناء ، والى هذا فقد أمدت موسكو الصين بالقروض بفوائد قليلة ، وباعتها المعدات باثمان رخيصة ، كما حملت الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي على ان تخف الى معاونة الصين بخبرائها ، وبمصنوعاتها . ولذلك فان الصين التي حققت مشروع السنوات الخمس على أتم وجه ، وشرعت منذ ١٩٥٨ تحقق مشروع السنوات الخمس التالي ما تزال تذكر للاتحاد السوفييتي جميله وتتحدث بما أداه لها من المعاونات المختلفة.

أما الآن وقد أتيح للصين ان تتمتع بالاستقرار ، وان تجد في نفسها الكفاءة للقيام بمشاريعها المختلفة ، فقد استغنت ، أو كادت ، عن الاخصائيين الروس فانسحب هؤلاء تدريجياً منها حتى لم يبق إلا قليل منهم ، وأكثرهم في النواحي الاقتصادية . واذا زرت مثلاً المنطقة الصناعية في تشينيان ترى الخبراء السوفييت لا يزالون يشرفون على الأعمال متعاونين مع زملائهم الصينيين . ونتيجة لهذا التعاون أصبحت تلك المنطقة اكبر وسط صناعي في الصين بما يقوم فيها من المصانع الجبارة ، واكثرها للصناعات الثقيلة ، وبما فيها من مناجم للفحم .

ومدينة شينيان التي كانت تسمى موكدن في منشوريا تقع

منطقتها على مقربة من تخوم كوريا ، وفيهـــا أكبر عدد من المسلمين .



(واجهة المعرض الزراعي السوفييتي في بكين)

غير ان روسيا شاءت قبل الانكماش تدريجياً عن الصين ان تترك في بعض أمهات مدنها تذكارات لصداقتها ، فأنشأت في كل من بكين وشنغاي صرحاً كبيراً جميلاً يقوم على أساس الفن الروسي وعلى غرار ما تبنيه في بلادها من هذه الصروح الشامخة التي تعبر عن عظمتها وتعرب عن جمال فنها ، وأهدت الى الصين هذين الصرحين ، ولا ندري اذا كانت روسيا قد بنت مثلهما في مدن أخرى من الصين .

وقد زرنا صرح بكين المسمى المعرض الروسي ، كما زرنا من بعد صرح شنغاي ؛ وكنا كلما رأينا البرج القائم عند واجهة الصرح والسهم الذي يرتفع فوقه وعلى رأسه النجمة الحمراء رمز الثورة ، وكلما شاهدنا المنائر ترتفع حوله نذكر موسكو ولينينغراد وغيرهما حيث كنا نشاهد كثيراً من أمثال هذه الصروح ، ونقدر للروس هذا الفن الجميل .

وكان المعرض السوفييتي في بكين يوم زرناه في ٢٢ ايلول ١٩٥٧ معداً لعرض مصنوعات الهند سواء منها الثقيلة والخفيفة . فكان إعجابنا بهذه المعروضات لا يقل عن إعجابنا ببناء المعرض نفسه وبحدائقه الواسعة .

هذا وقد كنت قبل زيارة الصين أتوهم بأن شأن روسيا فيها لا يختلف عن شأنها في سائر الدول الاوروبية التي تدور في فلكها من حيث الاحتلال المستتر ، ولكني لم ألبث ان رأيت الصين على غير ما كنت أتوهم : انها وان اعتنقت المباديء الشيوعية واستمرت تحفظ لموسكو العرفان بالجميل ، ألا أنها ،

في الواقع ، احتفظت باستقلالها التام وبحريتها الكاملة . وهي وان وحدت بينها وبين موسكو في الاتجاه السياسي الا ان هذه الوحدة غير قسرية وانما تنبثق من المصلحة وترجع الى ما بينهما من وحدة في المبادىء .

وعلاوة على ذلك فقد علمت ان الصينيين ، وان كانوا حريصين على مبادىء ماركس وانجلس ولينين ألا ان كلمة الشيوعية ليست محببة الى قلوب اكثرهم ، وانما أحب اليهم ان يوصفوا بالاشتراكية .

التمثيل في الصين – فرق الجيش ترفه عن الشعب

الشعب الصيني مفطور على حب الفنون الجميلة حبهم للأزهار حتى سميت بلادهم بلاد الأزهار ؛ وذلك ما تعبر عنه النقوش والصور والرسوم التي تجدها على قصورهم ومنسوجاتهم ، وما يدل عليه رقي فن الرقص عندهم والغناء والتمثيل ، ولا سيما الأوبرا .

وقد دعينا لزيارة تمثيلية في مسرح تيانس شاس عشية يوم وصولنا . وهي زيارة وان استرعت إعجابنا وأضفت علينا كثيرا من الابتهاج ، الا ان أمراً آخر حملنا على الوقوف عندها والتنويه بها . ذلك أننا علمنا ان جوقة التمثيل ، بما فيها من فنانات جميلات ، وممثلين بارعين ، كانت تتألف من افراد الجيش . وانها مع جوقات أخريات من نوعها ، لا تقتصر على

الترفيه عن الجيش فحسب ، بل تعنى بالترفيه عن الشعب ايضاً. وذلك لقاء أجور رخيصة .

وشيء آخر استرعى انتباهنا : فقد كان الممثلون ذكوراً واناثاً يبدون صغاراً في أعمارهم كما يبدون صغاراً في أجسامهم حتى تحسبهم لا يتجاوزون سن المراهقة . وكدت لا اصدق حينما علمت ان عمر الواحد منهم لا يقل عن ٢٢ سنة .

والواقع ان الصينيين ، على الاجمال ، لا يبدو على ملامحهم التقدم في السن . وقد لاحظت هذا الأمر مذ هبطنا في مطار بكين . فقد كان في عداد الوفد الذي جاء لاستقبالنا سكرتير عام جمعية العلماء ، ويدعى فاه ـ شين ـ شاي . وكنا نحسب ان عمره لا يتجاوز الخمسين ، ولكننا لم نلبث ان علمنا انه أدرك الخامسة والثمانين ، مما أثار الاستغراب .

ولعل الصينيين أنفسهم لا يقعون في مثل هـذا الألتباس في تقدير أعمار بعضهم البعض وفي التمييز بين أفرادهم مثلنـا نحن الغرباء .

القصر الملـكي – معالم البداوة في هندسة القصور

على مقربة من فندق بكين الكبير كنا نشاهد في ذهابنا وأيابنا مدخلاً فخماً لبقعة مسورة ترتفع بين حدائقهـــا وحول بحيراتها وانهارها قصور بديعة قيل لنا انها القصر الملـكي ، وان ذلك المدخل الذي هو قصر في حد ذاته يسمى تين ـ آن ـ من

أي بوابة الأمن السماوي . وربما كان الصينيون القدماء أشد الشرقيين تعلقا بالانتساب الى السماويات والألهيات إذ تجد كثيراً من أسماء الاماكنة عندهم تأخذ أسماءها .

ولقد ابتنى قسماً من القصر الملكي أحد أمبراطرة إسرة منغ في سنة ١٤١٧ ، ثم أكمل عمرانه تباعاً بعض أمبراطرة إسرة شنغ في سنتي ١٥٥٧ و ١٦٤٥ م . وقد أصبح الآن متحفاً تاريخياً ، ومتنزهاً للشعب ، كما أصبح مدخله المكان المفضل عند الحكومة لاقامة بعض حفلاتها الرسمية الكبرى .

زرنا هذا القصر وما كدنا نجتاز مدخله حتى استقبلنا مدينة ذات جملة صروح . في القلب منها قصور تصطف وراء بعضها البعض ، وفي الجناحين قصور أخرى متلاصقة هي دون قصور القلب فخامة ، ودون مستواها علواً . وكانت معدة لحرم الامبراطور ووصيفاته وحاشيته . وبين هذا وذاك أروقة رخامية تلتف حول القصور ، وفسحات تنخفض عنها تتوسطها سلالم عريضة رخامية مزركشة يصعد بها الى أروقة القصور .

ومثلما أن السلالم حافلة بنقوش التنين ، وهو رمز الامبراطورية ، فان الساحات مليئة بتماثيل مختلفة الاشكال : فهذا على صورة طير ، وهذا على شكل حيوان من أصحاب القوائم ، وذاك على صورة بعض الزحافات ، وكثير منها مجوف كان معداً كمباخر لتعطير الاجواء .

وانك لتعجب اذا زرت هذا القصر أم غيره كيف انهم كانوا يحتاطون للحرائق ، وكيف انهم كانوا يعنون بتكييف

أجواء القصور . ذلك انك تجد حول ساحاتها قدراً كبيرة جداً ملبسة بالذهب معدة لخزن المياه للاستعانة بها اذا شب حريق، كما أنك تجـد في الأروقة التي تحيط بالقصور فجوات مغلقة تنفذ الى أقبية تحت القصور كانت معدة لتكييف الهواء .

واذا قدر لك ان تزور القصر الملـكي أم غيره من قصور الامبراطرة والمعابد تأخذك الروعة لما تشاهد في كل منها من نقوش بديعة ورسوم وصور وتماثيل . ويستولي عليك الاعجاب لما تراه حولها من أروقة وساحات كلها من الرخام المنقوش . هذا فضلًا عما يكتنفها من الحـدائق والاحراج التي تزدان بالبحيرات وبالجداول . ولكنك في الواقع لا تجد في هـذه القصور ما تجده في غيرها من فن معماري، ولا من ضخامـة شأن القصور الملكية في أوروبا وكاتدرائياتها ، وشأن قصر الحمراء في الاندلس وسواه من الآثار العربية .

أجل فانك اذا استثنيت ما في الصروح الصينية من زينة خارجية وداخلية كلها نفيس فانك تجد من بعد هندسة بنيانها لا تتعدى شكل الخيمة الكبرى التي كانت تعد للأمراء في عهد البداوة : فلقد كانت في العهد البدائي خيمة من النسيج الفاخر يزدان داخلها بالزخارف وتقوم على أعمدة من الخشب ، وأصبحت في عهد امبراطرة الصين قصوراً مبنية بالقرميد وقائمة على أعمدة ضخمة من الخشب الصلد ، وهي مكسوة بالألوان الجميلة ومزدانة بالرسوم والصور . على أنها لا تختلف كثيراً في هندستها عن الخيم إلا بما يعلوها من قباب مختلفة الاشكال ، ومتعددة الطبقات .

كان أمبراطرة الصين ، الذين هم بمثـــابة الآلهة أم انصاف الآلهة يرون من حقهم ان يؤمنوا لأنفسهم كلمـــا يؤدي الى راحة نفوسهم لذلك لم يكتفوا بواحد أو اثنين من القصور . وكان من الطبيعي ان يكون لهم قصر للاشتاء ، مثلما كان لهم قصر للاصطياف بينما كان أكثر الشعب من شدة الفقر والاملاق لا يجـــد له مساكن إلا على القوارب والاخشاب الطافية على الأنهر .

أما الآن فالقصور أصبحت مفتحة الابواب للشعب . فلمـا زرنا القصر الشتوي ، الذي يمتاز بحدائقه الواسعة وغاباته الباسقة وبحيراته الفسيحة ويرفل بزينته الفتانة ، رأينا الناس منتثرين في كل مكان كالفراش ، ورأينا بعضهم يركبون الزوارق التي تملأ بحيرته الواسعة .

وكأن القصر الشتوي بالاضافة الى انه أعد مسكناً للامبراطرة كان ايضاً داراً من دور العبادة . ذلك إنا ما ان دخلنـــا الصرح الأول حتى رأينا صنم بوذا يتصدره . ورأينـــا على جدرانه صوراً كبيرة تمثل حرس هـذا المعبود ومنشديه . ثم شاهدنا في الصرح الثاني ، بعد اجتياز الجسر الرخامي الكبير ، تلميذ بوذا ، وعن يمينه تماثيل عشرة رجـال وثلاث نساء من أعوانه ، وبمقدار ذلك من التماثيل عن يساره . ووراء هـــذا الصرح رابية عالية مشجرة يصعد اليها بسلالم يرتفع على ذروتها

قصر آخر قيـــل لي انه مدفن لبعض الامبراطرة . ثم اذا هبطت من هذه الربوة هبطت الى غـابات وحدائق تحيـــط بالبحيرة الواسعة ، ووجدت نفسك أمام ممر طويل مسقوف مزدان بالرسوم والصور ، يؤدي بك الى قصور أخرى تشرف على البحيرة وبعضها يحازي السابلة ، وبعضها يقوم على رواب أخريات بين الاحراج على شكل أولمبي . وكلها معـــد لحرم الامبراطور وحاشيته .

النهضة العلمية في عصري محمد وماوتسي تونغ

كان يعاصر نبينا محمداً امبراطور عظيم من أسرة تنـــغ احدى الأسر التي تعاقبت على حكم الصين منذ سنة ٦١٨ الى سنة ٩٠٧ م. ، وكان هذا الامبراطور الذي يدعى ته-تسونغ من اعظم اباطرة الصين الذين أعادوا اليها مكانتها الدولية ، ومنزلتها العمرانية . وقد اشتهر في عصره حتى بلغت أخباره جزيرة العرب . ذلك ان انباء العالم كانت تنتقل ، في ذلك العصر ، من قطر الى قطر بواسطة التجار من رواد الأمصار والبحار . ولما انتشر مبشرو المذهب النسطوري في الصين منذ سنة ٦٣٦ م. ، وهم من الشرق الأدنى ، توفرت أنباء الصين في بلادهم ، وازدادت انتشاراً . وكان اهل مكة والمدينـــة وصنعاء من اكثر الناس في الجزيرة علماً بهذه الأنباء . فبلاد اليمن كانت همزة الوصل ما بين الشرق والغرب ، واهل مكة

والمدينة كانوا، برحلاتهم الشتوية الى اليمن، كما كانوا برحلاتهم الصيفية الى بلاد الشام، التابعة للامبراطورية البيزنطية، يحيطون علماً بأخبار الشرق والغرب.

وكان محمد النبي العربي، الذي سافر، قبل الرسالة، بتجارة الى الشام، في مقدمة الذين سمعوا أنباء الصين ونهضتها، وانتشار العلوم فيها. لذلك فما ان تعرض لقومه ودعاهم الى طلب العلم، حتى تطرّق للصين، وقال: «**اطلبوا العلم ولو في الصين**». والواقع ان النبي لم يكن يريد بذلك الاشارة الى الابعاد فحسب، وانما خص الصين بالذكر لما اشتهرت به، في ذاك العصر، من علم منتشر، وثقافة عالية.

ولما سافر وهاب بن رعشة، وهو من اصحاب الرسول، الى الصين، كما سنذكره فيما بعد، للتبشير بالاسلام، أعجب كل الاعجاب بما رآه من رقيها، ومن ارتفاع مستوى العلم فيها.

وخلف، بعد ذلك، خلف في الصين مُنوا بأحداث سياسية جعلت الصين تفور حيناً، ثم تغور حيناً آخر. وظلت كذلك الى ان تفاقم شر الاستعمار، فاذا بالصين تنكمش على نفسها في عهد التمدن الحديث خوفاً من الاستعمار الذي رافقه، واذا بها تكتفي بما لديها من تراث قديم، بينما ان العالم كان يخطو خطوات واسعة في ميادين التقدم، بسرعة البخار والكهرباء.

بيد ان هذا الانكماش لم يكن طبيعياً، فضلاً عن انه

لا يتفق مع مطامع اوروبا الاستعمارية ، فاذا بدول الاستعمار – في منتصف القرن التاسع عشر – تنتحل شتى الاسباب لفتح أبواب الصين ، وتشن عليها الغزوة اثر الغزوة .

وقد كان لهذه الغزوات المتعاقبة على الصين نتائج ايجابية ، ذلك لأن الاختلاط الذي وقع ، من بعد ، بين الأوروبيين وبين اهل الصين ، حكومة وشعباً ، فتح عيون هؤلاء وحملهم على التحسس بالنهضة العالمية ؛ فشرعوا ينشئون المدارس ، ويوفدون بعض اولادهم الى المعاهد الأجنبية في أوروبا وغيرها . هذا فضلاً عن انشائهم جامعة بكين سنة ١٨٩٨ .

ولكن البعث الصيني ظل ، مع ذلك ، يمشي على عرج لما كان يعترضه من صعوبات ، وكان من اهمها في الناحية العلمية اللغة الصينية نفسها التي كانت تحول دون ترجمة الكتب النافعة ، فهي لغة معقدة وذات احرف كثيرة العدد ، هذا فضلاً عن كثرة انواعها . لذلك فقد استمر مستوى الثقافة في الصين منحطاً ، الى عهد غير بعيد ، حتى لم يكن فيها قبل عهد التحرر ، اكثر من اثنين في المئة متعلمين تعليماً عاليا ، واكثر من خمسة في المئة متعلمين تعليماً وسطا ، واكثر من عشرين في المئة متعلمين تعليماً ابتدائيا ، بينما ان الأمية كانت منتشرة بمقدار ٧٥ في المئة بين الرجال ، واكثر من ذلك بين النساء .

غير ان حكومة الثورة ما ان استتب لها الامر حتى صرفت عناية كبرى لسد هذا الفراغ ، فأنشأت المدارس في

كل الانحاء وزودت بها التعاونيات ، وأقامت المعاهد العلمية العالية في أمهات المدن ، ولا سيما في العاصمة حيث خصت جامعة بكين بعنايتها ، وأوفدت البعثات العلمية الى المعاهد والجامعات الاجنبية ، وبصورة خاصة الى الاتحاد السوفييتي .

وكانت عنايتها في الناحية العلمية تنصرف الى تخريج الاخصائيين في العلوم العملية كالتعدين والبترول والميكانيك على اختلاف أنواعه حتى اذا أكمل هؤلاء علومهم في جامعة بكين أو غيرها ، بذلوا معاونات مفيدة لبلادهم في تحقيق مشروع السنوات الخمس الأول .

جامعة بكين

كان كل من ماوتسيتونغ (رئيس الجمهورية الآن) ولي تاجاو (احد مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني) ولوشين (الكاتب المشهور) استاذاً في جامعة بكين قبل الثورة . وكان لوجودهم فيها أثر بالغ في نشوب ثورة عام ١٩١٩ التي كانت بمثابة النواة للثورة الاشتراكية الكبرى ، كما كان لهؤلاء الأقطاب اليد الطولى في انتصار هذه الثورة سنة ١٩٤٩ .

لقد أنشئت جامعة بكين في عام ١٨٩٨ ، وكانت تتألف من معاهد للعلوم والآداب فحسب . غير ان حكومة الثورة التي خفت عام ١٩٥٢ الى القيام بحركة اصلاحات مدرسية واسعة ، خصت الجامعة بعنايتها . وأعدت فيها معاهد لتخريج

اخصائيين في العلوم الطبيعية والاجتماعية بالاضافة الى العلوم النظرية بغية ان تكل اليهم دراسة البحوث العلمية والتربوية ، والتعليم والتدريس ، وقصد ان تعتمد عليهم في نهضتها الصناعية .

وبفضل هذه العناية أصبحت الجامعة تتألف الآن من ١٤ كلية : (١) الرياضيات والميكانيك (٢) الطبيعيات (٣) الكيميا (٤) الاحياء (٥) الجيولوجيا والجغرافيا (٦) التاريخ (٧) اللغة الصينية وآدابها (٨) اللغة الروسية وآدابها (٩) اللغات الشرقية (١٠) اللغات الغربية وآدابها (١١) الفلسفة (١٢) الاقتصاد (١٣) الحقوق (١٤) كلية تقسم الى قسمين : قسم للتخصص في شؤون المكتبات ، وقسم لتخصص الاجانب في اللغة الصينية . هذا فضلاً عن ٤٩ مختبراً ومكتبة تضم مليوناً وثماناية الف مجلد . ويبلغ عدد المعلمين والمعلمات في الجامعة ١٢٩٦ استاذاً ، وعدد الطلاب ٧٧٥٥ طالباً . بينهم ٢١٠٥ من الاناث ، وبينهم ٣١٩ تلميذاً وتلميذة يتلقون العلوم العالية . وتبلغ مساحة البناء في الجامعة ١٣٥ الف متر مربع ، وكلها مبانٍ جميلة ، ويزيد في جمالها تلك الحدائق الكثيرة ذات البحيرات الواسعة والاشجار الباسقة والطرق المعبدة .

وتأخذ الحكومة على عاتقها المرتبات المدرسية ونفقات السكن والعلاج بحيث يصبح التعليم في الجامعة مجانا ، وهي علاوة على ذلك تمنح فقراء الطلبة أعانات اضافية لتأمين طعامهم . كما تأخذ الحكومة على عاتقها تأمين الاعمال للمتخرجين من

الجامعة وغيرها ، الاعمال التي تتفق مع تحصيلهم ومع أميالهم .

هذا ولما جئت لزيارة الجامعة رأيت حولها (ورشة) عمران ضخمة تتصاعد من مبانيها مداخن شامخة ، كأنها لكثرتها مداخن مدينة صناعية ، ولكني لم ألبث ان علمت بسرور ان تلك المنشآت الحديثة انما هي مبانٍ لمعاهد أضافية لفروع العلوم العملية كالتعدين والهندسة الميكانيكية والتكنيكية ، والكهرباء والمناجم وللاعمال الزراعية والصناعية .

فلم يسعني وقد شاهدت ما شاهدت إلا ان أهنىء الصين باعجاب على نهضتها هذه التي أخرجتها من حيز العلوم البدائية الى نطاق العلوم المادية المجدية .

كلية اللغات الشرقية — بلادي بلادي فداكِ دمي

كم كان سروري عظيماً حينما زرت هذه الكلية ، ولا سيما القسم العربي منها ؟ هذا محمد مكين مدير هذا الفرع وخريج الأزهر يخف الى استقبالنا بوجه باسم مع رهط من تلامذته فتياناً وفتيات . وها هم يلتفون حولنا ، واللغة تجمعنا ، التفاف الاهل بالاهل والبشر بادٍ على كل وجه . فقدرت حينئذ مقدار ما للغة من تأثير على القلوب ، وكم لها من أواصر تربط بين المتكلمين بها مهما شط المزار بينهم . وكان اغتباطي أوفى حينما كانوا يتنادون باسماء عربية .

ماذا اسمع ؟ أكلهم مسلمون حتى استساغوا التسمية بالاسماء العربية ؟

كلا ، بل ان الكلية حببت اليهم ان يختاروا هذه الاسماء التي تتفق بالمعنى مع أسمائهم الصينية ، سواء أكانوا من المسلمين أم غير المسلمين . فرحى لهذه البادرة الطيبة .

ولما توسطنا قاعة الاستقبال محفوفين بهذا الموكب الاخوي المؤلف من الاساتذة والتلامذة التففنا حول منضـدة كبرى ، وشرع محمد مكين يزودنا بالمعلومات عن كليته الشرقية . انها تضم نحو ٣٠٠ طالب وطالبة يتعلم كل منهم لغـة من اللغات الشرقية . وهي الفارسية والهندية والبورمية والفيتنامية والتايلاندية والاندونوسية واليابانية والكورية والمغولية والعربية . ولكن طلاب صفوف اللغة العربية هم أوفر عدداً من كل صف آخر ، اذ يبلغ عددهم ثمانين طالباً .

ولما خرجنا للتطواف في قاعات الكليـــة ، وفي حديقتها لم يرافقنا محمد مكين وحده بل كان طلاب القسم العربي فيها ، فتيات وولدانا ، يلتفون حولنا فرحين هازجـــين حتى طغى علينا هذا المظهر فأصبحنا ، وقد غمرتنـا موجة السرور ، نهتف مثلهم ونركض ركضهم كأنا عدنا الى سن المراهقة .

وكان هؤلاء الطلاب والطالبات يطربوننا ، ونحن في الحديقة ، باناشيدهم العربية . وانشدوا فيما أنشدوا « بـلادي بلادي فداك دمي » فشعرت ، وأنا بالصين ، كأن بلادي اتسعت حتى شملت بكين ، ورحت أنشد معهم .

وكم سرني ، ونحن في مكتبة الكلية ، ان أراها حافلة بالكتب العربية ، وبينها بعض مؤلفاتي . وقد شاء محمد مكين ان يثني ، من قبيل المجاملة ، على كتابي بجزأيه « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » واستجازني لترجمته مختصراً الى اللغة الصينية . فأجزته شاكراً .

ولما أزف موعد الوداع وسرنا الى السيارة محفوفين بالمدير وطلابه شعرت بوحشة كان مردها الى اني كنت أفارق بقعة كأنها جزء من بلادي .

معهد الاقليات في جامعة بكين ـ مراعاة الاديان والعناصر

الصين آهلة بعناصر متعددة وقوميات يناهز عددها الاربعين وقد ضمن الدستور الصيني في مادتيه ٧١ و ٧٢ لهذه الاقليات الاستقلال الذاتي وحقها في استعمال لغاتها .

وعلاوة على ذلك فان حكومة بكين أنشأت منذ ست سنوات في جامعة بكين قسماً خاصاً بهذه الأقليات يضم الآن ١٦٠٠ طالب من ١٤ قومية ، وبينهم ٥٠٣ من الاناث .

وهذا المعهد يقسم الى أربعة فروع ودار للحضانة .

الفرع الاول : لتعليم الطلاب لغة الدولة واعداد الاساتذة منهم والموظفين في بـــلادهم . ويقول مدير المعهد ان بعض المتخرجات أسند اليهن وظائف في القضاء وغيره .

الفرع الثاني : لتعليم كل فئة من التلامذة بلغتها القومية ، وإعدادها للتدريس بهذه اللغات في بلادها . ولما كان كثير من هذه الاقليات ليس له لغة مكتوبة ، فالفرع يعنى بايجـــاد أحرف هؤلاء لتصبح لغتهم مقروءة .

الفرع الثالث : هو فرع اعدادي لتعليم الآداب والعـلوم يعدّ الطلبة لدخول الكليات على مختلف انواعها .

الفرع الرابع : للدراسات العلمية ، وفيه يعلم التاريخ ، ولا سيما تاريخ القوميات .

وجدير بالتنويه ان معهد الاقليات يراعي أديان طـــلابه وتقاليدهم الخاصة . لذلك فقد أعد لـكل من هـذه الاقليات معبداً يتفق مع عقيدته وطقوسه بينها مسجد للمسلمين ، كما انه أعد لـكل منها مطبخاً يجهز الاطعمة وفقـــاً لعادات كل من هذه الاقليات ، على ما ينسجم مع ذوقه .

وفي هذا المعهد قاعات واسعة للمطالعة حافـلة بالكتب والمجلات ، وبينها بعض المطبوعات العربيـــة ، كما فيه متحف تعرض في قاعاته أثواب الاقليات وحلاها . فترى فيه ملابس الجلد أو الفرو ، كما تشاهد فيه المجوهرات المزدانة بالاحجـار الثمينة ، أو المصنوعة من العاج والجاد .

أما حمّام المعهد فجدير بالذكر أيضاً لأنه فضلًا عن اناقته يتسع لسبعين مستحماً في وقت واحـد .

يقول المثل السائر «الحاجة أم الاختراع» . وبلاد واسعة شاسعة كالصين ، كثيفة السكان كانت ولا تزال في حاجة ماسة للطب والطبابة والعلاج . لذلك فان الطب عند قدماء الصينيين كان يحتل مكاناً رفيعاً ، ولهم فيه أساليب وطرق خاصة عرفت بهم ، وعرفوا بها . ورغم ما انتاب الصين من تطورات متباينة أرجحتهم بين الصعود والهبوط فان الطبابة الصينية ظلت ثابتة في مكانها ، وظلت شهيرة في وسائلها . وهي وان كانت ذات طابع خاص فلم تستنكف الاقتباس عن الآخرين ، والافادة من اختباراتهم . فترجم الصينيون القدماء بعض نظريات الامم الاجنبية وعلى رأسها كتب ابن سينا ، التي اعتمدوا عليها الى وقت قريب إسوة بالامم الاوروبية . وعربوناً على تقديرهم لهذا الفيلسوف أقاموا قبل سنوات حفلة كبرى في بكين لمناسبة مرور الف عام على وفاته .

بيد ان الصينيين وان منوا خلال انكماشهم على أنفسهم بانحدار مستواهم العام ألا أنهم حافظوا ، مع ذلك ، على أساليب طبابتهم القديمة وفنونهم فيها ، كما انهم لما أكرهوا على فتح أبواب بلادهم للتيار الأوروبي ، وشرعوا بالتالي يقتبسون العلوم العصرية وآدابها لم يتخلوا ، كما فعل أهل الشرق الأدنى ، عن طبهم القديم . بل ان الحكومة الحاضرة لا تزال تعترف به ، وتمنح شهادات رسمية للذين يمارسونه . وهو يعتمد أحياناً على

أبر تغز في جسم المريض فتأتي بالنتائج الحسنة . وقد سمعت إطراء على هـذا الطب من بعض المثقفين الصينيين . وعلمت منهم ايضاً ان حكومة موسكو ، اعترافاً منها بفوائـده ، أوفدت الى الصين بعثة من الاطبـاء بغية دراسة أسراره على أمل الاستفادة منه في الطبابة الحديثة .

وقد كان هذا النبأ حافزاً لي على افتقاد الطبابة العربيـة القديمة التي لا نزال نتندر بالأمثلة على نتائجهـا الطيبة . فقلت بنفسي ما أجدرنا ان نقتدي بالروس . ولكن أنَّى لنا ذلك ؟ وأنَّى لنا ان نؤلف لجنة طبية تدرس البقايا من طبنا القديم علنا نستفيد منها ودولنا لا تزال تتقاذفهـا امواج السياسة وتبعدها عن مواطن التفكير في غير الاستقرار ؟

هذا ولما استقرت الأمور لحكومـة الثورة في الصين لم تكتف بما عندها من طب قديم وشيء من الحديث ، بل أعارت المزيد من الاهتمام الى النواحي الصحيـة فأقبلت على اقتباس الطب الحديث ، وأنشأت المدارس له ، وأوفـدت البعثات الى امريكا وأوروبا . وشرعت من ثم باعداد المستشفيات الحديثة المجهزة بأفضل المعدات ، وبانشاء المصحات فقضت على الأوبئـة التي كانت تحصد أهل الشرق حصداً بين الفينة والفينة ، كالهواء الاصفر والطاعون والجدري .

ومنذ سنة ١٩٥١ نهجت الصين نهج الاتحاد السوفييتي في تأمين الضمان الاجتماعي للعمال في الناحية الصحية تدريجيـاً ومجانياً ، ولم تأت سنة ١٩٥٢ إلا وأصبح عـدد الذين يستفيدون من

هذا النظام ٩٦ مليون نسمة ، ثم طبقت هذا الضمان على الطلاب وغيرهم ، ولم تأت سنة ١٩٥٧ حتى كانت مستشفياتها المجانية ومصحاتها موجودة في كل مكان ، ومشرعة الابواب لجميع الشعب. وقد رغب الي أحد الرفقاء أن أزور المستشفى في بكين لاجراء فحص عام ، فلقيت هذه الدعوة هوى في نفسي . فاذا بي أدخل مستشفى فخم البناء متعدد الطبقات مجهزاً بأحدث المعدات والمختبرات . وهو مستشفى كانت أنشأته مؤسسة روكفلر عهد الاميركان بالصين ، وأصبح بعد الثورة مؤسسة حكومية ، أو بكلمة أصح اصبح مؤسسة للشعب يعالج فيها مرضاه مجاناً .

وكان اعجابي بالطبيبة التي فحصتني أشد منه بالمستشفى وما حوى ، وما ذلك لجمالها وانما لما رأيت من قبلها من شدة العناية . فقد تناول فحصها وزني وطولي وصدري وقلبي ومعدتي وضغطي ، فضلاً عن الفضلات مما لم أعهده في مستشفى آخر .

وطفت في المستشفى حين زرته مرة أخرى قصد التعرف الى المزيد من أحواله . فرأيت الناس يدخلونه أفواجاً أفواجاً . وعقب ان يتناول المريض بطاقة يُدون عليها اسمه وبعض المعلومات عنه وعن مرضه يُوجه الى الطبيب الأخصائي . وقد دخلت احدى قاعات المعالجات فاذا هي قاعة طويلة عريضة يمتد في وسطها خط مستقيم تصطف الغرف على جانبيه ازواجاً أزواجاً . وفي كل منها طبيب مزود بخير المعدات . واذا احتاج الطبيب الى تصوير المريض بالأشعة ، أو الى تحليل دمه أو فضلاته حوّله الى أطباء آخرين من ذوي الاختصاص ، يفحصون

حالا ما شاء المداوي ان يفحص ، ثم يعيدون المريض اليه فيصف له العلاج . والدواء جاهز للمرضى بالمجان في ناحية أخرى من المستشفى . فهناك عند المدخل شباك عريض يقف وراءه موظفون مهمتهم تناول الوصفات وتقديمها الى دار الصيدلة الملاصقة ، فاذا بالدواء جاهز بعد قليل ، واذا بالموظف يعلن اسم المريض فيتقدم الى تناول علاجه وينصرف دون عناء .

وكأني بالصين قد استكملت الآن اسباب العناية الصحية بشعبها أو كادت إذ انصرفت الى ما هو من قبيل الكماليات بالنسبة لها ، وأعني بذلك تطبيب الأجانب . ففي ضاحية بكين مستشفى أنشيء سنة ١٩٥٤ في بقعة من الارض تبلغ مساحتها ٢٠٢٠ متراً تقريباً . وهو مستشفى الطلاب الاسيويين والافريقيين ، ومصح للمصدورين والمسلولين .

وهذا المستشفى الذي يتسع لثلاثمئة سرير تجد فيه بالاضافة الى الطلاب الصينيين زملاء لهم من الهند واندونيسيا ونيبال والافغان والعراق وباكستان . وقد أعد لهم ثلاثة مطابخ صيني وأوروبي واسلامي لا يدخل اليه لحم الخنزير والخمور . والمستشفى مجهز بكل وسائل الترفيه بالاضافة الى المعدات الحديثة والمختبرات الطبية : مكتبة تضم ثلاثة آلاف كتاب ، وقاعات المطالعة ، وجوقة موسيقية ، وملاعب للرياضة ، وغيرها .

أما نفقات هذا المصح فهي موزعة بين جمعية الطلاب الصينية وبين الحكومة . فعلى الجمعية ثلث النفقات ، وعلى الحكومة

الثلثان . وتقدر موازنة المصح السنوية بـ ٦٠٠ الف ين ، أي ما يعادل ٨٠٠ الف ليرة لبنانية .

السور الكبير - سدّ يأجوج ومأجوج

أيام كانت البداوة تهدد الحضارة دائما بالغزو ، كانت القبائل البربرية التي تنزل في شمالي الصين وغربيها مدعاة قلق وازعاج لأهلها . ففكر الامبراطور شي - هنغ - تي من اسرة تسين ، الذي كان يحكم الصين خلال اعوام ٢٤٠ - ٢١٠ قبل الميلاد ، فكر في إقامة سد يحد من خطر المنشوريين والتتر . وقد وجدت هذه الفكرة تجاوباً عند قومه وتشجيعاً . وتحقيقاً لذلك ساق الامبراطور ، في حدود عام ٢٥٠ ق.م. عدداً من الجيش يقدر بثلاثة آلاف لبناء ذلك السد فوق الجبال التي تفصل بين الصين وصحراء كوبي الشهيرة باتساعها ، وعززهم بعدد كبير من السجناء والمحكومين بالاعدام أو الاعمال الشاقة . وتمويلا للمشروع استعان بالشعب وبهباته ، وضرب الضرائب الاضافية .

فكان هذا السد بمثابة نواة السد الكبير الذي يعتبر من عجائب العالم . غير ان هذا السور لم يقوَ ، فيما بعد ، على دفع غارات المغول ، بل ان جنكيز خان الذي أنشأ أمبراطورية امتدت من بحر اليابان الى اوروبا الشرقية تعداه الى الصين . كما ان ولده كوبيلاي اخترقه ودخل الصين ونقل عاصمته من

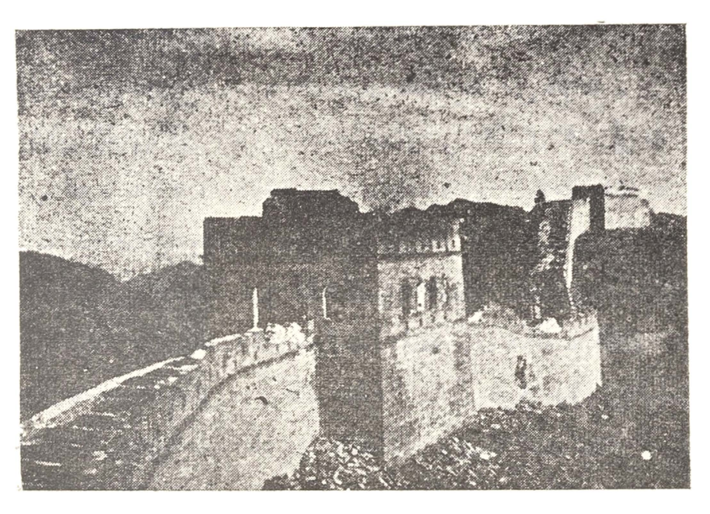
قره كوروم في منغوليا الى بكين . ولما قامت امرة منغ في الصين ، ابتداء من سنة ١٣٦٨ الى ١٦٤٤ ، وذلك على انقاض الاسرة المغولية ، شاء أمبراطورها الأول هنغ - وي ان يستهل حكمه بتفادي خطر المغول مرة أخرى فأجلى بقاياهم من الصين وخف الى انشاء سد آخر . وكانت الصين وقتئـــذ مجزأة الى ممالك متعددة ، وظلت كذلك الى عهد أسرة شنغ (١٦٤٤ — ١٩١٢) ، ولما استطاع أحد أمبراطرة هذه الاسرة أن يجمع بينها وصل بين السدين فأصبح واحداً يمتد من شونغ - ين في الشمال الغربي الى آخر مقاطعة كانشو في الشمال الشرقي ، أي على تخوم كوريا ، وذلك على مسافة ٥٠٠٠ كيلومتر اذا قيس السد مع تعاريجه ، و ٢٥٠٠ كيلومتر اذا قيس مستقيماً .

وقد زرنا ناحية من هذا السور العظيم تبعد ٨٥ كيلومتراً عن بكين ، وصعدنا اليه ، ودخلنا قلعة يون — تيره القائمة عليه وغيرها ، فاذا بنا نراه وكأنه الحية ينساب فوق رؤوس الجبال المتلاصقة ملتوياً مع تعاريجها وشعابها . ووراء السد جبال أخرى تقوم في الناحية الغربية وكأنها معاقل طبيعية بالاضافة الى ما فوق السور من معاقل وقلع اصطناعية غير بعيدة عن بعضها البعض .

وهذا السد الذي كان عظيماً جباراً ومنيعا بالنسبة لأسلحة الأقدمـــين لم يبد لنـا مهماً ، ونحن نعيش في عصر القذائف الصاروخيـــة ، خصوصاً وانه مبني بالقرميد والحجر يعلو ٢٥ قدماً ولا تتجاوز سماكته في الأسفل عن ٢٥ قدماً ، وفي الأعلى

عن ١٥ قدماً ، هذا فضلاً عن ان أبراجه لا يتعــدى ارتفاعها ٤٠ قدماً .

اما الآن فقد اصبح هذا السور في عداد الآثار القديمة ، وقــد رأينا عمال الحكومة جادين في ترميمه ليبقى قائماً على مدى الدهر يدل على مــا كان للصين من الطاقة الجبارة في اقامة العجائب .



(ناحية من نواحي السد الكبير على رؤوس الجبال)

اهذا هو سد يأجوج ومأجوج ؟

كنت كتبت مقــالاً نشرته مجلة العرفان في ايار ١٩٥٥ برهنت فيه على ان السور الصيني الكبير انما هو سد يأجوج

ومـأجوج الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وحاك حوله القصاصون من المفسرين الخرافات والخزعبلات .

ولما اتيح لي الوصول الى الصين وزرت هذا السور ازددت وثوقاً بما ذهبت اليه في ذلك المقال ، خصوصاً واني رأيت بأم عيني الصدفين ، اي رأسي الجبل المتقابلين اللذين ساوى بينهما ذو القرنين حسبما ورد في القرآن في سياق الحديث عن سد يأجوج ومأجوج . ورأيت ايضـاً زبر الحديد في الانقاض حيث يقوم عمال الحكومة بالترميم . هذا فضلًا عن اني علمت هناك أن بعض امبراطرة الصين كانوا يُلقبون بذي القرنين وذلك إما لان خودهم كان عليها ما يشبه القرون ، واما لأن ضفائر شعور رؤوسهم كانت تبدو وكأنها القرون .

وقـد ذكرت ، وانا في الصين ، الشرتوني صاحب المعجم ، ذكرتـه بالخير اذ قال في كتابه اقرب الموارد (الجزء الثاني ص ٣٩٩) : « **لعلهم لقبوا شيـ ـونغ ـ تي بذي القرنـــين لضفيرتين كانتا في قرني رأسه على عادة الصين ، وذلك اسوة بالعرب الذين اطلقوا هذ اللقب على المنذر بن ماء السماء لهذا السبب .** »

وقد شئت ان اتعرض لهذا الموضوع هنـــا بغية تبخير الخرافات التي حيكت كالعنكبوت حول تفسير قصة يأجوج ومأجوج الواردة في القرآن الكريم ، وحيكت على شكل لا يتفق مع قدسية القرآن ، وظلت عالقة في الاذهان ، وما هي في

الواقع ، الا من وضع بعض المفسرين في عهد انحطاط المسلمين وتخلفهم عن غيرهم من الامم .

نص الخبر في الاسلام وتفاسيره

جـاء في القرآن الكريم ، في سورة الكهف ، في سياق الحديث عن ذي القرنين وبلوغه مطلع الشمس ومغربها ما نصه : « ثم أتبع سبباً حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجاً على ان تجعل بيننا وبينهم سداً ? قال ما مكّني فيه ربي خير فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد . حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا . حتى اذا جعله ناراً قـال آتوني افرغ عليه قطراً . فما استطاعوا ان يظهروه ، وما استطاعوا له نقباً . (والضمير هنا عائد ليأجوج ومأجوج) قال هذا رحمة من ربي ، فلما جاء وعد ربي جعـله دكا . وكان وعد ربي حقاً . »

فذهب المفسرون في تأويل هذه الآية مذاهب شتى كان اقربها الى الصحة تفسير الجلالين اذ جاء فيه : « ان السدين المذكورين هما جبلان بمنقطع بلاد الترك ، وان يـأجوج ومأجوج هما اسمان اعجميان لقبيلتين . » وقال البيضاوي : « هما جبل ارمينيا واذربيجان » . ولكنه استدرك فقال :

«وقيل جبلان في اواخر الشمال في منقطع ارض الترك منيعان من ورائهما يأجوج ومأجوج قبيلتــــان من ولد يافث بن نوح .» وايد ذلك الخطيب الشربيني اذ روى عن الضحاك : **«ان يأجوج ومأجوج هم جيل من الترك .»**

غير ان الشيخ محمد بيرم نفى في كتابه صفوة الاعتبار ان يكون سور الصين هو نفس السد الذي ورد ذكره في القرآن الكريم مرجحـاً ان يكون موقع هذا السد في احد القطبين الجنوبي ام الشمالي . بيـد انه لم يجزم في ذلك بل قال : **«اذا كان المراد بالسد في النصوص هو سد الصـــين يلزم حمل الصفـات المذكورة فيها على بقاع من ذلك السد ، كما تأول صفـات ياجوج ومأجوج الى ما يصح اطلاقها به على التتر والمنشورية .»**

وفي كل هذه التفاسير لا يوجد شيء من العجائب والغرائب ولكن العامة في العصور المختلفة لا تستطيع ان تعيش دون خرافـــات ، كما ان بعـــض المنتسبين للعلم دأبهم بناء شهرتهم على استجلاب الناس بالخرافات ؛ وهم لا يتورعون عن الاستشهاد باحاديث ملفقة كانوا يروونها عن صاحب الرسالة تارة ، وعن الامام علي تارة أخرى . ومن هنا انطلقت قصة يأجوج ومأجوج على شكلهـــا الخرافي ، وعلى ان هؤلاء هم من علامات يوم الساعة .

والواقع ان مثل هؤلاء المهرجين لا يزالون موجودين حتى في هذا العصر عصر الذرة ، وحتى عند أرقى الامم . فقـــد

روى الدكتور فيليب حتي (مجلة الهلال ج ٩ م ٣١ ص ٩٤٢) وهو الذي يعيش في الولايات المتحدة الاميركية « ان في تلك البلاد بلاد الرقي والتجدد جرائد ينعتونها بالصفراء همّها تجسيم الحوادث المخالفة للمعتاد ، وتنميقها كيما تستجلب لذة القراء وتزيد اقبالهم عليها . »

وأما الخرافات التي اختلقها أولئك المدجلون في تفسير الآية فهي كثيرة . مثال ذلك ما جاء في تفسير الخطيب الشربيني (جزء ٢ صفحة ٣٢٨ - ٣٣١) عن حذيفة مرفوعاً

« ان يأجوج ومأجوج أمة ، وكل أمة أربعمائة أمة ، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى الف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح . وهم من ولد آدم يسيرون في خراب الارض » ، الى ان قال : « انهم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال شجر الأرز ، وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومابة . وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد . وصنف منهم يفرش احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى . لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه . ومن مات منهم أكلوه . مقدمتهم بالشام وساقتهم خراسان . يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبريا . ومنهم من تنبت لهم مخالب في أظفارهم ، وأضراسهم كأضراس السباع . »

وأما ذو القرنين الذي ورد اسمه في الآية فقد اختلف المفسرون في تعيينه : فبعضهم قال انه مرزبان اليوناني ، وبعضهم

قال انه اسكندر المكدوني ، بينما ذهب آخرون الى أنه عربي فقال بعضهم أنه شمر بن عمر بن افريقس الحميري ، وقال بعضهم أنه الصعب الذي جاء ذكره في أسفار العرب ، وكان معاصراً لابراهيم الخليل .

والواقع ان أحداً من هؤلاء لم يرد في التاريخ عنه انه أنشأ مثل ذلك السد . وأما المعني بالآية فهو شي - هنغ - تي الذي حفلت تواريخ العالم بنبأ بنيانه سور الصين الاول العجيب . وقصة يأجوج ومأجوج تؤيد هذا الترجيح الذي حام حوله صاحبا تفسير الجلالين .

وكيف ذلك وما هي هذه القصة ؟

كان التتر في العصور الخوالي ، وهم فصيلة بدوية من أمة الترك ، يحيطون مع المنشوريين بالصين ، ويعيشون على الغزو والسلب . وكانوا شهيرين بالقوة والبأس شهرتهم بالعدوان المستمر على الصين المتمدنة . ولذلك فقد أطلق عليهم الصينيون وعلى سائر الترك والمغول ، لقب هي - تونغ - نو ، أي الخدام البغاة والاسرى المتمردين على ما روى احمد راسم في كتابه « رسملي وخريطه لي تاريخ عثماني (ج ١ ص ٦) » وكان الفرس ، على رواية ليون كاهن ، يلقبونهم بأفتليت اللقب الذي يفيد مثل هذا المعنى Introduction à l'histoir de l'asie 179 ، بينما كان يسميهم اليونان تيران ، على ما جاء في دائرة معارف البستاني (م ٦ ص ٩٣) ، أي الطغاة العاتين ، وبينما كان

البيزنطيون يلقبون بلاد الترك ببلاد الظلام .

وكانت الامم المجاورة لهم تتقي شرهم وتخشى بأسهم حتى كان نساء الصين ينعون مقدماً كل حملة تساق عليهم ، وتحزن على أفرادهـــا . ويروي مؤرخو الأرمن ، الذين كانوا يعـاصرون آل ساسان في ايران ، روايات كثيرة عن مخـــاوف فرسان الفرس من لقـــاء الترك ، وعن تلكئهم في مطاردتهم رغم ان هؤلاء الفرسان كانوا مشهورين بشجاعتهم في الحروب المتصـلة بين الفرس والرومان . (دائرة المعارف للبستاني م ٦ ص ٩٣) .

وشاع وذاع في سائر العالم القديم أنباء هؤلاء الطغاة العتاة مكبرة شأن كل الأخبـار اذا ما انتقلت من فم الى فم ، وقد بلغت جزيرة العرب التي كانت ولا تزال صلة الوصل بين الشرق والغرب . والى هذا يردّ نهي محمد النبي العربي قومـه عن التحرش بالترك حينما قال : « **لا تبعث الرابضين اتركوهم ما تركوكم : الترك والحبشة** » . وحينما قال : « **اتركوا الترك ما تركوكم** . »

على ان العرب وان استهانوا بالترك عقب ان اكتسحوا في صدر الاسلام بعض بلادهم ، إلا ان الكوارث التي منوا بها بعدئذ من قبل المغول اعادت ذكريات المخاوف من هؤلاء البرابرة ، مخاوف كانت تلبس المزيد من اثواب الغرائب كلـما مرت الاجيال حتى تكونت قصة يأجوج ومأجوج على نحو ما ذكرها بعض المفسرين .

وربما كانت هذه القصة ليست من وضعهم، وانما كانت مقتبسة عن معاصريهم . والدليل على ذلك، ما روى جوانفيل : «انه لما اكتسح المغول، في القرن الثالث عشر للميلاد، بلاد الروس حسبهم هؤلاء من قوم ياجوج ومأجوج الذين يأتون حين يظهر المسيح الدجال ويدمر العالم.» (مجلة الجنان سنة ١٨٨٦ ج ٢٤ ص ٧٥٦)

هذا وكان من الطبيعي ان يذكر العالم القديم هؤلاء البرابرة كلما ذكر السور العظيم الذي انشأه شي - هنغ - تي الامبراطور الصيني اتقاءً لشرهم . ولما سأل النبي عن خبر ذي القرنين وسده، وكان السائلون، على رواية بعضهم، اليهود، جاءت الآية، في الجواب على السائلين، متفقة مع الواقع التاريخي على غير ما اختلقه بعض المفسرين، ودون ان يكون فيها شيء من الغرائب والعجائب .

ولكن بعض المفسرين الذين جاؤوا بعد ذلك زجوا في تفسير الآية ما اقتبسوه من خرافات رائجة عند سواهم .

واذا تجاوزنا هذه الخرافات ادركنا صحة ما ذهبنا اليه من ان السد الذي اشار اليه القرآن الكريم هو السور الصيني نفسه . وان يأجوج ومأجوج هم اولئك التتر والمغول الذين بُني السور لاتقاء غزواتهم على الصين . فقد روى ليون كاهن في الصفحة ٩٩ من كتابه المذكور ان الصينيين كانوا يسمون هؤلاء الغزاة النازلين حول بلادهم تيوتشي، ثم تحرف هذا اللقب الى دجرجي ودجورجي وتشورتشا . ونعتقد نحن ان هذا الاسم

ظل عرضة للتحريف حتى بلغ يأجوج ومأجوج . او ان هذا اللقب منحوت من كلمة جي جي التركية التي معناها القزم والصغير .

وقد وصل هذا الاسم الى العرب وهو يرتدي ثوبا خرافيا كانت لحمته الانباء المزعجة التي تناقلتها الامم عن اولئك البرابرة ، وكان سداه مبالغات مصدرها تناقل الاخبار ، فاذا ببعض القصاصين من المنتسبين لعلماء الاسلام ينقلونها كما وصلت اليهم دون تمحيص ، على انهم لو تقيدوا بما جاء في القرآن الكريم لما ضلوا السبيل .

وادي الملوك . — مدافن الامبراطرة

كان الصينيون ، حتى اواخر القرن التاسع ، يطلقون على بلادهم تارة اسم بلاد الازهار ، وتارة الجمهورية السماوية على ما روى معجم لاروس . وهم على حق في تلقيب وطنهم ببلاد الازاهير لكثرتها ولعنايتهم بها . واما اطلاقهم لقب الجمهورية السماوية فمرده الى اعتقادهم بشيء من الوهية اباطرتهم بالاضافة الى بعض متشرعيهم مثل كنفوشيوس ولاوتسو وفوا وصاكيا .

واستنادا الى هذا الاعتقاد عاش الامبراطرة بينهم عيشة الآلهة ، ثم لما قضوا نحبهم تباعاً اقام الاحفاد لابائهم واجدادهم التماثيل في الهياكل والقصور وعبدوهم ، وحملوا الشعب على عبادتهم . وفضلا عن ذلك فقد اقام الخلف للسلف مدافن

عظيمة كانت تزار في المواسم والاعياد . ووادي الملوك ، حيث دفن ثلاثة عشر امبراطوراً من ملوك اسرة منغ ، هو مثال على ميزة هؤلاء الاباطرة في مماتهم ، كما كانوا يمتازون في حياتهم عن سائر الشعب .

وفي عودتنا من السد الى بكين عرجنا على وادي الملوك فاذا بنا نجد ان تعظيم هؤلاء لم يقتصر على إقامة صرح جميل لكل مدفن من مدافنهم يتفق مع منزلتهم فحسب ، بل جعلوا الطريق الى هذه المدافن حافلة بمداخل واجهاتها مزدانة بالرسوم والرموز ، وحولها عواميد مكتظة بالنقوش .

وعلاوة على ذلك التكريم فقد اقاموا في الطريق الى المدافن نموذجاً من نماذج مآتمهم ، وذلك على شكل يدل على ان الذين ساهموا في تشييع جنازتهم ، واشتركوا في الحزن عليهم لم يكونوا من البشر فحسب وعلى اختلاف طبقاتهم ، بل ان الحيوانات اشتركت ايضا في هذا المأتم . ذلك اننا ما كدنا ندنو من المدافن حتى رأينا تماثيل تقوم على جانبي الطريق من كل نوع زوجين ، وبين كل زوج والآخر نحو خمسين مترا على الترتيب الآتي : تمثالا الاسد وهو رابض وتمثالين آخرين له منتصباً . ويليها على هذا الترتيب ؛ اربعة تماثيل لكل من النمر والجمل والفيل ولحيوان خيالي يسمى عندهم شلن . ويأتي بعدها ، اي في مقدمة الجنازة ، تماثيل للبشر ابتداء من الحرس الملكي ، فالرجال الرسميين الى الكهان الذين كانوا عندهم اصحاب المرتبة الأعلى .

وقد اكتفينا بزيارة اضخم هذه المدافن : مدفن الامبراطور تشن – تو الذي مات سنة ١٤٢٤ م . وهو كغيره تحفة من تحف الفن ، بنقوشه ورسومه والوانه ، ولكن المزار لا يختلف عن غيره من القصور من حيث الفن المعماري والزخارف الا بالحجم .

الدين في الصين – المعابد

لم يكن الصينيون في ماضيهم على ديانة واحدة ، بل كانوا مللًا كثيرة أقدمها الملة التي تدينت بدين بووفيل ، وهو الامبراطور الاول من أسرة هيا التي حكمت قبل نحو اربعة آلاف سنة ، والذي اشتهر بحكمته وتشريعه . وقد هذب هذه الديانة ، من بعد ، كل من لاوو - تسي و كونفوشيوس وتلميذه منغ - تسي في القرن السادس قبل الميلاد على أساس الايمان بوجود خالق وحشر ، وعلى مبدأ احترام كل الشرائع الاخرى . غير ان لاوو - تسي ذهب مذهب القائلين بالتناسخ .

ثم انتشر في القرن السابع ق.م. مذهب فواو صاكيا ، وهو مذهب طبيعي بشربه هذا الحكيم ، وفي مكتبة باريس الكبرى مجموعة من تعاليمه . وتلى ذلك شرائع أخرى كان أهمها البرهمية والبوذية واليهودية والنصرانية والاسلامية . وكان نصيب البوذية أوفر الانتشار .

أما الآن فقد درجت الصين الرسمية على سنة موسكو في

اعتناق مذهب ماركس الاشتراكي الذي يناهض الاديان ويعتبرها مخدرة للشعوب . لذلك فاني مـا كنت أسأل أحدهم عن دينه إلا وكان الجواب «أنا ماركسي» على غرار مـا كنت اسمعه في الاتحاد السوفييتي . واذا شاء أحـد هؤلاء الشباب أن يصانع فكان يقول : «**ولدت من ابوين بوذيين ، اما انا فلست على دينهم ، انا طليق في اختيار العقيدة التي تروق لي .**»

هذا هو المظهر الذي يبدو لـك اذا زرت الصين لان الناس على دين ملوكهم . والواقع ان الاديان في الصين ، ولا سيما البوذية ، لا تزال راسخة في نفوس الشعب ، والحكومة لا تضغط على اصحابها اعتقاداً منها ان طلب الشيء قبـل أوانه مقرون بحرمانه ، بل انها تعتمد في مكافحتها للاديان على الزمن ، وعدتها في ذلك المدارس والتربية . على ان الحكومة في الصين أشد سماحة منها بموسكو في معاملة الاديان . ومرد ذلك الى ان الصينيين مفطورون منذ القدم على احترام أديان سواهم وفقاً لتعاليم كونفوشيوس ، ولا يتعصبون لدينهم كما في البـلاد الاخرى التي أدى التعصب الذميم فيها الى قيام الفتن المذهبية بين أهلها ، أو أفضى هذا التعصب الى نشوب الحروب الدينية بينها وبين سواها من غير دينها . أجل وليس في لغة الصين ما يعبر عن لفظ ديانة ، وأما كلمة كياو في لغتهم فمعناها تعاليم أو عقائد .

هذا وكان من عواقب سلوك حكومة الصين مسلك روسيا في صدد العزوف عن الدين مجاراتها لها في تحويل كثير من

المعابد، ولا سيما في بكين العاصمة، الى شبه متاحف مفتوحة الابواب ليس للمصلين، وانما للفرجة وللسياح.

وقد زرت معبدين شهيرين من معابد بكين فرأيت الناس يأتون اليهما أفواجاً أفواجاً من انحاء الصين لزيارتهما على اعتبار انهما من الآثار التاريخية.

والمعبد الاول يطلق عليه معبد السماء (جينين - ديان) بناه الملك شن - لون من اسرة منغ في سنة ١٤٢٠ م وجدد بناءه أحد خلفائه سنة ١٥٢٠، ثم رمم في عهد اسرة شنغ سنة ١٧٥١. وأعيد بناؤه مرة أخرى بعد ان التهمته النيران في سنة ١٨٨٩. وكان امبراطرة الاسرتين يأتون في أول يوم من كل سنة الى هذا الهيكل ليعبدوا فيه أجدادهم واباءهم، ويقصدون اليه عند الحاجة من أجل الدعاء للمطر وللخصب الزراعي.

وقبل الوصول الى هيكل هذا المعبد اجتزنا ساحة كبرى مليئة بالأنصاب المعدة للمباخر يقوم الى جانبها مبنى أصغر بني منذ ٤٢٥ سنة تقريباً، وكان معداً لايداع لوحات يذكر فيها أسماء الامبراطرة يأتي بها الامبراطور الى المذبح عند الصلاة في المواسم ويضحي بشاة عن أرواحهم. أما اتساع المعبد فلا يزيد على ثلاثين متراً. وأما هندسته فهي على طراز الخيمة إذ تتوسطه اربعة أعمدة تعلوها قبة المعبد الأهرامية الشكل، ولكنها على ثلاث درجات. وهذه الاعمدة الأربعة تمثل الفصول الاربعة في العام.

وحول هذه الاعمدة يرتفع ايضاً اثنا عشر عموداً أخر

حمراء اللون أقل طولاً من الأعمدة الوسطى ، وهي تحمل سقف المعبد ، وتمثل بمجموعها شهور العام كما يمثل كل منها ساعات اليوم الأربع والعشرين .

وفي صدر هذا الهيكل سدة عالية كانت قاعدة لتمثال الاله بوذا ، وعلى جانبيه قواعد أخر مستطيلة من الرخام كان يصطف عليها تماثيل الامبراطرة الذين كانوا عندهم يمثلون بوذا . أما الآن فلم يبق أثر لهذه التماثيل . وقد سألت مرافقنا صادقاً ، وهو بوذي ، ولكنه من طلاب المعهد العربي الشرقي الذي يعطي لكل طالب اسماً عربياً يتفق مع اسمه الصيني ، سألته لماذا رفعت الحكومة التماثيل فقال : « **ان الشعب عزف ، بعد التحرر ، عن الايمان بألوهية بوذا ، وصدف بالتالي عن عبادتها .** »

وأما المعبد الثاني فهو يقوم على بقعة مقابلة للمعبد الاول ، وعلى مستوى واحد ، ويحاط بسورين احدهما داخلي والآخر خارجي . وقد شيده الامبراطور شاي شين من اسرة منغ عام ١٥٣٠ م وتجدد بنيانه في عام ١٧٥٢ م .

ولما اجتزنا مدخل هذا المعبد الى ساحته الكبيرة المستديرة حيث يقوم الى جانبيها جناحان من المباني الفت مرافقنا نظرنا الى شيء غريب في هذه الساحة . وقال انك اذا تكلمت على مقربة من سورها واصغى الى كلامك شخص آخر يقف في الجانب المقابل من السور سمع حديثك كأنك تقف الى جانبه على ما بين الاثنين من مسافة تناهز ١٢٠ مترا ، بينما

ان البعيدين عن السور ، ولو كانوا في جوارك لا يسمعون شيئا من الحديث . وقد جربنا بانفسنا ما تحدث عنه مرافقنا فاذا بالامر كما قال . ولم نستطع تعليل هذا السر ، ولكننا اعجبنا به ، خصوصاً وان اختراعه يرجع الى مئات السنين .

والمعبد الثاني هو مستدير كالأول ، ولكنه يقوم على ثمانية اعمدة من الخشب ترتفع فوقها القبة . وهو مبني بالخشب المتشابك مع بعضه البعض بحيث لا يحتاج الى مسامير ، وله ثلاث ابواب يصعد الى كل منها باربع درجات .

وكان يتصدر هذا المعبد ايضا بوذا ، ويحيط به تماثيل اسلاف الامبراطور الذي شيده ، ولكن هذه التماثيل لم يبق لها اثر على تلك القواعد في الوقت الحاضر .

والى وراء هذا المعبد ساحة واسعة جداً تتوسطها سدة عالية من الرخام مستديرة يصعد اليها بسلالم من الرخام ايضا على مرحلتين متفاوتتين في الاتساع ، والسلالم وزنار السدة ورواقها مزدانة كلها بنقوش ورموز بديعة اسوة بامثالها في القصور . وكانت هذه السدة تعد للحفلات الامبراطورية في المواسم والاعياد .

على ان من اجمل ما في هذين المعبدين وحواشيهما موقعهما البديع : انهما يرتفعان فوق رابية مستوية ، يبهجك اتساعها ورصفها بالرخام ، ولكن الذي يبهجك اكثر تلك المناظر الخلابة التي تراها كيفما حولت وجهك ، وتلك الحدائق التي تلتف حول المصاطب التي شيد عليها المعبدان والسدة ؛ تلتف

حولها التفاف السوار بالمعصم .

وقد رأينا فرقاً من الجيش الصيني تخيم بين تلك الاحراج ، وتتمرن في المصاطب الواسعة التي تقع بين المعبدين استعداداً للمهرجان المقبل .

يوم الحشر في بكين – الاشادة بالعرب

كانت بكين منذ أواخر ايلول ۱۹٥۷ في هرج ومرج ، انها تستعد للاحتفال بذكرى الثورة الحمراء لمناسبة دخول السنة الثامنة . وكان عـدد الوفود المدعوة لهـذا الاحتفال يتجاوز الخمسين بالاضافة الى بعثات ووفود اخرى كثيرة جاءت من كل صوب لابرام الاتفاقات السياسية والاقتصادية مع الصين . وكانت هذه الوفود والبعثات تجعل من بكين يوم حشر يجمع بين الابيض والاسود ، وبين الاسمر والأصفر ، وتبديها معرضاً آخر لمختلف الألبسة والأزياء ، معرضـاً تظهر فيه انواع أردية البشر كلها ما عدا الاثواب الصينية القديـمة التي لم نشاهدها الا في الاوبرا .

أجل ، فقد كانت بكين حافلة بوفود وبعثات جـاءت من كل الامم . أما مدعوة لشهود هذا المهرجان ، وأمـــا لمهمات أخرى . نذكر منها ، بالاضـــافة الى الوفود العربيـة ، البعثة الباكستانية للزراعة والصناعة ، وكلاً من البعثة الافرنسية والالمانية الشرقية للشؤون الاقتصادية ، وكـــلاً من البعثة الايطـــالية

واندونوسيا للسياسة والاقتصاد . هذا فضلاً عن بعثات غيرهـــا أمَّت عاصمة الصين أما للسياحة أم للمباريات الرياضية كوفـد السباحين الانكليز ، ووفد الشبان الاميركيين الذين كانوا قـد تخلفوا في موسكو بعد انتهاء مهرجان شباب العالم فيها ، وأتوا الى بكين .

وقد شاءت الحكومة ان تقيم لهذه البعثات والوفود حفلة كوكتيل في فندق بكين ، الذي كنا ننزل فيه ، عشية اليوم السابق للعيد تكريمـاً لهم . فعج بهو الفنـــدق ، على اتساعه ، بالمدعوين الذين كان عددهم لا يحصى إلا بالمئات .

وعلى منصة البهو المرتفعة تصدّر رئيس الوزراء شوآن لاي والقائد الاعلى للجيش يون تاخواي ، وحولهما الضيوف الرسميون : الدكتور محمد حته رئيس جمهورية اندونسيا السابق وعقيلته ، وكادار رئيس وزراء المجر ، ويوكوف رئيس وزراء بلغاريا ، واليستوف رئيس الوفد السوفييتي ، وفيلينق رئيس مجلس النواب التشيكوسلوفاكي ، وستانبوليتش رئيس مجلس النواب اليوغوسلافي ومينتسين قاضي قضاة المحكمة العليا لاتحاد بورما .

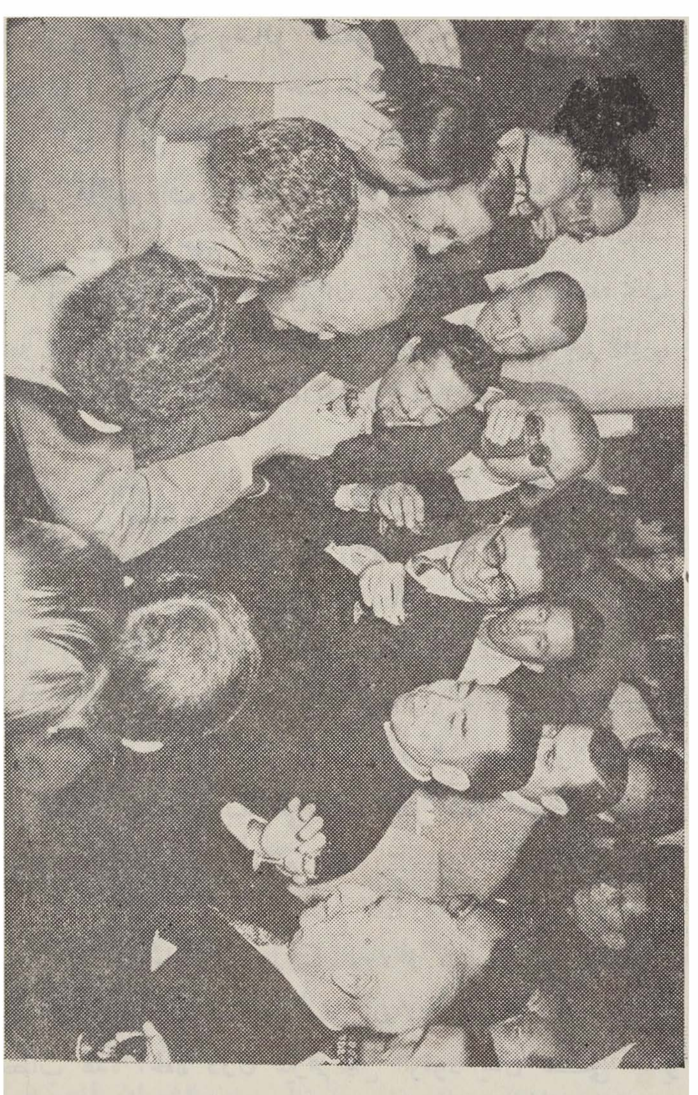
وقد افتتح الحفلة شو آن لاي بخطـاب استهله بالترحيب بالضيوف ، ثم تطرق الى مشروع السنوات الخمس الاول وما حققه من اعمال بقيـادة الحزب الشيوعي الصيني ، وخلص من ذلك الى تمجيد التعايش السلمي الذي يدعو اليه الاتحاد السوفييتي ، والى انتقاد مواقف امريـكا التي سماها استعمارية . وكان مسك ختام خطابه الاشادة بالعرب ومما قال : « **والشعبان المصري**

والسوري الباسلان وسائر الشعوب العربية لم تحافظ على استقلالها الوطني فحسب ، حينما ناضلت بعزم وقوة ضد هذه المؤامرات ، بل قدمت خدمات جليلة ايضاً لقضية السلام العالمي . فاليهم نزف تحياتنا قائلين ، مرة اخرى ، ان الشعب الصيني يؤيد كفاحهم العادل كل التأييد . »

وفي الختام اقترح الرئيس ان يشرب الحاضرون معه نخب صحة الاصدقاء ونخب وحدة العالم الكبرى ، ونخب السلم العالمي الدائم ، فارتفعت الايدي بالكؤوس في كل مكان وحيت السلام .

وهبط الرئيسان عقب ذلك الى البهو ومعهما كبار الضيوف الرسميين واخذا بالتطواف بين الجماهير المتراصة يوانسانها ويشربان ، بين الفينة والفينة ، نخب الشعوب الصديقة . ولما تقابل قائد الجيش الاعلى بالسيد عزالعرب عبد الناصر شقيق الرئيس المصري قال له في جملة ما قال : « قل لاخيك انني اتمنى ان ازوره في مصر لاتعلم منه الشجاعة ، ولألثم تراب بور سعيد ، هذه المدينة التي كانت معركتها معركة انتصار الشعوب والحريات والسلام . »

وهذا تواضع ما مثله تواضع لصدوره عن قائد اعلى لجيش امة يناهز عددها ربع عدد العالم ، فاكرم به من تواضع . وهو بالاضافة الى تخصيص شو آن لاي العرب بالذكر في خطاب هذه الحفلة دون غيرهم من الوفود يدل على تقدير الصين للأمة العربية ، وعلى اخلاصها في محبتها لهم .



الرئيس شو آن لاي يشرب نخب
الوفد اللبناني في الحفلة

اعتماد الصين على المؤسسات الاجتماعية

درجت الصين على سنة روسيا في صدد تأليف لجان اجتماعية اعتبرتها رسمية وعهدت الى كل منها الاضطلاع بالمهام التي تدخل في نطاق اهدافها وفقا لتوجيهات الحزب والدولة . وذلك على غرار اعتمادها على النقابات إذ ألقت على عواتقها تنفيذ مشروع الضمان الاجتماعي ، وتحقيق مشروع السنوات الخمس .

وقد أغدقت الصين على هذه اللجان الاموال ، وأمدتها بنفوذها حتى بدت كل واحدة منها قوة فعالة في الناحية التي أخذتها على عاتقها . ومن هذه المؤسسات لجنة السلام الصينية التي يرأسها شو - تزي - شي ، ولجنة الثقافة لصداقات البلاد الاجنبية التي يرأسها شو - تي - نان ، ولجنة الاتحاد النسائي الديموقراطي الصيني التي ترأسها ايزه - شنغ . وقد أتيح لي أن أزور هذه اللجان واحدة واحدة فأشاهد بأم العين قصورها الفخمة التي ان دلت على شيء فانما تدل على مبلغ مكانتها عند الدولة .

فقد أقامت لجنة السلام الصينية للوفد اللبناني مأدبة في دارها يوم ٢٧ ايلول ١٩٥٧ ، فأتاحت لنا هذه الفرصة التعرف الى رجالها البارزين المتواضعين ، ومشاهدة قصرها الفخم المفروش بأفضل الرياش وذلك على الطراز الاوروبي .

وكانت الموائد المصفوفة في قاعة الطعام مليئة بصحون متوسطة الحجم في كل منها نوع من انواع الاطعمة الصينية

المختلفة . ولما استوينا حول هذه الموائد تناولت منها مقداراً يسد الجوع ، وما كنت أدري ان هذه الاطعمة ، على كثرتها ، انما هي من قبيل المقبلات . ولكننا لم نلبث ان رأينا الاطعمة ترد تباعاً ، وكان عددها ثمانية عدا الحلويات ، وجاءت في آخر الصحون الثانيـة قصاع (الشوربا) الحساء وفقاً للعـادة المألوفة في الصين .

وكان يتصدر مائدة الشرف شن ـ شو ـ تنغ نائب رئيس لجنة السلام ، ويقف عند ورود كل صحن ليسكب الطعام الى ضيوفه الذين يلتفون حوله ، فأخجلني تواضعه ، ولما هممت ، وانا أجلس الى يمينه ، بان أقف لمساعدته على ايصال أحـد القصاع المسكوبة الى الشيخ نور محمـــد نائب رئيس الجمعيـة الصينية الاسلامية ، القريب مني اعتذر ورغب الي ان لا ازعج نفسي .

ثم زرنا دار الجمعية الثقافية للصداقات الأجنبية فاذا بنـــا ندخل قصراً آخر مفروشاً بأفضل الرياش ومحاطاً بالحدائق اسوة بالقصر الاول . واذا بنا نُستقبل في قاعة من القاعات الفخمة . وقد قضينا نحو ساعـة نتحدث مع رئيس اللجنـــة ، ونتبادل وجهات النظر في القضايا الثقافية ، وما يتصل بها .

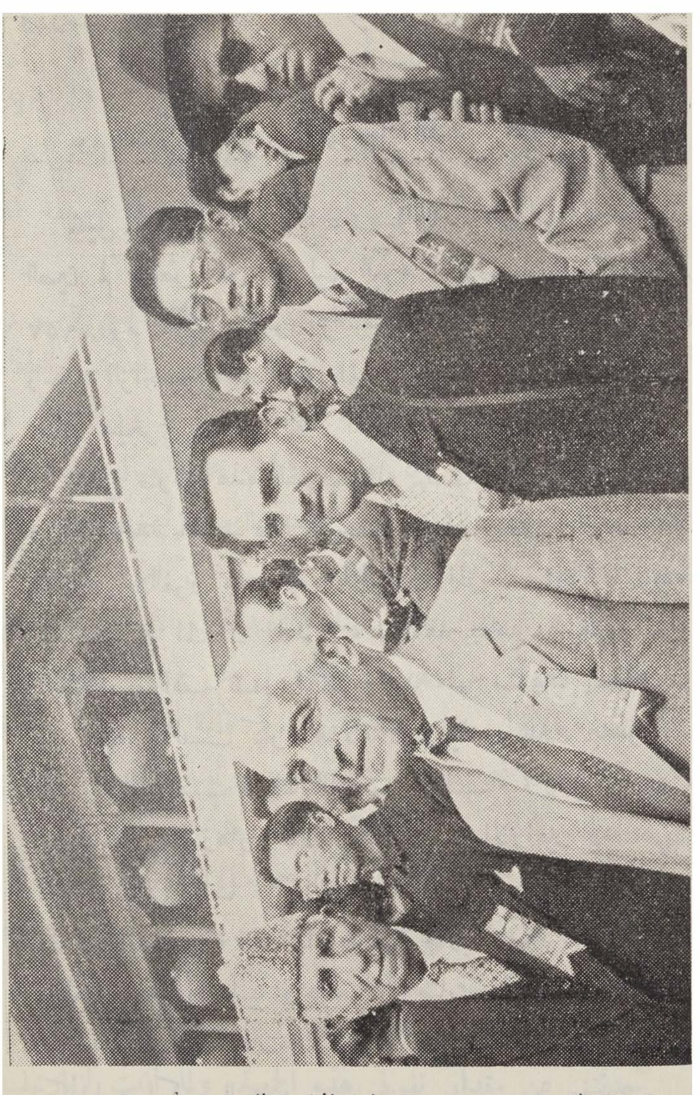
وانفردت بعد ذلك في زيارة جمعية الاتحاد النسائي الديموقراطي وكنت حريصاً على زيارتها والتعرف على اعمـالها لأن زوجتي نازك التي دُعيت في العام الماضي للاشتراك في مؤتمر الاتحـاد النسائي الديموقراطي العالمي الذي عقـد في بكين كانت قـــد حدثتني عن مقدار نفوذ هذه الجمعية . ولما أتيت لزيارتهـــا ،

ودرست اعمالها صدق الخبر الخبر .

يوم النشر في الصين – مهرجان العيد – تحية نضال العرب

يخيل إلي ان اهل بكين وضيوفها الكثر من الصين وغير الصين لم تغمض لهم عين ليلة اليوم الاول من تشرين الاول ١٩٥٧ يوم ذكرى الثورة الشعبية الحمراء . فقد أيقظتني ضوضاء زحف الزاحفين منذ الفجر الى ساحة من سكوير الكبرى حيث سيجري العرض العام أمام القصر الملكي .

وعلى صوت هذه الضوضاء نهضت من سريري وانتصبت وراء النافذة أشاهد هذا الزحف المتواصل من الجنود وطلاب المدارس والفرق الرياضية والجوقات الموسيقية والفنية ليصطف كل منها في المكان المعدّ له ، وأشاهد جماهير الشعب تتدافع لاحتلال مواقف تتيح لكل واحد منها مشاهدة المهرجان . وقد أدهشني ليست كثرة هؤلاء الذين يقدر عددهم بنحو خمسماية الف نسمة فحسب ، وانما التزامهم النظام ، وسيرهم بين شبه حدائق من الازهار . قلت حدائق من الازاهير وما هي ، في الواقع ، إلا باقات من الزهور الاصطناعية كان يرفعها بأيديهم طلاب المدارس ، فتحسبها حدائق جارية . ولا بدع ففي بكين أربعون معهداً عالياً وجامعتان ومئات المدارس كان اكثر طلابها يرفعون الباقات ذات الالوان المختلفة فتبدو مواكبهم كأنها مواكب للزهور .



بعض النظارة على مدرج بوابة الامن السماوي حيث تبدو
صورتا الدكتور جورج حنا والمؤلف في الصف الاول

وما ان أزفت الساعة العاشرة صباحاً حتى كان المدعوون قد وقفوا في المدارج المخصصة لهم عند بوابة الأمن السماوي « تيان ـ آن ـ من » ، وهي مدخل القصر الملكي . وهذا المدخل هو لوحده قصر تلتف حوله شرفة واسعة انتصب فيها كل من رئيس الجمهورية والوزراء وأعضاء مجلس الامة وقائد الجيش الأعلى وغيرهم من رجال الدولة ومعهم رؤساء الوفود الدولية الذين أشرنا اليهم من قبل .

وكان يبدو في الناحية المقابلة وراء الفرق العسكرية وجماهير الطلبة صورة ذات حجم كبير لرئيس الجمهورية ماوتسي تونغ مرفوعة على جانب من مدخل شارع تين ـ من ، وصور أخرى لماركس وانجلس ولينين وستالين على الجانب الآخر من مدخل الشارع المذكور . وكذلك الاعلام الكثيرة التي تخفق فوق عواميد مزينة تحمل العبارات التالية : «عاشت الماركسية» او «عاش السلام.»

ولما أطل رئيس الجمهورية من علٍ على الناس انطلقت الهتافات، ودوى الفضاء بالتصفيق المتواصل . ثم ما كاد رئيس بلدية بكين تنغ ـ شن يعلن في تمام الساعة العاشرة افتتاح المهرجان حتى دوى في فضاء بكين مئة طلقة مدفعية .

وافتتح المهرجان المارشال بنغ ـ تن ـ هوي وزير الدفاع بمروره في ساحة العرض ، وهو منتصب في سيارة مكشوفة ، لمراقبة مواقف الاجناد ، ثم صعد الى الشرفة والقى خطاباً استهله بالدعوة الى تحرير تيهوان (فرموزا) والى الدفاع عن الوطن والسلام . وتيهوان هي بالنسبة للصينيين كفلسطين بالنسبة

للعرب . على ان وزير الدفاع لم يفته ذكر العرب في خطابه رغم ان هذه الحفلة هي مخصصة لذكرى الثورة الشعبية ، بل أشاد بالمجاهدين العرب الذين يثورون لتحرير بلادهم ، وخص بالذكر الجزائر وعمان ، ونوه ببطولة المجاهدين فيهما ، كما انه لم ينسَ امريكا فقال : « **ان مواقفها الاستعمارية تهدد العالم بشر مستطير ، وتنذر بحرب تدمير تؤدي الى خراب العالم .** »

وبعد خطاب وزير الدفاع ابتدأ العرض ، فاذا بالقوات الحربية من برية وبحرية تمر مع معداتها الميكانيكية الخفيفة والثقيلة ، يتقدمها كبار الضباط الذين ينتمون الى الاكاديمية العسكرية العليا ، واذا بالطائرات تسير أسراباً أسراباً فتملأ الفضاء . واذا بالهتافات تدوي حين مرور الدبابات الثقيلة ووحدات المدفعية ذوات العيارات الضخمة على مختلف أشكالها ، وحين مرور النفاثات النافورية . فعشنا برهة في جو ثائر بالحماس بين رعيد الدبابات ، وأزيز الطائرات ، وأصوات الهتافات .

ثم تلى العرض المدني العرض العسكري . وكان مؤلفاً من نماذج لا تحصى للأدوات الميكانيكية والعمارات الحديثة وانواع المنسوجات والانتاجات الزراعية يتقدم كلًا منها لافتات تنوه بما قامت به تلك المؤسسات من أعمال خلال مشروع السنوات الخمس الاول . من ذلك ما كتب على احدى اللافتات : « **ان السنوات السبع التي انقضت خلال عهد التحرر تعادل ثلاثين عاماً قبله في صعيد الانتاج** » — « **سنحرر تيهوان** » — « **ولتحي الصداقة السوفييتية ـ الصينية .** »

وجاء بعد ذلك دور المدارس والفرق الفنية فمرت مواكبها فرقاً فرقاً : هذه ترقص الرقصات الوطنية ، وتلك تعزف الموسيقى . وهذه تقوم بتمثيل الادوار من الاوبرا الى الدراما ، وتلك تلعب الالعاب الاكروباسية . وهذه تقوم بالعاب رياضية من كرة السلة الى رقصة الاسود ، أو رقصة التنين ، وتلك تعرض فنونها السينمائية ، وهلمجرا .

وفي هذا الجو المرح الفتان أُطلق سراح مئات من الحمام الابيض ، فحلق بعضه في السماء حتى بدت وكأنها ترتجف بارتجاف الاجنحة ، وهبط بعضه على رؤوس النظارة واكتافهم فحرك الصفوف المتراصة حركة فجائية خالطها الضحك واصوات الابتهاج.

وكانت صفوف الطلاب المصطفة في الجهة المقابلة للقصر الملكي تلوح بين الفينة والفينة بباقات الازاهير الاصطناعية بالوانها المختلفة فيخيل إلينا حين اهتزازها ان الهواء قد عصف وما في السماء هواء عاصف .

واستمر الاحتفال ثلاث ساعات كنا نتساءل خلالها كيف سيكون بوسعنا أن نصفه في مذكراتنا ، ونصف كلما شاهدناه من مناظر ومباهج . أما والأمر غير ميسور لقلمنا العاجز ، فقد اكتفيت في التعبير عما كان يخالج ضميري بقولي : « **هذا شيء لا يوصف ، وهو جدير حقاً بان نقطع آلاف الكيلومترات من اجله على ما في ذلك من مشقات ، ولو كان علينا ان نعود ادراجنا في اليوم التالي** » . ولعل هذا القول المجمل يعوض على القاريء عن قصورنا في وصف ذلك المهرجان .

الفصل الثاني

تطور العلاقات بين الصين والعرب والمسلمين

العروبة والاسلام في تاريخ الصين

كانت بلاد الصين عالماً مجهولاً بالنسبة لليونان والرومان، وغيرهم ، او تكاد ، ولا يأتي ذكرها في تواريخهم الا لماماً ، ولكن العرب ، الذين خفوا لفتح الشرق والغرب بعد وفاة نبيهم محمد في عام ٦٣٢ م ، قربوا بينهما وجعلوا أخبار الشرق الأقصى منتشرة في الغرب ، وأنباء الغرب مذاعة في الشرق . ولا سيا عندما نقلوا عاصمتهم من دمشق الى بغداد ، وخلفوا

الفرس هناك في القبض على ناصية التجارة براً وبحراً ، واصبح المحيط الهاديء ، ومـا يليه من بحور ، موضـــع نشاط كبير لملاحتهم .

وقد كانت الصين محط أنظار العرب منـذ عهد الرسالة ، ولكنهم لما بلغوا تخومها بالفتح وأدركوا بعض ثغورها بالاتجار ازدادوا اهتماماً بها ، والـّفوا عنهـا منذ أواسط القرن الثالث للهجرة بعض الكتب

وقد اختلف المؤرخون في صدد دخول الاسلام الى الصين ، فقيل ان ذلك يرجع الى عهد النبي إذ سافر اليهـــا الصحابي وهاب بن رعشة ، وأقام فيها وتعلم لغتها ، وأخذ بعـد ذلك ينشر الاسلام فيها . وقد روى هذا كتـاب منجم العمران (ص ٢٨٣) وزاد عليه ان رعشة قابل الامبراطور فلقي منه الرعاية ، وانه نجح في نشر الدين ، وأسلم على يديه خلق كثير . ثم لم يزل مبجلاً عندهم الى ان توفي بعد عمر طويل .

وكان قد ساورني الشك في صحة هـــذا الخبر ، ولكني رجحت صحتـــه اذ رأيت ما يؤيده في كتاب انكليزي لأليزابت سيجر قالت فيه : « **ان رجلاً من الصحابة جاء الى العاصمة شانغ ـ آن وحظي بمقابـــلة الامبراطور الودية ، واعجب بالنظام الراقي الذي كان يمارسه الصينيون ، كما اعجب بسائر شؤون الصيـن ، ولا سيا من حيث استتباب العدالة فيها .** »

أما واني قد عانيت المشاق في سبيل الوصول الى الصـين

على ما توفر لنا من الطائرات فقد قدرت باعجـاب للاسلام نشاطه إذ تصل رسله ورسالته الى الصين أبان كان السفر قطعة من عذاب كما كانوا يصفونه . ومهما يكن من مقـدار صحة هذا الخبر فمما لا ريب فيه ان العرب اتصلوا بالصين منذ عهد الأمويين حينما أصبحت جيوشهم في أوائل القرن الثـامن الميلاد على مقربة من تخومها . ففي سنة ٨٨ هـ — ٧٠٦ م حمـل قتيبة بن مسلم على اهالي الصغد وفرغانه أي على ازبـكستان التي كانت من أعمال الصين ، وتقدم عبدالله بن معمر اليشكري الى أطراف الصين في خلافة عمر بن عبد العزيز . ثم لما استتب الأمر للعباسيين ، وانصرفوا الى الانشاء مكتفين بما خلفه لهم الأمويون من ملك واسع ، توثقت العلاقات الودية بين الصين والعرب . وبلغ من متانتها ان الامبراطور هسوي — تسونـغ ارسل يستنجد بالخليفة المنصور على الثائرين ضده في سنة ١٣٨هـ = ٧٥٥ م ، فأنجده الخليفة بخمسة آلاف مقاتل شجـاع أعانوا الامبراطور على اخماد الثورة ، وسكنوا في رحابـه وتزوجوا من أهل الصين ، وكانوا فيها نواة المسلمين بالاضافة الى تجارهم الذين انتشروا في الثغور ، وفي العاصمة شانغ ـ آن حيث كانوا يعدون بالآلاف .

وقد أنشأ ابو جعفر المنصور بعيد ذلك أسطولاً تجارياً في خليج فارس قذف به الى الهند ؛ ولكن السفن العربية لم تقف عند حدود الهند ، بل شرعت ، من بعد ، تجتازهـــا الى ثغور الصين . وكان من نتيجة هذا التواصل ان تجار المسلمين أقاموا

لهم مستعمرات في كانتون ونكين وهانغشو وسواهـا من الثغور وشرعوا يقبلون عليها ، ويعمرون فيهـا المساجد ، ولا يزال حتى الآن ثلاثة منها قائمة ، وهي : (١) مسجد كوانتا في مدينة كانتون الذي بني سنة ٦٢٧ م (٢) مسجد فونغهوان في هانغشو ، (٣) ومسجد شوون - شو . ولكثرة تراد العرب على الصين ، أم لكثرة علاقاتهم التجارية بهـا عُرف بعضهم بالصينيين . ومنهم ابراهيم بن اسحاق الصيني ، وهو كوفي نسب الى الصين لانصرافه الى التجارة معهـا ، ومنهم الفقيه المثري ابو الحسن سعد الخير الانصاري الاندلسي الذي مات سنة ٥٤١ هـ وكان يلقب بالصيني لأنه سافر اليها من المغرب . وربمـا كان منهم ايضاً الفقيه المحدث حميد بن محمد الشيباني المعروف بحميد الصيني .

ويذكر التاريخ أمثلة على ما حدث بين العباسيين وبين الامبراطرة اسرة منغ الصينية (٦١٨-٩٠٧ م) من علاقات ودية . منها ان هارون الرشيد أرسل اكثر من وفد الى الامبراطور سوتسنغ كانت كلها تلقى منه الرعاية والاكرام ، ومنها ان الواثق العباسي بعث اثنين من قبله الى الصين فقاما بزيارة السد الكبير عند بكين وقاسا بابه وقفله .

ولما استولى المغول على كرسي الملك في بكين ، واقام فيها كوبيلاي خان بن جنكيز دولة مغوليـة عام ١٢٧٩ م ازداد شأن المسلمين رفعة في الصين . ذلك لأن كوبيلاي خان اتخذ له مستشاراً خاصاً من المسلمين كان يدعى احمد البناكتي قلده

الوزارة فأحسن القيام بأعبائها ، فالتف المسلمون من حوله ، فاذا بهم بعد قليل قواد ونواب ووزراء وولاة فأضافوا بذلك الى مكانتهم السياسية رفعة كرفعتهم في الشؤون الاقتصادية .

وقد جاء الى الصين في عهد كوبيلايي خان السائح الاوروبي المشهور ماركوبولو ، كما أتى اليها وقتئذ الرحالة العربي ابن بطوطة . وكان موفداً من قبل الملك طغلق في الهند ، وقد نوه هذا في رحلته بما كان للمسلمين هناك من منزلة عالية ، وما كان لبعض مناطقهم من استقلال اداري . وهذه المنزلة التي كانت للمسلمين في الصين عهد الامبراطورية المغولية حمل كثيرين منهم على الهجرة اليها ، واكثرهم من آسيا الوسطى التي كانت من اعمال المغول ايضاً .

وقد حدثني محمد بكين مدير القسم الشرقي في جامعة بكين ان بعض الكتب الصينية أتت على ذكر اسماء زوار كثيرين من المسلمين كانوا يفدون على الأمبراطرة يحملون لهم الهدايا من صنع بلادهم فيقابلهم هؤلاء بعطايا وهدايا أثمن منها .

هذا وقد سمعت محاضرة القاها المستشرق الروسي تسرتلي ببيروت في شهر نيسان ١٩٥٦ جاء فيها : « وفي آسيا الوسطى بلدة يسكنها ثلاثة عشر الفاً لا يزالون يتكلمون اللغة العربية ويرجح انهم من أصل عربي » . ثم قرأت في مجله الانباء السوفييتية (العدد (٥) ٥٨/١/٢٦) ان مئة عيلة عربية تقطن حاضرة دجافغاري القديمة القريبة من مدينة بخارى في اوزبكستان . وان الوثائق تثبت ان هؤلاء العرب اقاموا هناك منذ اكثر

من الف سنة . وتعلق المجلة على هـذا الخبر بقولها : « انه اصبح لهؤلاء العرب نواب في السوفييت الأعلى لجمهورية اوزبكستان، واعضاء في مجالسها المحلية . »

ولا شك ان العرب الذين اشار اليهم تسرتـــلي هم نفس العرب الذين تحدثت عنهم المجلة . وهذا الخبر استرعى اهتمامي لمعرفة مصدر وزمن هجرة هؤلاء الى تركستان التي كانت من اعمـــال الصين في ذلك الزمان ، وظللت افكر في ذلك حتى وقع في يدي الجزء الخـامس من معجم البلدان فاذا به ينقل عن كتاب عتيق وصفاً لابي دلف مِسعَر بن مهلهل يصف بـه رحلة شاقة قام بها من خراسان الى الصين ، واذا بهذا الوصف يتعرض ايضاً لذكر العرب في تلك البلاد . فقد قال ما خلاصته « انه قبيل وصوله الى تخوم الصين انتهى الى موضع يقال له القُليب فيه بوادي عرب يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ، ويكتبون بالحميرية » . واضاف الى ذلك « ان هؤلاء ممن تخلف عن تبع (الحميري) لما غزا بلاد الصين . »

وقـــد قرأت ما جاء في معجم البلدان فلم يزدني علماً في صدد سؤالي اذا كان هؤلاء الذين رآهم ابودلف هم نفس الذين اشار اليهم المستشرق تسرتلي أم سواهم . كما انه لم يلق نوراً على سؤالي عن مصدر اولئك العرب . ذلك لأن قوله انهم ممن تخلف عن تبع لمّا يزيد الامر التباسا .

هذا وظلت البلاد الاسلامية حتى بعد امبراطورية كوبيلاي خـان المغولية ، التي كانت تجمع في حكمها بين الصين واواسط

آسيا، ظلت على اتصال دائم بالبلاد الاسلامية لاتصال الحدود وللتبادل التجاري بينهما بالبر والبحر. وكانت السفن العربية ومثلها السفن الصينية تصل بين مرافيء الصين وبين خليج فارس والبحر الاحمر. واستمر الحال على هذا المنوال الى ان فتح فاسكو دوغاما طريق الهند من ناحية رأس الرجاء الصالح، وقد لجأ البرتغاليون الى استعمال الشدة والعنف في سبيل القضاء على الملاحة العربية وغير العربية فكان لهم ما ارادوا من الاستئثار مدة في البحار الشرقية.

ولقد كان لخسران العرب ملاحتهم ما بين بحري العرب والصين اثر سيء على احوال الجوالي الاسلامية الاقتصادية في الصين، غير أنهم ظلوا، على وجه عام، مرموقين من الدولة. ولكن ما ان وقعت واقعة يونان في اواخر القرن التاسع عشر حتى نأت الامبراطورية بجانبها عنهم، وشرعت تضطهدهم. وهذه الحادثة تتلخص بقيام ثورة اسلامية وقتئذ بيونان في جنوبي الصين. وترجع اسبابها الى اختلاف وقع بين المسلمين والصينيين على استثمار منجم الفضة في تالي - فو. وقد بايع المسلمون هناك بالزعامة احد كبار علماء الدين. غير ان زمام الامور لم يلبث ان فلت من يده فتزعم الثورة القائد توين - سياو، ولقب نفسه بالملك سليمان (١٢٨٥ هـ - ١٨٥٧ م) واتخذ مدينة تالي فو عاصمة لدولته. وقد قدر له، في اول الامر، أن يدرك النجاح حتى بلغت مساحة البلاد التي فتحها في السنة الثانية ٦٥ الف ميل آهلة بملايين السكان. وفضلاً عن ذلك

فقد تمتع بتأييد ملايين من المسلمين بالصين . وقد شاء ان يضفي على مملكته شأنا دوليا ، وأن يستمد المعونة من الخارج فارسل ابنه حسناً عام ١٨٧٢ الى لندن حيث قابل غلادستون ، ثم الى استامبول حيث قابل السلطان عبد العزيز ، والتمس منهما المساعدة . ولكن انكلترا لم تأبه به ، والسلطان لم تسعده الظروف لان يبرّ بما وعده ، فعاد حسن بخفي حنين ، وما ادرك بلاده حتى وجدها تقع في قبضة الصين ، ووجد اباه قد مات بالسم مختاراً هذه المنية على الاستسلام .

على ان حكومة بكين كانت قد ارتضت بالاعتراف به سنة ١٨٦٦ شرط ان يلزم حده ولا يتجاوزه الى الامصار المجاورة ، ولكنه اغتر وابى وذهب ضحية غروره .

وخلال ذلك قامت ثورة أخرى اسلامية في الصين في ولاية شنسي التي تقع في الشمال الغربي . وقد احرز المسلمون هناك عام ١٨٦٢ استقلالهم بحد السيف ، ولكنهم لم يلبثوا ان اضاعوه بما قام بين زعمائهم من تنابذ وشقاق .

وكان من عواقب ذلك ان مني المسلمون في الصين من بعد بشيء من الاضطهاد حمل بعضهم على الجلاء من الصين ، وهذا ما يفسره سقوط عددهم الى عشرة ملايين بينما ان الكتب التي صدرت في القرن التاسع عشر وما بعد كانت تحصيهم بأربعين مليوناً من الناس .

المسلمون بالصين في العهد الحديث

يرجع مسلمو الصين الى عشر قوميات ، وهي خوي وأويغور وقازاق وقرغز وتاجك وتاتار واوزبك وتونغسيان وسالا وبوآن ، واكثرها عدداً هي قومية خوي التي يبلغ عددها ثلاثة ملايين ونصف المليون منتشرة في كل الاصقاع . اما بقية القوميات فمعظمها يقيم في مقاطعات الصين الشمالية الغربية ، ولا سيما في سينكيانغ وكانسو وتسينهاي . واما القومية العربية فلم يبق ذكر لها اذ طغت عليها الكثرة التركية المغولية التي جاءت من آسيا الوسطى .

هذا ولما قامت جمهورية الثورة سنة ١٩٤٩ حققت سياسة المساواة بين القوميات وغيرهم ، وذلك في غضون تنفيذ مشروع السنوات الخمس الأول ، ولم تتعرض لحرية الاديان ، بل انها تعمدت مسايرة المسلمين وذلك بمراعاة تقاليدهم الخاصة ، فاصدرت بعض المراسيم التي تشير الى هذه المراعاة .

وفي الناحيـة السياسية . اعترفت الجمهورية باستقلال المسلمين في بعض المناطق استقلالاً ذاتيـاً اسوة بسواهم ، وانشأت في ولايات أخرى مناطق مستقلة ذاتيـاً ، وهيئات ذات استقلال ذاتي .

والبلاد الاسلامية المستقلة ذاتياً بدرجة المراكز وما فوق هي المناطق الآتية :

١ — سيهايكو ، وهاوتونغ في ولاية كانسو حيث الكثرة الساحقة لقومية خوي .

ـ ٢ ـ ايـلي في مقاطعـة سنكيانغ حيث تكثر قومية قازاق .

ـ ٣ ـ قزيلسو في مقاطعـة سينكيانغ حيث تكثر قومية قرغز .

ـ ٤ ـ سينكيانغ حيث تكثر قومية اويغور .

ومن المقرر بمقتضى الدستور ان تصبح هذه المقاطعات ذوات ولايات مستقلة استقلالاً مركزياً أتم .

وفي الناحية الاقتصادية . فقد ساهم المسلمون في النهضة الحديثة الاقتصادية اجلّ مساهمة حتى ان مقاطعة سينكيانغ اصبحت مركزاً للصناعات الكبرى في العهد الحديث ، وكانت من قبل خالية من المعامل الا قليلاً . وحسبنا ان نذكر ان قيمة انتاجات هذه المقاطعة الصناعية زادت الآن ٣٦ ضعفاً عما كانت عليه عام ١٩٤٩ . والى ذلك فقد كان للمسلمين نصيب موفور ايضاً من التقدم العام في النواحي الزراعية والتجارية .

وفي الناحية الثقافية . سجل المسلمون تقدماً محسوساً حتى اصبح عدد الطلبة منهم في المدارس الابتدائية والثانوية ضعف مـا كان قبل الثورة ، هذا فضلاً عن تلاميذ الكتاتيب الملحقة بالمساجد ، وهي كثيرة ويبلغ عددها في بكين وحدها ثلاثين كتّاباً . وقد قال لي امام مسجد تونغ ـ سي ـ بايلو في بكين ان نسبة المتعلمين من مسلمي الصين بلغت ٩٨ بالمئة ، بينما كانت في العهد الماضي تناهز الثلاثين في المئة فحسب . واضاف الى ذلك قوله ان عدد الطالبات اصبح يوازي تقريباً عدد الطلاب .

وفي سنة ١٩٥٣ انشأ مسلمو بكين الجمعية الاسلامية الصينية للاشراف على شؤونهم الملية . ويرأس هذه الجمعية برهان شهيدي نائب رئيس اللجنة الوطنية للمجلس الاستشاري السياسي ، ويتولى نيابة الرياسة الشيخ نور محمد من كبار رجالات بكين . وللجمعية اوقاف تستعين بها على القيام بالمشاريع الاسلامية . وعلى رأس هذه المشاريع مؤسستان كان عليّ أن ازورهما . وكان عليّ ان ادون شيئاً عنهما في هذه المذكرات للألمام باحوال المسلمين في الصين .

المعهد الصيني للعلوم الاسلامية

زرت هذه المؤسسة في ٢٦ ايلول ١٩٥٧ وقد استقبلني مديرها جمال الدين لن ـ شو يصحبه محمود ماووجي مدير كلية قومية خوي ، ونمر الدين من الاساتذة . وهذا يتكلم اللغة العربية الفصحى كأبنائها ، وقد كان الترجمان بيننا . وقد جلسنا مدة في قاعة الاستقبال نتحدث حول هذا المعهد فأتيح لي الاحاطة بالمعلومات التالية :

● أنشىء المعهد سنة ١٩٥٥ واتخذ له مقراً موقتاً في دار كلية قومية خوي . غير ان الهمة مبذولة لانشاء دار خاصة به تستوعب ٤٠٠ الى ٥٠٠ تلميذ ، وذلك خلال مشروع السنوات الخمس الثاني الذي يعلق عليه المسلمون الآمال في الاصلاح .

● عدد طلاب المعهد ١٣٠ طالباً كلهم من الذكور ،

ومن جميع المقاطعات الصينية التي يعيش فيها المسلمون . ويشترط ان تكون أعمارهم لا تقل عن ١٨ سنة ولا تزيد على ٢٠ سنة.

● يقسم المعهد الى ثلاثة أقسام :

١ ــ فرع العلوم الدينية : لتفسير القرآن . قواعد التجويد . الفقه . الحديث . التجويد . التاريخ الاسلامي . ويتلى فيه القرآن باللغة العربية .

٢ ــ فرع اللغة : لتدريس اللغتين الصينية والعربية . وطلاب هذا الفرع يمارسون الكلام باللغة العربية بغية اتقان التكلم بها.

٣ ــ فرع الثقافة العامة ، للتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع .

ولما استوفينا الحديث طفت في المعهد مع مديره وبعض اساتذته ودخلت بعض صفوفه . وكان يُدرّس في صفين منها لغة خان ، وهي لغة الجمهورية ، كما كان يعلّم في صفين آخرين العلوم الدينية : ففي احدهما العلوم الاسلامية ، وفي الآخر القرآن باللغة العربية . وقد استمعت الى احد تلامذة هذا الصف فاذا بي اسمع تلاوة الذكر الحكيم بلغة فصحى ، وبلهجة عربية لا عجمة فيها.

ثم لما أردت ان القي كلمة أحيّي بها الطلبة ورجوت نمر الدين ان يترجم لهم كلمتي قال لي بلسان الواثق : « لا حاجة لترجمان لأن التلاميذ يفهمون ما تقول » وقد أيقنت بما قال حينما انبرى أحدهم للرد على كلمتي بأحسن منها وذلك بلسان عربي فصيح . وهو شاب من كاشغر ، من أقصى غربي الصين ، وخريج الأزهر .

والتفت ذات اليمين فاذا بي أرى قاعة واسعة مفروشة بالبسط ، فعلمت دون سؤال انها معدة للصلاة .

وما ان عدت لبيروت حتى قرأت في الصحف نبأ الاحتفال الذي أقيم في بكين لمناسبة افتتاح المبنى الجديد لمعهد العلوم الدينية الذي أنشىء على النمط المعماري الاسلامي وفيه خمس قباب ، وقد أعدت إحدى قاعاته لعرض الآثار الاسلامية .

كلية قومية خوي الاسلامية

كم سرني أن أرى هذه الكلية حافلة بالمباني الكثيرة وبالملاعب الرياضية والحدائق ؟ وقد انتقلنا اليها من معهد العلوم الدينية فانتقلنا الى مؤسسة كبيرة فيها ١٨٠٠ طالب ٤٠ في المئة منهم أناث ، وفيها اساتذة عديدون ٢٠ في المئة منهم نساء .

والكلية على قسمين : قسم ابتدائي للطلبة ابتداء من ٧ الى ٩ سنين ؛ وقسم ثانوي للطلبة ابتداء من ١٤ الى ١٨ سنة . وقد طفت في انحاء هذه الكلية : صفوفها ومخابرها العلمية وقاعات النوم والمطالعة والمكتبة وقاعات الطعام والمعارض فرأيت في كل منها ما يسر الناظر سواء أكان من حيث النظافة ، أم من ناحية النظام .

وحينما دخلت الى قاعة المطالعة المعدة للصغار تذكرت مكتبة موسكو القديمة : ذكرتها إذ لم يلتفت أحد الينا من تلامذة صفوف كلية خوي ، بل ظلوا منكبين على دفاترهم محافظين

على نظامهم كأن لم يدخل أحد عليهم اسوة بما كنا رأيناه في غرفة المطالعة بموسكو ، هذا فضلًا عن التشابه في نظافة الأثواب ، وحسن الهندام .

وعندما زرنا غرف النوم لاحظت شيئاً لا عهد لي به من قبل . فقد رأيت السرر مرفوعة على طابقين الواحد فوق الآخر على غرار غرف البواخر قصد إستيعاب هذه الغرف المزيد من الطلبة . ثم استرعى اعجابي مختبرات الكلية ، ولا سيما ما أعدّ منها لعلم الكيمياء لما فيها من أدوات الرصد والتكبير ، هذا فضلًا عن المعرض الحافل بالحيوانات المصبرة المعد كمختبر لتلامذة علم الحيولوجيا والطبيعيات . أما المكتبة فهي قيمة على صغر حجمها ، ولكنها خالية من الكتب العربية ما عدا القرآن الكريم .

وقد التقيت في غرفة المطالعة بشاب رحّب بي باللغة العربية الصحيحة ، وقد علمت انه يدعى نعمةالله ابراهيم ، وهو مثل غر الدين ، الذي كان يرافقنا ويترجم لنا ، من خريجي الازهر ، ويعلم قواعد اللغة العربية وآدابها .

المساجد في الصين قديمها وحديثها

على مقربة من فندق بكين الذي نزلنا فيه مسجد تونغ - مي - بايلو أي مسجد القناطر الشرقية الاربع . فكان من الطبيعي أن نزور هذا المسجد للألمام بحال معابد المسلمين في

الصين ، ولنتسقط أخبارهم من أئمتهم . فاستقبلنا إماما الجامع : عبدالله ماشوتيا ، وعلي خان يان بوجاي ، وهما لا يحسنان التكلم باللغة العربية ، فكان الترجمان بيننا مرافقنا اللطيف كوشن الذي كان يترجم لنا باللغة الانكليزية ، وهو غير مسلم .

والمسجد ليس ضخم البنيان ولا عظيم الشأن ، ولكنه مع ذلك يثير الرضاء بما فيه من الوان ونقوش وآيات قرآنية مخطوطة باللغة العربية ، ويثير فيك مشاعر السرور اذ ما ان تدخل الى فنائه حتى تشاهد حديقة نظيفة مرتبة يقوم على أحد جانبيها بهو كبير معد للاستقبال .

وعند المدخل الخارجي الذي يؤدي الى فناء الجامع وحديقته تقوم على الجانبين دوائر الجمعية الصينية الاسلامية التي نوهنا بذكرها مما يجعل هذا المسجد مركزاً اسلامياً يجمع بين صلاة المصلين ، وبين اجتماعات زعمائهم لادارة شؤونهم .

وأثناء ما كنا نتناول الشاي في قاعة الاستقبال ، وهو الشراب الذي يقدم عندهم لكل زائر ، دار الحديث بيننا وبين أمامي الجامع حول مسلمي الصين على وجه عام ، ومساجدهم على وجه خاص . فتلخصت لنا المعلومات التالية :

● في بكين ٨٠ مسجداً منها ١٨ مخصصة للنساء ، ومع ذلك فان المساجد الاخرى مباحة لهن ، واذا أتين للصلاة فيها يجلسن في الصفوف الخلفية .

● عدد المسلمين في بكين ٨٠ الفاً تقريباً . وعددهم في الصين عشرة ملايين ، نصفها في مقاطعة سينكيانغ ، ولا سيما في

قاعدة هذه المقاطعة تيهوان .

● يؤم المساجد للصلاة في الأيام العادية عدد قليل ، ولكنهم يقبلون عليها في أيام الجمعة والاعياد . ويقدر عدد المصلين يوم الجمعة في المسجد الذي نزوره بمايتي شخص ، وأما في الاعياد فيمتلأ المسجد وفناؤه بالمصلين .

● في بكين مسجد اسمه الثور يقبل عليه في كل صلاة ما يزيد على ٢٠٠ مسلم وذلك لأنه قائم في وسط اسلامي . وأما في أيام الجمعة والأعياد فيتجاوز عدد المصلين هذا المقدار، ويبلغ حداً كبيراً .

● للصينيين شغف في إقامة المساجد ، ولو كان عددهم في احدى المدن أو القرى قليلًا لذلك فان عدد مساجد المسلمين في الصين يبلغ نحو اربعين الف مسجد .

● في كل من كانتون وتشون شو وهانغشو مسجد قديم يرجع عهد بنائه الى ما قبل الف سنة . وذلك حينما جاء المسلمون الأولون الى الصين ، وأقاموا فيها مستعمراتهم التجارية .

● مسجد عيد كاه في كاشغر بمقاطعة سينكيانغ يتسع لعشرة آلاف من المصلين .

● بالاضافة الى المعهد الصيني للعلوم الدينية الذي تحدثنا عنه ، وهو المعهد المعد لتحضير أئمة الجوامع وتعليم اللغه العربية فان في المساجد الكبرى بعض الصفوف لاعداد الأئمة ، ويقدر عدد طلاب بعضها بنحو تسعين طالباً . غير ان هؤلاء الطلبة لا يجازون للقيام بوظيفة الامام إلا بعد ان يصرفوا عشر

سنين في طلب العلوم الدينية .

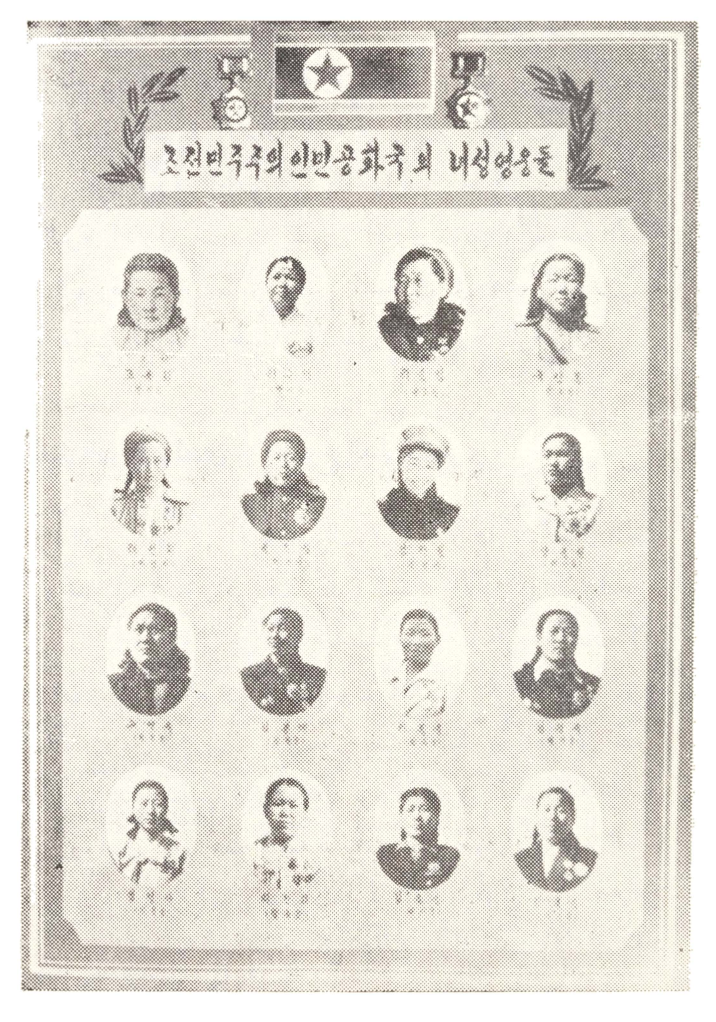
هذا ولما لاحظنا ان المسجد الذي نزوره لا مأذنة فيه ، سألنا الامام اذا كانت كل جوامع الصين كذلك ليس لها مآذن فأجاب : « أكثرها هكذا ، وأما المساجد الكبرى فلها مآذن ، ولكنها على غير الشكل المعروف عندكم . »

المرأة المسلمة في الصين

خلال العهود القديمة كانت المسلمة قلما تختلف في المظهر وفي المكانة الاجتماعية عن سائر نساء الصين ذلك لأن التعاليم الشرقية فيما يتعلق بالمرأة والتقاليد متشابهة بينهما ، الا في الحقوق التي منحها الاسلام للمرأة . ودار الفلك دورته وانقلبت الصين الى اشتراكية فشملت نظمها وتقاليدها كل الشعب فأمست المسلمة لا تختلف ايضاً عن سائر نساء الصين في الحياة الاجتماعية . فهي تخرج في المدن كغيرها بلباس الصينيات الحديث ، ليس عليها شيء من مظاهر الزينة والتبرج . وهي تزاول معظم الاعمال لتأمين معاشها اسوة بالرجل سواء اكان ذلك في دوائر الحكومة ام في المعامل والمزارع والمدارس . كما انها تقبل على المدارس والمعاهد وتتلقى علومها مع الطلاب حتى اصبحت نسبة المتعلمات من المسلمات يوازي نسبة المتعلمين من الذكور ، أم تكاد .

ولا يتورع بعض الفتيات المسلمات عن الانخراط في الجيش

واعماله ، وعن المساهمة في الفرق الفنية التي تمثل في المسارح وفي



(فريق من المسلمات المعدودات من بطلات العمل الاشتراكي)

ستديوهات السينما راقصات ام مغنيات او ممثلات . وقد رأيت بعضهن في بيروت حينما زارت الفرقة الثقافية الفنية بعض البلاد العربية عام ١٩٥٥ ، هذه الفرقة التي كان يرئسها برهان شهيدي رئيس الجمعية الصينيه الاسلاميـة ، ثم رأيت كثيرات منهن في مسارح بكين ، وفي الحفلة التي اقامتها هناك حكومـــة بكين مساء اليوم الاول مـــن تشرين الاول ١٩٥٧ لمناسبة السنة الثامنة للثورة . وقد اشتهر بعض المسلمات في هذه الفنون ، نذكر منهن قمبرخان الحسناء الايغورية الشهيرة بالرقص .

الفيلم العربي بالصين – اسبوع الفيلم المصري

غزا الفيلم المصري الاتحـاد السوفييتي ، واذا به يغزو ايضاً الصين ويقدر له نجاح وافر فيها نظراً لتشابه الاذواق الشرقيـة . وكانت المبادرة الاولى في هذه الناحية تعود لحكومة الصين التي شاءت ان يتبادل العرب والصينيون افلامها بغية توثيق المزيد من العلاقات بين البلدين . فأوفدت بعثـة فنية سينمائية الى مصر . وصادف موعد رجوعها الى بكين يوم مغادرتي لهـــا فتلاقينا في المطار . ورأيت بين هذه البعثة غانيات من شهيرات نجوم السينما ما كان لي ان اعلم انهن صينيات لولا ان عرفوني بهن . فجمالهن ولباسهن ، وانسجام أجسامهن كل ذلك يترك مجـــالا للاعتقاد انهن من حسناوات الغرب .

وفي غضون وجودي في بكين جاءت بعثة سينمائيـة مصرية

تتألف من احـــد عشر فناناً برياسـة يحيى حقي مدير ادارة الارشاد المصرية ، وكان في عدادها فاتن حمامـــة وزوجها عمر الشريف ومحمد مدكور . وقد تلقيت دعوة من سفير مصر السيد حسن رجب لحفلة افتتاح الفيلم المصري التي كان موعدها مساء ٢٨ ايلول ١٩٥٧ ، فلبيت الدعوة والسرور يملأ قلبي . ولابدع اذ لا أحب عـــلى قلب الغريب من رؤية اثار بلاده في ديار الغربة .

وقد افتتح المهرجان وزير المعارف هسيا ـ ين فنوّه بافتتاح اسبوع الفيلم الصيني في القاهرة قبل اسبوعين . واشار الى ما في هذا التبادل الفني من معنى وفوائد . ثم تناوب على الكلام تباعاً سفير مصر ورئيس البعثة المصرية . وكان الخطباء يشيدون بالعلاقات الودية بين البلدين . وما انتهى دور الخطابة حتى خف فتيات صينيات الى المسرح حيث كانت البعثـــة المصرية تجلس والرجال الرسميون . وكان عدد هؤلاء الفتيات يوازي عدد افراد البعثة ، وقدمن لـكل واحد من افرادها باقة من الزهور .

وابتدأت الحفلة بعرض فيلم اعياد الجلاء ، فطاب لنا ان نشاهد في بكين المهرجانات التي قامت في بعض انحاء مصر يوم ١٨ حزيران ١٩٤٦ ، وان نسمع التصفيق الشديد لهـذا العرض السينمائي . وقد جرى على الوجه التالي :

- ارتفاع العلم المصري في بورسعيد .
- خطاب الرئيس جمال عبد الناصر وهو يقول :« **ان مصر اليوم استكملت حريتها** » .

- اسراب الحمام البيضاء تحلق في سماء الاسكندرية .
- الرئيس يتلقى التهاني في نادي القوات المسلحة .
- استعراض عام للجيش المصري .
- افراح الأرياف المصرية بالجلاء .
- المهرجان البحري في الاسكندرية ، ومواكب الزهور .
- مهرجان القاهرة ومواكب الزهور التي تمثل بعض الاحداث التاريخية .

وطاب لنا اكثر ان نسمع ، ونحن في الصين ، نشيد عبد الله شمس الدين ، النشيد الذي اختتم به فيلم عيد الجلاء :

« الله اكبر فوق كيد المعتدي » الى آخر النشيد « قولوامعي الله فوق المعتدي »

وبعد ان هدأت عاصفة التصفيق التي رافقت هذا النشيد عرض فيلم « الصراع بالوادي » لفاتن حمامه وزوجها . وهو فيلم جميل يمثل الصراع بين الارستوقراطية في مصر وبين الطبقة العمالية . وقد اختارته اللجنـــة السينمائية المصرية لأنه يتفق مع روح الشعب الصيني الحاضر . ولكني وجدت هذا الاختيار غير موفق في ناحية اخرى . ذلك لأنه عرض فلاحي مصر سكان الارياف على شكل ، وان كان صحيحاً من حيث الواقع ، الا انه كشف النقاب عن مقدار تخلفهم عن سواهم في الناحية الاجتماعية .

هذا وقد عرض هذا الفيلم بعد ذلك في كل من بكـين وتيانسين وشنغاي مدة اسبوع كامل ، بينما عرض فيلم « أيامنا الحلوة » ، خلال ذلك الاسبوع ، في كل من مقاطعات شانيانغ

وهانكشو ونوهان وكونينغ .

والجدير بالذكر هنا ان للمصريين في الصين منزلة عالية، وان لرئيسهم سيادة جمال عبدالناصر مكانة رفيعة وقد . دللوا على كل ذلك لمناسبة حملة العدوان المثلث على قناة السويس . فعدا انهم قاموا وقتئذ بمظاهرات اشترك فيها مئات الألوف فان امرأة صينية من مدينة تسينان ولدت في غضون تلك الحملة فأطلقت على ولدها اسم « سويس » . وقد قرأت لها مقالاً في مجلة المرأة الصينية قالت فيه : « **انها كلما القت نظرها على طفلها ابان العدوان على مصر كانت ترتعش قلقاً على المصريين المجاهدين كأنهم كلهم ولدها الحبيب .** »



(الطفل « سويس » تحتضنه أمه وهي بين أولادها)

وأما احترامهم للرئيس عبد الناصر فقـد أعرب عنه وزير الدفاع الى عزالعرب عبد الناصر ، وهو شقيق الرئيس ، حينما قال له في الحفلة الكبرى التي أقامتها حكومة الصين لضيوفها :

« كم أتمنى ان اذهب الى مصر لأتعـلم من الرئيس **عبد الناصر ضروب الشجاعة والبسالة ؟ »**

على ان المصريين قابلوا هذه العواطف بمثلها . وقد قرأت في احدى صحف القاهرة ان عيلتين مصريتين أطلقت احداهما على مولودها اسم ماوتسي تونغ ، وأطلقت الأخرى على مولودها اسم شوآن لي . هذا فضلاً عن أبوين غيرهما أسميا مولودهمـا الجديد خروتشوف .

على ان مصر دللت على ودادها للصين بناحية أخرى تتعدى العواطف الشعبية : إذ أقامت لها في بكين سفارة شاءت ان تكون في طليعة السفارات ، وحسبك أن ترى القصر الذي تحتله لتقدر مقدار أماني القاهرة في توثيق العلاقات بين البلدين .

سورية في الصين ـ جمعية الصداقة الصينية السورية

وتتمتع سوريا في الصين بمنزلة تكاد تعادل منزلة مصر في تلك البلاد ، ذلك لأن دمشق وبكين تلاقتا في صعيد السياسة العالمية مذ مدت الفيحاء يدها الى موسكو ورفضت الأحلاف . وكان من عواقب هذا التلاقي تبادل البعثات بينهما ، وتبـادل الزيارات .

وفي غضون اقامتي في بكين كان يزورها أربع بعثات سورية تحمل اسماء مختلفة :

● وفد الصحافة ، وكان يرأسه توفيق اليازجي رئيس قسم الصحافة في وزارة الخارجية . وقد توفي مأسوفاً عليه في شنغاي بعد بضعة أيام .

● وفد هواة الفن السينمائي . وكان يرئسه خالد حمادة .

● بعثة الطلاب وكان يرئسها خليل خالد عبد النور .

● وفد الشبيبة السورية وكان يرئسه ياسر الفرا .

وقد الفت نظري ما كان لهذه الوفود ، ولا سيا وفد الصحافة ، من الحفاوة والاكرام سواء اكان ذلك في الاوساط الحكومية ام الشعبية .

وشاء السوريون من اعضاء هـذه الوفود ان يهتبلوا فرصة وجودهم في بكين ليردوا تحية الصين بأحسن منهـا . ففي حزيران ١٩٥٧ تألفت بدمشق جمعية الصداقة السورية الصينية فلماذا لا تتألف في بكين جمعية مثلها تسمى جمعية الصداقة الصينية السورية ؟ وكان مـن الطبيعي ان ترحب حكومة شوآن لاي بهذه البادرة . فدعينا لحفلة الافتتاح في قاعة المجلس الاستشاري السياسي للشعب الصيني ، وذلك في ٢٠ ايلول ١٩٥٧ . وقد شهد هذه الحفلة ستة وفود من البلاد العربية : مصر سوريا لبنان مراكش تونس السودان . وكان بين اعضاء الوفد النسائي التونسي سيدتان مـن الجزائر هما السيدتان ماميا شتوف ، وخيره

مصطفاي. والجدير بالذكر ان هذا الوفد كان يمثل بلاده احسن تمثيل .



(الوفدالتونسي في الدار الاسلامية في بكين وتبدو رئيسة الوفد)
(السيدة صفية زويتن جالسة تقرأ بينما الاستاذة كيكا ادريس)
(شاشا تناول المرافق صادقا شيئاً من حلوى المائدة)

هذا وقد حسبنا اننا في دمشق حين دخلنا تلك القاعة الواسعة ، ذلك لأننا ما كنا نلتفت شطر اليمين وشطر الشمال الا ونرى لوحات مستطيلة مكتوبة باللغة العربية وبخط جميل على الوجه التالي :

« نؤيد الشعب السوري في كفاحه العادل للدفاع عن السيادة والاستقلال » .

« عاشت الصداقة بين الشعبين الصيني والسوري » .

« عاشت الوحدة بين شعوب آسيا وافريقيا » .

وأما صدر القاعة ، حيث كان شو آن لاي رئيس الوزراء وبعض كبار رجال الدولة يجلسون تحف بهم رؤساء الوفود العربية والسورية ، فكان يرفرف هناك علمان كبيران : العلم الصيني ، والعلم السوري .

وقد افتتح الحفلة تابو - شنغ رئيس جمعية الصداقة الصينية السورية ، فأشاد بالحضارة التي جمعت في التاريخ بين البلدين ، ثم خلص من ذلك الى التعريض بتركيا التي كانت وقتئذ تهدد سوريا وتحشد جيشاً على تخومها وقال : « **ان الشعب الصيني يقف بقوة الى جانب سوريا ضد اي عدوان قد يقع عليها . وان الهزيمة واقعة حتما على المعتدين** » .

ثم وقف بعده شو آن لاي رئيس الوزراء فاستهل خطابه بتوجيه التهنئة الى اعضاء الجمعية وقال :« **ان الصين وسوريا دولتان ذاتا تاريخ عريق في القدم ، وان علاقاتها ترجع الى اعماق التاريخ . على ان هذه الصداقة اخذت تتوطد منذ عامين على اسس مباديء باندونغ .** » وبعد ان غمز الرئيس من قناة الولايات المتحدة الاميركية ، وشجب مبدأ ايزنهاور القائم على سد الفراغ ، وعرض بمناوراتها ومؤامراتها ضد سوريا قال :

« **ان كفاح الشعب السوري هو جزء من كفاح العالم في سبيل السلام العادل ، وان انتصار سوريا هو انتصار السلام والعدالة في العالم .** »



الرئيس شو آن لاي بين الوفد اللبناني في حفلة جمعية الصداقة الصينية السورية والى جانبه الايمن المؤلف

وتعاقب بعد ذلك على الخطـــابة رؤساء الوفود السورية الذين أتينا على ذكر اسمائهم . وكان مسك الختام حفلة كوكتيل أقامتها الجمعية المـدعوين في بهو المبنى حيث طاف خلالها رئيس الوزراء على الوفود واحداً واحداً وشرب انخابهم وانخـــاب بلادهم ، بينما كان المصورون يقفزون كالغزلان من ناحيـة الى ناحية لتصوير الرئيس وضيوف الجمعية .



الفصل الثالث

مدينة شنغاي وتطور احوالها

في الطريق الى شنغاي

كانت الدعوة الموجهة الينا من قبل لجنة السلام الصينية ترمي الى الاشتراك في مهرجان العيد الوطني ، والى الاضطلاع عن كثب على الصين الحديثة . فلما انتهى يوم العيد سألني المضيفون عن المدن التي أود زيارتها فاخترت الذهاب الى شنغاي ، هذا الثغر الذي هو اكبر مدن الصين ، واشهرها في التجارة . وكان يحملني على هذا الاختيار ، بالاضافة الى ذلك ، ما كنا نسمعه عن طغيان النفوذ الاجنبي فيها ، وانتشار تجارة الافيون في

اسواقها وسائر المخدرات والكحول ، فضلاً عن استفحال الدعارة في اوكارها .

وقد رافقني في هذه الزيارة الرفيق تنغ - نانغ - شوان ، وهو من موظفي لجنة السلام المرموقين ، ومن خريجي معاهد باريس . وقد شيعنا الى المطار بعض اعضاء لجنة السلام . والتقينا فيه باثنين من اعضاء الجمعية الصينية الاسلامية جاءا لوداعنا باسم الجمعية ، وهما الحاج منيب نامنجي وطاهر شنغ ، وهما لا يحسنان التكلم باللغة العربية ، غير ان الاول منهما يجيد كتابتها وقد دون لي اسمه بها .

غادرنا بكين في الساعة التاسعة والنصف من صباح ٢ تشرين الاول ١٩٥٧ ، وبلغنا نانكين في الواحدة بعد الظهر ، ثم هبطنا في مطار شنغاي في الثالثة والربع حيث كان ينتظرنا رئيس لجنة السلام وبعض اعضائها فاستقبلونا بباقات من الزهور قدمها لنا بعض الفتيات ، ورحبوا بنا .

والمسافر من بكين الى الجنوب يرى بأم عينه ما تتمتع به الصين من المؤهلات لازدهار الزراعة والتجارة في تلك البلاد التي تقدر مساحتها بعشرة ملايين كيلومتر مربع أي ما يعادل مساحة لبنان الف مرة ، والتي يقدر اهلها بستماية مليون من السكان ، ذلك لأن الصين لم تأهل بهذا العدد العظيم من الناس الا نتيجة لكثرة انهارها ، ولكبر هذه الأنهار ، ولما فيها من اقنية طبيعية وجداول ، واكثرها يصب من الشمال الى الجنوب في المحيط الهادي .

على ان الصينيين القدماء لم يكتفوا بما في بعض انحاء بلادهم من انهر كبيرة جارية وروافد ، بل شاءوا أن تنعم الانحاء المحرومة منها بخيراتها ، فانشأوا الترع الكبيرة ،والاقنية العريضة، ووصلوا بين الأنهار حتى أصبحت كالشبكة . وكانت الغاية من ذلك لا تقتصر على تأمين الري فحسب ، بل ليجعلوا من هذه الأنهار اقنية وطرقاً للتجارة والملاحة اوفر من الطرق البرية وافضل .

ذلك ما كنا نراه من علٍ ونحن في السماء ما بين بكين وشنغاي . كنا نرى المراكب والسفن تشق عباب الانهار والاقنية اكثر بكثير مما كنا نراه من السيارات والشاحنات في الطرق البرية خصوصاً مذ بلغنا نانكين على نهر يانغتزي كيانج . فقد اشرفنا حينئذ على القناة الكبرى التي تمتد الى هانغشو في الساحل الجنوبي مسافة ٩٢٦ ميلاً . وهي قناة تعتبر من عجائب الدنيا اسوة بالسد الكبير ، ليس لطولها فحسب ، بل لان الامبرطور ينغ - تي الذي شقها اراد أن يجعلها صالحة لمرور السفن الكبيرة التي لا تقل حمولتها عن عشرة آلاف طن .

مدينة شنغاي في الماضي - بلد الافيون والبغاء - مظالم الاستعمار

تقع هذه المدينة الكبيرة على المحيط الهادي وعلى مصب نهر هوانكنو العظيم . وهي تبعد عن البحر نحو عشرين كيلومتراً . ومركزها الطبيعي أتاح لها أن تصبح من كبريات مدن العالم في الماضي والحاضر ، وان تتسع رقعتها الى ٦٣٦ كيلومتراً

مربعاً ، وان تزدحم بسكانها الذين بلغ عددهم سبعة ملايين .

كانت انكلترا خلال القرن الثامن عشر تحتل المركز الأول في تجارة الشرق الأقصى ، وتعتمد في ذلك على شركة الهند الشرقية التي فتحت لها ابواب استعمار الهند واستثمارها . وقد شاءت لندن ان تمثل في الصين نفس الدور الذي لعبته في الهند فدفعت سنة ١٧٨١ هذه الشركة لادخال الافيون الى الصين . وشرعت تشجع اهلها على ستعماله حتى أقبلوا عليه إقبالاً شديداً .

ولما انتهى حكم امبراطورية منشو الى تاو - كوانغ أشفق على مصير بلاده من جراء تفاقم أمر الافيون وانتشاره فأمر في سنة ١٨٣٩ بمنع ادخاله الى الصين ، وصادر ما هو موجود منه وأحرقه . وحينئذ بدأ الاستعمار يقوم بتمثيل مأساة محزنة تجلت فيها مظالمه . وحسب الشرق ان يتذكر فصول هذه المأساة ليذكر أنانية المستعمرين .

امبراطور الصين صاحب البلاد يشفق على مصير شعبه فيصدر أوامره بمنع ادخال الافيون . وهذا حق من حقوقه ، بل هو واجب من واجباته . ولكن لندن التي لا تعترف باي حق غير حق القوة اسوة ببقية الدول الاستعمارية ثارت ثورتها على الامبراطور ، وأشهرت الحرب عليه ، وهي ما يسمونها حرب الافيون الاولى . ولماذا ؟ - لأن فعل الصين هذا يؤدي الى حرمانها مورداً كبيراً كانت تجنيه من تجارة الأفيون ، وهي لا يهمها سواء أهلك الصينيون بأجمعهم أم بقوا . وقد زحفت

الجيوش الانكليزية في عام ١٨٤٠ على الصين واحتلت بعض ثغورها ، وتقدمت الى الداخل . وكانت حكومة منشو على غير استعداد للمقاومة فلم يسعها إلا الأستسلام والتوقيع على معاهدة نانكين في سنة ١٨٤٢ راضية بدفع غرامة كبيرة لانكلترا والتخلي لها عن جزيرة هونكونك ، وفتح ابواب خمسة ثغور من بلادها ، ومنها شنغاي ، أمام التجارة الاجنبية ، هذا فضلاً عن الاعتراف للرعايا الانكليز بامتيازات تستثنيهم من الخضوع لقوانين البلاد علاوة على تعهدها بأن لا تزيد المكوس الجمركية على خمسة في المئة فقد أفضى ذلك الى جعل بلادها منطقة نفوذ للاجانب ، وسوقاً لتجارتهم .

واذا بالولايات المتحدة واذا بفرنسا تأخذهما الغيرة وتأتيان بعد سنتين من ذاك العام وتفرضان على الصين ، بمعاهدتين متواليتين ، المزيد من الامتيازات لرعاياهما ، فدخلت بلاد الصين ضمن نطاق النفوذ الاجنبي ، وانتشرت فيها تجارة الافيون الى حد ان ما أصدرته منه انكلترا وحدها بلغ في سنة ١٨٥٤ — ٤٬٣٧٥٬٠٠٠ رطلاً . وكفى بالاشارة الى هذا المقدار دليلاً على تقدير كم تسمم الصينيون من استعماله.

ولكن الاستعمار لم يروِ جشعه كل هذه الامتيازات فاذا بانكلترا تتخذ على حكومة منشو حجة لاشهار حرب جديدة عليها . وكانت حجتها ان الصين صادرت سفينة صينية تحمل العلم الانكليزي ، وهذه جريمة أشد من جريمة التعبير في الحمام ، فانقضت عليها بالاتفاق مع فرنسا التي تتغنى بوضعها حقوق الانسان

فكانت حرب الافيون الثانية (١٨٥٦–١٨٦٠) . ولما أتيح لهما الوصول الى مقربة من بكين لم يسع الصين إلا طلب الصلح والاذعان ومن ثم الى دفع غرامة كبيرة ، والسماح للرعايا الاجانب بسكنى بكين فضلاً عن غيرها ، والقبول باستمرار هذه الدول الاجنبية على مزاولة الاشراف على الجمارك ، والسكوت عن نشاط الارساليات الدينية التي هي طليعة الاستعمار . كما أذعنت لفتح ابواب ثغور جديدة للتجارة الاجنبية . ولما نهضت الصين بعيد ذلك والتمست تعديل هذه المعاهدات رأت انكلترا وفرنسا في هذا الالتماس جريمة ، وجريمة كبيرة ، فزحفت جيوشهما على بكين العاصمة واحتلتها ، ولم تكتف بذلك بل أحرقت القصر الصيفي الذي وصفناه ، وسلبت تحفه العظيمة .

فاذا بالصين التي كانت تخسر هذه الحروب تباعاً تمسي مستعمرة للدول ، ويمسي أهلها غرباء في ديارهم . وقد فتحت أبواب الصين على مصاريعها ابتداء من حرب ١٨٦٠ فزحف اليها تجار الاجانب وشذاذ الآفاق ، واستقر اكثرهم في ثغورها ، ولا سيما في شنغاي ، وتحكموا في رقاب اهلها ، وسمموهم بالافيون والمخدرات ، وسمموا أخلاقهم بالفجور والموبقات ، واستأثروا بخيراتها وجمعوا الثروات بينما كان الصينيون يموتون جوعاً واملاقاً .

وما بين ليلة وضحاها أمست شنغاي مقسمة الى قسمين : أحياء وطنية تتجلى فيها القذارة والجوع والمرض ، وأحياء أجنبية ترتفع فيها المساكن العالية ، وتنتشر حولها الحدائق

الغناء ، وتحفل بالمقاهي والبارات والمسارح والأوبرات ، وتنساب فيها الشوارع الواسعة . وكل ذلك يحمل اسماء أجنبية .

ولو أن المصاب وقف عند هذا الحد لهان الأمر ، ولكن الاجانب لم يقنعوا بكل هذه الامتيازات ، بل وزعوا شنغاي فيما بينهم : قسموها الى مناطق نفوذ : هذه لفرنسا أم لانكلترا ، وتلك لليابان أم منطقة دولية تساهم فيها أمريكا . وكان لكل دولة في منطقتها الحكم المطلق تحكم بمقتضى قوانينها ، ولها رجال بوليس وأمن ، ولها بلديات ومدارس ومستشفيات ، ولها ملاعب ومسارح . وكلها محرمة على الوطنيين . واكثر من ذلك فقد كان الأجنبي لا يطاله قانون إلا قانون بلاده بينما ان الصيني اذا ارتكب جريمة ضد الأجنبي يساق الى المحكمة الاجنبية ، فضلاً عن انه اذا أساء الى احد مواطنيه وفرّ الى منطقة أجنبية أصبح في أمان من المحاكم الصينية ، وحوكم بمقتضى قوانين تلك المنطقة . ولا يزال الصينيون يذكرون حتى الآن ، والألم يحز في نفوسهم ، تلك اللافتة التي كانت مرفوعة عند مدخل احدى الحدائق الانكليزية ، وكان مكتوباً عليها : « ممنوع دخول الصينيين والكلاب الى هنا » !

أما الافيون والمخدرات وبيوت الدعارة فحدث عنها وعن رواجها في ذلك العهد ولا حرج . وكان من عواقب ذلك أن أمسى الشعب الصيني مخدر العقول منهوك الاجسام مبتلىً بالامراض الزهرية ، وكيف لا وكان في شنغاي وحدها ، على ما روي لي ، أربعون الفاً من المومسات .

وأما واني كنت احمل في ذاكرتي هذه الصورة عن شنغاي فقد تاقت نفسي الى رؤيتها اكثر من كل بلد صيني آخر بغية أن أعلم كيف حالها الآن في العهد الجديد .

شنغاي في الحاضر

أين الأجانب ؟ وأين اسواق الافيون ؟ وأين بيوت الدعارة ؟ كل ذلك كان مدار تساؤلي حينما هبطت شنغاي وتجولت في احيائها وشوارعها واسواقها . انني لم أرَ شيئاً من ذلك ، بل رأيت مدينة خلقت خلقاً جديداً واستأثر مكانها بجميع مرافقها ، وبالاضافة الى الاعمال التجارية والزراعية أنشأوا المعامل والمصانع. وكنت اذا ما أشرفت من نافذة الفنـــدق على المدينة أرى مداخن المعامل تحيط بها ، وكأنها لكثرتها غابات باسقة الاشجار. وكنت اذا ما تجولت في الشوارع وزرت المسارح والحدائق أرى الازدهار بادياً على وجه الثغر. وهو يبدو باكتظاظ الاسواق بالشارين ، وبامتلاء المسارح والحدائق بالمتنزهـين ، وليس بينهم أجنبي لان الاجانب أصبحوا قلة في البلد لا شأن لها .

على ان شنغاي لا تزال ثغراً تجارياً اكثر منه زراعياً أم صناعياً . وكانت التجارة في الصين غير مؤممة في السنوات الثلاث الأولى ، غير ان التجار لم يلبثوا ان اختاروا مشاركة الحكومة في متاجرهم . اختاروا هذه المشاركة ليحموا انفسهم من منافسة الشركات والمخازن الحكومية التي لا طـــاقة لهم في مزاحمتها

أسوة باصحاب المعامل . وكانت هذه المشاركة بمثابة الخطوة الأولى للتأميم يوم تصبح كل المتاجر والمصانع والمزارع ملكاً للحكومة وحدها ، ويصبح أصحاب الأموال الشركاء الآن موظفين كلّا منهم في عمله ويتقاضى المرتب الذي يستحقه.

وفي شنغاي كما في بكين مخازن كثيرة ودكاكين ومتاجر مؤممة ، وفي كل من حواضر الصين ، كما في حواضر الاتحاد السوفييتي مؤسسات كبرى كمؤسسة كوم في موسكو تعرض للبيع كلما تحتاجه العيلة من صغائر الحاجيات الى كبائرها . وقد زرت دار احداها في شارع وانغ — فو — تزينغ ببكين ، كما زرت مخزناً آخر من هذا القبيل في شنغاي . ورأيت في كل منها كيف يتدافع الناس لكثرة عددهم في الاقبال على هذه المخازن رغم اتساعها وكثرة عدد طبقاتها .

هذا وكنت في شنغاي ألاحظ وجود تبدل محسوس في ملامح اهاليها بالنسبة لسكان بكين . ذلك لأن أهل شنغاي وسائر السواحل الجنوبية أصبحوا بفعل اختلاطهم بالاجانب ، وبتأثير مناخ بلادهم اقرب في الشبه الى اهالي البحر المتوسط ، كما ان أخلاقهم تبدو أشد ليناً من أهل الداخل ، وأوفر طلاقة بالنسبة للغرباء . واني لا أنسى كيف انهم صفقوا لنا عند دخولنا الاوبرا في شنغاي ، وكيف ان صغارهم التفوا حولنا في الحي الوطني ، عند زيارة المعابد القديمة .

وأما لباسهم العمومي وان كان لا يختلف في زيه عن لباس أهل بكين : بذلة مؤلفة من سترة وبنطلون ، والسترة

مغلقة عند الرقبة ليس تحتها قميص مكوي ولا عقدة رقبة ، وان كانت البذلة التي يرتديها الرجال والنساء على السواء يغلب عليها اللون الأزرق غير انا لاحظنا في أهل شنغاي انهم لا يتقيدون باللون الأزرق بل يرتدون في الاسواق ايضاً أثواباً مختلفة الألوان .

وأما عمران مدينة شنغاي فهو أعلى مرتبة من عمران بكين على وجه عام . انك تجد نفسك في حاضرة من حواضر المدن الاوروبية لا تختلف عنها في شيء بمبانيها وشوارعها وحدائقها وكثرة فنادقها الكبيرة . وكل ذلك من مخلفات الأوروبيين . ولعل هذا العمران القائم في شنغاي هو السبب في انك لا ترى فيها ، كما في بكين ، ذلك الاقبال على تشييد المساكن الشعبية الكبرى . ولما كانت بناياتها المسقوفة بالقرميد قلما يزيد علوها على ثلاثة طوابق ، ما عدا الفنادق الممتازة ، فانك اذا رأيت صرحاً من الصروح التي بنيت حديثا على علو شاهق ، كالمعرض السوفييتي مثلاً ، تحسبها من ناطحات السحاب .

غير ان الاحياء الوطنية في شنغاي لا تزال تدل على مبلغ الحقارة التي كان يعيش فيها أهل شنغاي الصينيون ، وقد رأينا أمثلة منها في أطراف الثغر مذ تركنا المطار ، ثم حين زرنا الجامعة ، كما شاهدنا نماذج منها عند زيارة بعض الاسواق القديمة .

وتمتاز شنغاي بكثرة العجلات الصغيرة المعدة للاجرة ، وأعني بها تلك العجلات المحمولة على الدراجات (البيسكلات). وكانت من قبل تجرها الرجال ، أما الآن فيقودها اصحابها

راكبين . ويأخذك العجب لكثرة ما في شنغهاي منها : ولقـد



« احدى الفلاحات الصينيات تعلم الآنسة حوّا محمد صالح كاباشي »
« سوق التراكتورات . وهي عضو الوفد السوداني »
« لمؤتمر الاتحاد النسائي الديموقراطي العالمي ١٩٥٦ »

قدرت ان عددها هناك يزيد عشر مرات عن عدد السيارات . وفي المساء أشرفت من نافذة الفندق على ساحة تحته تقع أمام السينما فاذا هي مغطاة بهذه العجلات على انتظـــار الركاب . ولاحظت أيضاً كثرة عدد الاوتوبيسات كثرة لا عهد لي بها في بكين ، وتوفر عدد سائقـــات السيارات بينما لم أصادف في عاصمة الصين واحدة منهن .

هذا وكان أحد الاصحاب في بيروت رغب اليّ ان أتفقد نسيباً له في شنغاي وهو صاحب متجر في شارع برودواي . فلما سألت عنه هناك قيل لي انه لم يبق شارع كهذا يحمل اسماً اجنبياً ، بل ان البلدية رفعت كل الاسماء الاجنبية عن شوارعها وأحيائها وأطلقت عليها اسماء وطنية ، كما انها حولت الى الشعب مستشفيات المدينة وحدائقهـــا ومسارحها ، وكلما كان ملكاً للأجنبي .

المسارح ودور الالعاب

كان الافرنسيون قد أنشأوا في منطقتهم بشنغـــاي ملعباً متسع الارجاء أعدوه ميداناً لسباق الكلاب . وقد زرنا هـذا الملعب فاذا به قد تحول الى دار شعبية أعدت لتمثيل الأوبريت تتسع لخمسة عشر الف نسمة . واذا بالملعب على رحابتـه ملىء بالناس حتى لا يوجد فيه مكان للوقوف . ذلك لأن أجور هذا المسرح وغيره حددت على نسبة رخيصة جداً لافساح المجال

الى الشعب لمشاهدة انواع التسلية . وقد علمت ان اجرة الدخول الى هذه الأوبريت لا تتجاوز ٢٥ غرشاً لبنانياً .

وزرنا مساء اليوم الاوبرا في شنغاي ، كما زرناها في بكين، فرأينا هناك الصين التي كنا نتخيلها ، ورأينا على مسرح الاوبرا ما لم نره في الاسواق والمخازن ، الاثواب الحريرية المزركشة ، الموشات بانواع التطريز ، والمحلات بالألوان البراقة . والاوبرا في الصين تمثل العهود الغابرة التي تتفق مع ما قرأناه عن الصين ، وما حملناه في مخيلاتنا عنها . على إنا شاهدنا ايضاً في الاوبرا أشياء لم نكن نتصورها ، ومنها ارتفاع الاعلام وراء أكتاف القادة . وهي تكثر أو تقل بمقدار درجات أحدهم في القيادة . وكان الممثلون في الاوبرا لا يطلقون الكلام على ما هو مألوف ، بل يجوّدونه تجويداً ، ويرتلونه ترتيلاً لا يتفق مع ذوقنا نحن الغرباء الذين لا يفهمون ما يقولون . وأما أهل البلاد الذين ألفوا هذا الاسلوب فكانوا جد طربين . وهم يقبلون أشد الاقبال على هذا النوع من التمثيل .

على إنا وان لم نستطب الاوبرا في الصين ، فقد راق لنا شهود التمثيليات الأخرى التي هي من انواع التراجيدي والهزليات ، ودهشنا من العاب الفرق الاكروباسية التي لم يحرم أهل الشرق الادنى من رؤيتها والاعجاب بها حينما طافت احدى هذه الفرق في بلادهم .

وفي الحيّ الذي كان في الماضي سوقاً لتجارة الافيون ، ولتعاطي المسكرات والمخدرات ، ووكراً لدور الفحشاء أقامت

بلدية شنغاي قصراً أسمته دار التسلية . وهو مجموعة مبانٍ كبيرة ترتفع طبقات وتقسم الى أقسام كل منها خاص بنوع من انواع التسلية والترفيه عن النفس . فهنا للتمثيل ، وهناك للألعاب الأكروباسية والسينما وهلمجرا . أما الساحة الكبرى التي تنبسط أمام هذه الدار فهي مفتوحة الابواب لكل الشعب ، فتراها مليئة بالأولاد يتراكضون فيها ويلعبون .

وكان هناك في ناحية من نواحي شنغاي قصر فاخر ذو حدائق كبيرة لأحد الاثرياء فحولته البلدية ايضاً الى قصر للشبيبة الصينية ، وأعدته مقراً لمؤسسة الطلائع . وقد سمي الآن هذا القصر باسم دار الطلائع ، كما سميت حدائقه باسم حديقة سن يات سن أب النهضة الصينية الحديثة .

المعابد في شنغاي

تحفل شنغاي بالكاتدرائيات الفخمة والكنائس المشادة كلها على الطراز الاوروبي ، وهي من منشآت الاوروبيين في العهد الماضي ، ولا تزال آهلة بالمصلين . وفي شنغاي بعض المساجد للمسلمين الذين يقدر عددهم الآن بثلاثين الفاً ، واشهرها مسجد سياوتاويوان . وهو من المساجد القديمة الذي رمم في العهد الحاضر .

وللصينيين في شنغاي معبد قديم يطلقون عليه اسم « معبد الآلهة .» وهو قائم في احد احياء المدينة القديمة التي لا تزال

تحتفظ بطابعها القديم : اسواق ضيقة ودكاكين حقيرة حولها بسطات الباعة المتنقلين التي تعرقل السير . وقد زرنا هذا المعبد فشعرنا بروعة وألم في وقت واحد . شعرنا بالروعة لان هذا المعبد شيد على قواعد فنية توحي الاعجاب والهيبة ، وشعرنا بالألم لتحول هذا المعبد الى شبه سوق قذرة مليئة بصغار الباعة ، وبالأولاد والمتشردين ، ولا سيما باعة البخور والعطور . واذا دخلت المعبد انصرفت عن روعته الى رؤية مشهد من مشاهد الصين القديمة ، وأحسست بخوف من التقاط الميكروبات الفتاكة ، خصوصاً من جراء انحسار الشمس عن قاعات المعبد ، وكثرة الازدحام عند فنائه .

دخلنا القاعة الاولى فاذا بنا نرى صنماً يتصدرها . وهو تمثال هوكونغ احد القادة في عهد امرة خان (٢٠٦ – ٢٤ قبل المسيح) . وعلى جانبي القاعة صنمان آخران لرجلين من اعوان هذا القائد . واذا بفتاة تتقدم وتؤدي الجعل لسادن الغرفة ، وتقوم بالصلاة . تصلي منتصبة أمام الصنم الأكبر ، ثم تسجد حتى تضع جبينها على منضدة خشبية ، وتبقى ساجدة نحو عشر دقائق . ثم تنصرف وتأتي بعدها فتاة أخرى وتعمل عملها ، ولكن هذه ما استوت بعد السجود حتى تناولت من السادن علبة مستطيلة وهزتها بيدها هزات متوالية كان يسمع خلالها رنين خفيف . وكأنها كانت تريد ان تسمع مطالبها بهذه الهزات الى المعبود ، وتلح في التأكيد عليه لاستجابة دعواتها .

ثم اجتزنا الى القاعة الثانية فرأينا صنماً آخر قيل لنا انه تمثال القائد الذي اشتهر ببطولته في الحرب المعروفة بحرب الافيون سنة ١٨٦٠ ، وبدفاعه عن مدينة شنغاي . وان الازلام الأخر التي تنتصب حوله هي تماثيل اعوانه الذين ابلوا بلاء حسناً في تلك الحرب ضد الافرنسيين والانكليز . فأصبحوا كلهم ، على عادة الصينيين من عبادة عظمائهم ، في عداد الآلهة المعبودين .

على ان هذه العادة لا تقتصر على عبادة الامبراطرة والقادة فحسب ، بل تشمل كذلك مشاهير الناس في النواحي الأخرى. ذلك ما تأكد لنا عند دخول القاعة الثالثة التي يطلق عليها اسم إله المدينة . فقد كان هذا الاله من القضاة المشهورين بالعدل . وتقديراً له ولعدله لم يكتفوا باقامة صنم له يعبد ، بل شاؤوا ان يشركوا أبويه في التكريم فنصبوا الى جانبه صنمين آخرين ، واحداً لأبيه والآخر لأمه . وكان يقف السادن عند الصنم ينتظر دوره في مجيء المصلين ، وحوله باعة الشموع والبخور ، وبين أرجلهم يسرح الدجاج فتبعث نفاياتها ، التي تحرثها هذه الدواجن بمخالبها وأظافرها ، الروائح الكريهة . ولما رأيت الذباب يملأ فضاء هذه القاعات ، ويحط على وجوه هذه الآلهة واجسامها ذكرت ما جاء في القرآن الكريم « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . »

وقد شعرت بغبطة حينما انتهينا من زيارة هـذه القاعات المظلمة التي لا تدخلها الشمس إلا لماماً ، وخرجنا بعدها الى الحدائق والسرادق التي تحيط بالمعبـــد الالهي ، والى الغرف المجاورة الخالية من الآلهة . فهناك رأينا النور الطبيعي غير نور الكهرباء ، ورأينا ، علاوة على الدهاليز الضيقة والسلالم الحجرية المنمقة ، بعض النقوش الصينية القديمة البديعة . وقد وقفنا برهة أمام لوحة أثرية رخامية مشبكة الاجزاء على نحو ما يسمونه ارابسك نسبة للعرب ، بالاضافة الى ما رأيناه من أشكال اخرى هندسيـة كنا نراها في زينة بعض القصور . وقد تساءلت امام هذه اللوحـة اذا كان العرب قـــد اقتبسوا من الصين فن الأرابسك أبان نزول جالياتهم في الصين خلال القرن السابع وما بعده ، أم ان الصينيين انفسهم اخــذوا هذا الفن م العرب .

ثم خرجنا من نطاق هذا المعبد بنتيجة لا مراء فيها مدارها ان الطبقة الراقية من الصينيين ، وخريجي مدارس العهد الحاضر وان ارتدّوا عن وثنيتهم وعزفوا عن دين آبائهم وانقسموا في ذلك الى فئتين : فئة ملحدة ، وفئة لا تزال تتلمس ديناً آخر لتؤمن به ، فان لفيف الشعب لا يبرح متمسكـــاً بوثنيته ، ويحافظ على شعائر دينه الموروثة .

المؤسسات الاشتراكية والرأسمالية

بعد انتصار الثورة في عام ١٩٤٩ وضعت الجمهورية الشعبية

دستورا للصين قام على قواعد الماركسية . ولكن هذا الدستور اعترف بالاقليات وحقوقها ولم يتعرض بسوء للرأسمالية ، ذلك لان الدولة الجديدة ، التي اخذت على عاتقها مهمة توحيد اتجاهات الصين الاجتماعية ، عرفت ما للطفرة من مساوىء فاختارت ان تستعين بالزمن وبالمدارس لبلوغ القصد .

لذلك فانك كما تجد الآن في الصين وثنيين على دين آبائهم وقوميين يحافظون على أصولهم ، ورأسماليين يحتفظون بثرواتهم فانك تجد ، الى ذلك ، في نطاق الزراعة والصناعة والتجارة اعمالاً حرة الى جانب التعاونيات الاشتراكية . وهذه التعاونيات منها ما اممّ واصبح ملكا صرفاً للحكومة ، ومنها ما هو متجه للتأميم بطريق الشراكة بين الحكومة وبين الرأسماليين .

على ان الدولة وان لم تلجأ الى العنف للقضاء على الرأسمالية الا انها تعمل عملا ايجابياً في سبيل انقراضها . ذلك انها تمنح المؤسسات المؤممة مساعدات كثيرة ، سواء اكان ذلك في تأمين ادواتها وموادها الخامية ، او في تصريف انتاجاتها ، بينما تحرم الاعمال الرأسمالية من هذه المساعدات ، حتى لا يبقى في طاقتها تحمل اعباء المزاحمة . وتحت هذا الضغط يضطر الرأسماليون لان يقبلوا على مشاركة الحكومة في متاجرهم او معاملهم ومزارعهم بغية الحصول على مثل هذه المساعدات ، وبغية الحصول على رعايتها ، وقصد الحفاظ على بقائهم في الصراع الاقتصادي الوطني الى حين .

وهذا ما رأيته في بكين حينما زرت مزرعة اعدت لتربية

البط ، وحينما زرت مصنعين احدهما لصنع التحف العاجية ، والآخر لصنع التحف النحاسية Crasoné Produces Coopératif Nº 1 وكذلك حينما زرت معمل النسيج رقم ١٦ . وهـــذا ما شاهدته ايضاً عندما زرنا في شنغاي معمل غزل القطن رقم ٣ ، وهو احد معامل شركة يونغ ـ آن .

وليس المجال فسيحاً للتحدث عن كل هذه المزارع والمعامل ؛ لذلك فانا اكتفي بايراد لمحة عن هـــذا المغزل لتبيان تطور هذه المؤسسات ، وانتقالها تدريجياً من الرأسمالية الى التأميم .

تأسس هذا المعمل في عـــام ١٩٢١ ، وفي سنة ١٩٢٨ ابتاعه بعض مهاجري الصين الى اوستراليا ، بيـد ان اصحابه لم يلبثوا ان رؤا في سنة ١٩٥٥ من منفعتهم تحويله الى شركة تعاونية يكون للحكومة نصيب فيها بغية ادراك مساعدانها .

على ان الحكومة كان لها ، قبل ان تصبح هـذه الشركة تعاونية ، اشراف على اعمالها ، ولها ممثلون في نقابة عمالهـــا بغية المحافظة على حقوق العمال ، ولكن لم يكن لها دخل في ادارتها . اما الآن وقد تحولت الى تعاونية فقد اصبح للحكومة مساهمة في ادارتها . وانتدبت من قبلها ممثلا هو بالاضافة الى مدير الشركة ورئيس مهندسيها ، يؤلفون مجلسها الاداري .

وقد استفادت هذه التعاونية من الحكومة فـائدة كبيرة حتى صار لها خمس معامل كلها في شنغاي تضم ٣٣٥٠ عاملا ، بينهم ٢٠٠٠ فتاة . ولها مجلس اداري اعلى يشرف عليها يشترك فيه بعض السيدات . اما الاعمال الادارية فقـــد توزعت بين

ممثلي الحكومة وبين ممثلي اصحاب المال . فممثل الحكومة يتولى تأمين الانسجام بين الشركة والعمال ، واما المدير الذي يمثل الرأسمال فهو الذي يقوم بادارة الشؤون المالية ، وبمهمات الشراء والبيع .

والفوائد التي جنتها الشركة من تعاونها مع الحكومة هي كثيرة . فقد امنت لها الادوات الجديدة ، وامدتها بالمساعدات الفنية ، وبالتسهيلات في صدد شراء المواد الخام وبيع مصنوعاتها. هذا فضلا عن المعونات الصحية والثقافية . وكان في عداد المساعدات الصحية انشاء مستشفى خاص لمعامل التعاونية الخمسة ، واما المساعدات الثقافية فمدارها تأمين التعلم المجاني لاولاد العمال .

وكان يدلي لنا بهذه المعلومات احد مدراء المعمل الذي زرناه . وقد سألناه اذا كان للعمال نصيب من ارباح الشركة . فقال لا ، وانما هم مأجورون . واجرة العامل الشهرية ٧٠ ينا ، اي ما يعادل تسعين ليرة لبنانية . غير ان للعمال تعويضاً على ضآلة اجورهم ، وذلك بتأمين الطعام لهم باثمان بخسة ، وبتأمين مساكن باجور هي دون امثالها في البلدة . هذا فضلا عن ان التعاونية تأخذ على عاتقها تقديم الاستشفاء والدواء والتوليد والتعليم وغيرها مجاناً .

واضاف محدثنا الى ذلك قوله : ان العامل اذا سكن في دار من دور التعاونية فلا يؤدي اجرة مسكنه اكثر من ين ونصف الين في الشهر (أي نحو ليرتين لبنانيتين) ، بينما هو

اذا سكن خارج دور التعاونية فيضطر لان يدفع اجرة داره من اربعة الى خمسة ينات . وأما الأعزب من العمال ، الذي يكتفي بسرير في احدى قاعات دور التعاونية ، فهو لا يؤدي شيئاً . وقال محدثنا ايضا لمن عدد العمال في المعمل الذين لا يؤدون اجرة عن مساكنهم يبلغ مايتين ، بينما ان عدد الذين استأجروا مساكن لعيلهم في دور التعاونية يبلغ ١٨٠ عاملاً .

ونحن في غمرة من الاعجاب بهذا التنظيم سألنا محدثنا عن اثمان وجبات الطعام فأجاب : ان الفطور في مطعم التعاونية لا يكلف العامل اكثر من ٣٣ سنساً (اربعة قروش لبنانية) . وحينئذ زال عجبنا من رخص أجور العمال في الصين ، وتمنينا لو ان عمالنا الذين يشكون من غلاء أجور المساكن والمأكولات والتطبيب والعلاج والمدارس يدركون ما ادركه عمال الصين وغيرهم من الضمان الاجتماعي وذلك فعلاً لا قولاً .

الناحية الثقافية في شنغاي

تعتبر بلاد الصين في طليعة بلاد العالم ثقافة في التاريخ ، وقد عرف الصينيون صناعة الطباعة قبل غيرهم ، واصدروا الصحف والكتب قبل صدورها في اوروبا ، فازدادوا بذلك معرفة على معرفة . ثم أصابهم ما يصيب كل أمة من الاحداث السياسية التي أشغلتهم عن المعرفة وهوت بمدنيتهم الى الحضيض فاستعاضوا عنها بالذكريات . ولما انتشر التمدن الحديث وشق

الاوروبيون طريقهم الى الصين بالقوة كانت سواحل الصين الجنوبية أسبق من سواها الى اقتباس هذا التمدن وذلك بما توفر لها من الاختلاط بالعالم الجديد ، وبما انتشر فيها من الارساليات الدينية ، وبما أوفدت من ابنائها الى المعاهد الاوروبية .

وكانت مدينة شنغهاي ، مثل بيروت في بلاد الشام ، في طليعة الثغور الصينية تلقحاً بجراثيم التمدن الحديث سواء ما كان منها نافعاً أم ضاراً . ثم كان لها نصيب وافر من عناية حكومة الثورة لأنها اكبر المدن الصينية وكان في عداد هذه العناية اهتمام الحكومة باقامة المعاهد فيها والمدارس .

وكان علينا ، ونحن في شنغهاي ، ان نزور احد معاهدها الكبرى لنشاهد عن كثب نموذجاً من نماذج دور الثقافة فيها ، ولمعرفة أساليب الانظمة المتبعة . وقد قصدنا الى دار المعلمين العليا . وفي طريقنا اليها اجتزنا شوارع عريضة نظيفة تقوم حولها مبان كبيرة وأنيقة اكثرها مسقوف بالقرميد الأحمر شأن بيروت في ماضيها ، ومحاط بالجنينات ، وهي من مخلفات الاوروبيين . غير انا رأينا الحلة العمرانية تنقلب رأساً على عقب في الضاحية حيث تقوم دار المعلمين العليا في حي من الاحياء الصينية القديمة . فاذا بنا نمر بطرق غير معبدة وغير نظيفة . واذا بنا نفاجأ ببيوت هي أقرب للأكواخ منها للدور ، واذا بنا نرى سكان تلك الاكواخ على حال من الفقر المدقع . ولشدة فقر بعضهم اتخذوا واجهات مساكنهم دكاكين للبيع والشراء ، واكتفوا بما تبقى منها كمنازل لهم ولعيالهم .

وفي غضون ما كنا نمر في ذلك الحي ذكرنا ما رأيناه في بكين من امثالها . طرقاً معوجة تقوم حولها بيوت متلاصقة ذات سقوف واطية ، وذكرنا ايضاً شدة التشابه في القديم بين الصين والشرقين الأدنى والأوسط في هندسة الدور والتصاق بعضها بالبعض الآخر ، وفي صدد تقسيمها الى قسمين : قسم خاص بالاستقبال ، وقسم خاص بسكنى الحرم . هذا فضلاً عن تشابه البلدين في تسوير المساكن بالجدران حتى لا ترى جمال بعض الدور إلا اذا دخلت اليها مع وجود فارق واحد مداره ان بيوت الشام مثلاً كانت ترتفع الى طابقين ، بينما ان دور الصين الشعبية القديمة كانت تقتصر ، إلا ما ندر ، على طابق واحد .

ومصدر هذا التشابه يرجع الى أمرين : أولهما الى تقارب التقاليد والتعاليم المتعلقة بالمرأة التي قامت على أساس الحجاب وعدم الاختلاط بين الجنسين ، وثانيهما الى فقدان الامن خارج سور المدينة في تلك العصور .

غير انا ما ان بلغنا مدخل دار المعلمين العليا حتى انشغلنا عن هذه الذكريات بما تبدى لنا من مناظر تستر عي الانتباه . فنحن أمام محيط جديد تبلغ مساحته ٥٥ هكتاراً ترتفع فيه دور كثيرة عالية شيدت كلها على الطراز الحديث ، وتمتد فيه حدائق ذات شوارع عريضة معبدة تنساب بينها المياه المتدفقة . وما ان استقر بنا المقام في قاعة الاستقبال حتى اقبل علينا رئيس المعهد ومديره ورحبا بنا . والقاعة مزدانة الجدران بلوحات مرفوعة عليها صور بعض الابطال . فعلى هذا الجدار

صور لينين وستالين وأنجلس ، وعلى ذاك صور ماوتسي تونغ وشوآن لاي وسان يتسن وغيرهم .

ودار الحديث حول هذه المؤسسة ، فتلخصت لنا المعلومات التالية : (١) عدد التلاميذ ٥٠٠٠ (٢) مدة الدراسة اربع سنين (٣) عدد الاساتذة ٧٠٠ (٤) عدد موظفي المعهد ١٣٠٠ (٥) عدد الكتب في المكتبة ستون الف كتاب .

واما التعليم فهو مجاني ، واذا ثبت للادارة ان احد التلامذة فقير فيمنح هذا عشرون يناً في الشهر ، أي ما يناهز ٢٥ ليرة لبنانية . وأما معدل نفقات التلميذ الداخلي التي تأخذها الحكومة على عاتقها فهو الف ين في العام ، أي نحو ١٣٠٠ ليرة لبنانية.

هذا وقد طاب لنا بعد هذه المعلومات عن دار المعلمين العليا ان نتطرق الى بحث حالة المعارف في شنغاي على وجه عام . فحدثنا الرئيس عن جامعة شنغاي ، وعن عشرين معهداً غيرها من معاهد التعليم في هذا الثغر . وانا نضرب صفحاً عن ايراد كل ذلك حبا بالايجاز ، ولكننا نجد من المفيد اثبات المعلومات التي تتعلق بمرتبات المعلمين ونفقاتهم للتعرف الى هذه الناحية الاجتماعية . فقد علمنا ان المرتب الشهري للاستاذ يتراوح بين ١٧٠ و ٣٧٠ يناً ، بما يعادل ٢٢٥ و ٤٥٠ ليرة لبنانية . واذا كان الاستاذ متزوجاً فلزوجته راتب اضافي ، واذا بلغ سن التقاعد تناول مرتباً دائماً يقدر بقدر السنين التي قضاها في التعليم ، وبنسبة مرتبه الاخير .

وقد بدا لنا ان هذه الرواتب غير قليلة بالنسبة لامثالها

في البلاد العربية على وجه عام . بل انها وافية نظراً لما يستفيده المعلم هنـاك من معونات من جراء تطبيق الضمان الجمـاعي على حقيقته .

وبمقتضى هذا الضمان فان المعلم المتزوج يؤدي اجرة مسكنه في احدى المؤسسات الثقافية ثلاث ينات شهريا (٥٢٠ غرشا لبنانيا). والمسكن مؤلف من اربعة غرف صحية . وامـا الاستاذ الاعزب الذي يكتفي بسرير في احدى قـاعات المؤسسة فلا يدفع اكثر من ٤٠ الى ٥٠ سنتيما من الين في الشهر ، اي ٥٠ الى ٦٥ غرشاً لبنانياً . وعلاوة على ذلك فان الاساتذة يستفيدون كغيرهم من سائر المنافع العامة التي تعدّها الحكومة للشعب كالتطبيب والتعليم ، كما يستفيدون ايضاً من تحديد اثمان الحاجيات العامة .

العودة الى بكين – طائرة تو ١١٤ A

كنت عقدت العزم على ان أسافر من شنغاي الى اليابان . ولكن هاتفاً ورد الى مرافقي تنغ–من من قبل لجنة السلام في بكين حملني على التحول عن هذا القصد ، وعلى ان أعود أدراجي الى بكين لأستقل منها الطائرة الى موسكو عائداً الى بيروت . ذلك اني كنت في غضون وجودي في الصين سمعت بالطائرة الروسية العجيبة . طـائرة تو ١١٤ A المعدودة بين عجائب الاختراعات الميكانيكية التي فاجأ الاتحاد السوفييتي

بها العالم في السنين الاخيرة . وما كان مرد ذلك لضخامة حجمها ، ولتوفر اسباب الراحة فيها فحسب ، وانما لسرعتها السرعة الشديدة . وقد كنت أعربت الى اصدقائي في بكين عن رغبتي في العودة على هذه الطائرة اذا كان في وسعهم حجز مكان لي فيها ، وإلا فانني سأواصل الرحلة الى اليابان . وكان الأمل ضعيفاً في تأمين كرسي لي باحدى هذه الطائرات لأنها عزيزة المنال الى حد ان المسافر يترتب عليه ان يحاول حجز مكان له فيها قبل شهر أم اكثر . فلما أتاني النبأ بالهاتف بان أمنيتي قد تحققت عدلت عن متابعة الرحلة الى اليابان ، على أن أزورها في سنة قادمة ، واعتزمت العودة الى بكين .

وعلى انتظار الموعد المحدد للسفر من بكين قضيت فيها يومين زرت خلالها ما فاتني زيارته من قبل ، وأخص بالذكر منها المخزن الحكومي الكبير ، وسوق البازار وبعض التعاونيات ، ولكني لن أتعرض اليها حباً بالاختصار .

وغادرنا بكين في ٨ تشرين الأول ١٩٥٧ على احدى طائرات تو — ١١٤ A فنسينا مذ حلقت اننا لا نزال من سكان الارض ، ذلك لأنها ارتفعت بنا الى علو ٣٥ الف قدم في السماء حتى خفيت الارض عن الانظار ، وكذلك السحاب ، وسارت مسرعة في أعالي السماء تقطع تسعماية كيلومتر ونيفاً في الساعة ، فاذا بنا نبلغ موسكو في ثماني ساعات فقط ، بينما كنا قضينا اكثر من ثلاثين ساعة ابان المجيء من موسكو على طائرة اليوشن الى بكين . وبعد ان قضينا يومين في موسكو

غادرناها قاصدين الى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا على نفس الطائرة فأدركناها بعد ساعتين ونصف الساعة بدلاً من ثماني ساعات على الطائرات الاخرى .

والجدير بالذكر في سياق الكلام على طائرة تو ان هذا النوع من الطائرات الروسية صنع على غير شكل سائر الطائرات السوفييتية التي ليس فيها إلا درجة واحدة. فهو فضلًا عن تقسيمه المقاعد الى درجتين : أولى وثانية ، فقد استوفى كل اسباب الراحة والرفاه للمسافرين . فاتساعه ورياشه وخدمته ونظافته وأمكنته الصحية ، كل ذلك يجعل من هذه الطائرات نوعاً لا تضاهيه أحسن طائرات العالم .

فالقاعة ذات الدرجة الاولى التي تأتي في المقدمة ، لا يوجد فيها سوى ستة عشر مقعداً ، بينما ان قاعة الدرجة الثانية تضم اربعة واربعين مقعداً . وبين القاعتين غرفة المضيفات ، وفي مؤخرة الطائرة غرفتان « للتواليت » احداهما للرجال والأخرى للنساء . وهذه البادرة : بادرة الاعتراف بوجود طبقتين تعتبر قسرية بالنسبة لروسيا التي تحاول ان لا تعترف بوجود طبقات بين الشعب ؛ ولا بدع فان نظام الطبقات الاجتماعية أمر طبيعي ، وليس بوسع الانسان ان يقضي عليه مهما نادى بالمساواة .

⊠⊠⊠⊠

الفصل الرابع

انطباعاتي عن الصين وملحوظاتي

لقد رافقني القارىء الكريم في رحلتي الى الصين ، وشاهد بعيني معالمها ومرافقها وشعبها ونهضتها ومهرجانها الوطني في اول تشرين الأول ١٩٥٧ ، وسمع بلساني نتفاً من تاريخها القديم والحديث ، ولكنه لم ينفذ ، مع ذلك ، الى ضميري ليتعرف الى ما يدور في خلدي من تقريظ لها ، أو من نقد . لذلك فاني ، وقد نعمت بمرافقة القارىء في هذه الرحلة ، اجد من واجبي ان أكاشفه بملحوظاتي التي دونتها اثناء هذه السياحة ، وان أعرب له عن مشاعري وافكاري . على اني لا انتظر ان يوافقني كل القراء على ما ابدي حيناً من تقريظ ، أو حيناً من انتقاد ،

ولكني أترقب ان يجدوا لي العذر لاني لا أقول إلا ما اعتقد دون ان يكون لي من وراء ذلك غرض أم غاية.

الصين كما كنا نتخيلها

ذهبنا الى الصين الحديثة، وما نعلم عنها إلا انها تبلشفت مذ قامت فيها حكومة الثورة سنة ١٩٤٩، وانها أمست بكل معنى الكلمة شيوعية على غرار الاتحاد السوفييتي.

وذهنا اليها متأثرين بما كتب عن عهدها الماضي، وبما وجه اليها من مثالب في عهدها الحاضر. وكنا في الجملة نتخيل انها لا تزال على ما وصفها به كتاب منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، في اوائل هذا القرن، حيث قال:

«هي أول مملكة في العالم في كثرة السكان. والنمو فيها سريع جداً، إلا ان نوائب الاوبئة وطغيان الانهار بها، والجدب الذي يعتريها أحياناً ينقص منهم العشر.

«وقد كان من عادات الحكومة الصينية سابقاً التحجير على أهاليها من الخروج منها. ألا ان ضنك المعيشة بسبب قلة طرق التعيش، ولكثرة الاهالي التي كانت تضطرهم للسكنى على الالواح الخشبية والقوارب في المياه، أجبرت الحكومة على اطلاق الحرية للاهالي في الخروج من أوطانهم الى جهات أخر سعياً وراء معاشهم. وأما جنسهم واخلاقهم وعاداتهم فهم قوم صفر الالوان، سود الشعور، عيونهم صغيرة مع ضيق وغور قليلو

الطول . ومن أخلاقهم الكسل والغش والخداع . ولكنهم اهل فطنة وقابليـة . ولولا سلطة الأفيون على افكارهم لحازوا على درجات التقدم بين بقيـة الامم . ولكن استيلاءه عليهم اساء حالهم ، وسلب منهم الصفات الحميدة ، واورثهم كل خصلة ذميمة . ومن عاداتهم لبس الملابس الواسعة المكونة من سروال عريض وجبة قصيرة واسعة . وهم يحلقون رؤوسهم ، ويبقون وسطها فيتكون منه ذؤابة طويلة مرسلة عن ظهورهم الى سوقهم . ومن عادات اشرافهم اطالة بعض اظفار انامل ذكورهم ، وتصغير اقدام نسائهم بحبسها في احذية من الحديد من الصغر بحيث لا تستطيع المشي بعد ذلك فتُحمل على الأعناق . ومنها ان من كان له اولاد ، وضاقت حاله عن معيشتهم يسوغ له القاؤهم في البحر او النهر ، الا انهم اخيراً وجدوا طريقاً آخر للتخلص منهم فصاروا يبيعونهم . ومنها انهم يتزوجون امرأة واحـــدة ويعدونها الزوجة الشرعية الرسمية ، ويتخذون كثيراً غيرهـا على انهن سراري . ومنها أنهم مطلقو الحرية في المأكولات فلا يغادرون شيئاً منها اصلًا : فيأكلون جميع الحيوانات البرية والبحرية حتى الافاعي وحتى الحيوانات الدنيئة كالجرذان والفيران ونحوهما . وتباع ميتة في الاسواق .

« وامـــا معارف الصين فمتأخرة جداً لصعوبة تعلم لغتهم . والجهل ضارب اطنابه بها حتى ان ٩٥ في المئة جاهلون القراءة والكتابة . وليس عندهم من العلوم سوى الخرافات كالشعوذة ، وضرب الرمل والتنجيم وما اشبه ذلك . الا ان الدعوى عريضة عندهم بحيث يرون انفسهم اعلم اهل الارض استصحاباً لحالتهم

الأصلية حيث كانوا ارقى دولة في العلوم القديمة اﻫ . »

وهذه الصورة التي صورها مؤلف منجم العمران هي صحيحة بالنسبة للصين في عصر صدور ذلك الكتاب . ولما ذهبنا اليها كنا نحمل هذه الصورة معنا ونحسبها لا تزال في جملتها تنطبق على وجه الصين الحديثة .

ولكنا ما ان ادركنا بكين حتى تساءلنا اين اولئك الصينيون الذين وصفهم محمد أمين الخانجي مؤلف هذا الكتاب ؟ ولولا ان الوجوه التي وصفها هذا المؤرخ لا تزال كما هي ، لكدنا نرتاب في اننا نازلون بين اهل الصين . اجل فان الثورة وحكومة الثورة القائمة تمكنت في بضع سنين ان تخلق الصين خلقاً جديداً ، وان تستبدل امة بأمة .

حقاً ان التطور الصيني لا يرجع مبدؤه الى سنة ١٩٤٩ فحسب حين انتصر ماوتسيتونغ وصحبه على شنكاي شك ، وانما يعود الى اواخر القرن الماضي حينما فتحت ابواب الصين ، وهاجر من اهلها من هاجر ، واقبل من شبانها من اقبل على الجامعات الأجنبية في المهجر ، وزحف اليها الاجانب . ولكن كل ذلك كان أثره بطيئاً وقليلاً بالنسبة لما ادركته الصين الآن من تقدم .

واما الانقلاب الحقيقي الذي حدث في الصين فيعود الى الانقلاب السياسي الاخير . وقد كنت لشدة اعجابي بهذا الانقلاب الاجتماعي الفجائي أتساءل اذا كان لا يشبه كثيراً ما

حدث من هـذا القبيل في جزيرة العرب عقب انتشار رسالة الاسلام .

الانقلاب الاجتماعي والاخلاقي

لما نجحت الثورة الشيوعيـــة في الصين واستأثرت بالحكم انصرفت الجمهورية الى بث روح جديدة بين الشعوب الصينية مسترشدة بالمناهج السوفيتية ومتعاونة مع السوفييت في اصلاح شؤون البلاد .

وكان الحافز لها على ان تستهل اعمالها التجددية بذلك علمها بأن كل اصلاح لا ينبثق عن روح الشعب يعتبر فاشلًا . هذا بالاضافة الى علمها بان الاصلاحات الاجتماعيـــة ، في النواحي العمرانية والاقتصادية والاخلاقية وغيرها ، انما يتطلب وقتـــاً طويلًا لا بد ان تستعين عليه بالزمان .

وعلى هذا الاساس تعاونت الدولة مذ استتب لهـا الامر مع الحزب الشيوعي من أجل اقنـاع الشعوب الصينية بان الافراد هم مصدر كل سلطـة ، وانهم خلقوا متساوين ، ويجب ان يعيشوا متساوين ، لا فضل لاحدهم على غيره إلا بالعمـل والانتاج ، وان المرأة والرجل صنوان في المرتبة الانسانية ، وكلٌ منهم مسؤول أمام السلطة بمقدار كفاءتــه ، وان الافراد الذين هم جند الدولة ، لهم عليها حقوق لا تقتصر على حماية الضعيف من القوي ، وانمـا تتناول الترفيـــه عنهم ، ووقايتهم من الجوع

والمرض والجهل .

وقد نجح القيّمون على الحكم في هذه الناحية النفسية ، كما نجحوا في النواحي المادية فاذا بالصين تمشي الى الامـــام في التجدد ، وفي العزوف عن القديم البالي . ولا يرجع الفضل في هذا النجاح الى ما بذلوه من جهود جبـــارة فحسب ، بل لاستفادتهم ايضاً من خبرة اربعين سنة أحرزهـا الروس في العهد الجديد . فاذا بالشعب الصيني يبدو الآن وكأنه من طينة غير طينة آبائه وأجداده ، يبدو جديـــداً في كل شيء وجديداً ليس في المظاهر فحسب ، بل في الاخلاق ايضاً والتقاليد والعادات .

فالآن لم يبق أثر للألبسة القديمة الفضفاضة والمزركشة إلا في الاوبرا حيث يمثلون أدواراً من التاريخ . والنـاس جميعهم نساء ورجالاً من رئيس الجمهورية الى العامـل في المصنـع او المزرعـة يرتدون في اوقات العمـــل اثواب العمال الزرقاء المؤلفة من سترة وبنطلون ، على ان هذه الالبسة تنم عن مـا ورائها من روح وثابة كأنها تقول « **نحن خلقنا للعمل ، وها اننا للعمل سائرون .** »

والآن لم يبق اثر لعـادات الاشراف من تطويل الرجال اظافر ايديهم ، وتقصير النساء اقدامهن ، بل كنا اذا رأينا نادراً امرأة مصغرة القدمين من بقايا العهدالقديم نقف للفرجةعليها مشفقين لانها تمشي على وهن .

والآن لم يبق اثر لحلق الرؤوس وارسال ذؤابات طويلة

من قمة الرأس حتى الظهر ، بل اصبح قص الشعر عند الرجال لا يختلف عما هو مألوف عندنا وفي سائر العالم ، كما اصبح تزيين الشعر عند النساء غربي الزي ، وان لم يبلغ حد التصنيف مع بقاء عادة ضفر الشعر وارسال الضفائر .

على ان التبدل في المظاهر جاء نتيجة لتبدل الاخلاق والافكار . فقد نشبت في الصين ثورة على كل قديم تناولت العقول قبل المظاهر . فلم يبق هناك كسل ولا غش ولا خداع ، أو كاد ، بل وجدنا هناك شعباً يثير نشاطه الاعجاب . ويبدو هذا النشاط ظاهراً في الوجوه والحركات ، فتراهم في الشوارع يمشون خفافاً ، وتراهم في المزارع والمصانع ، كما في المدارس والمتاجر ، يعملون بنشاط واطمئنان وكل واحد منهم يعتبر نفسه هو الأمة وهو الدولة ، ولذلك فهو يعمل لنفسه .

وأما الخداع والغش فلم يتسنّ لنا أن نلمس شيئاً منهما ، وانما أتيحت لنا بعض فرص برهنت لنا على صدق المعاملة ، ولا سيما في المتاجر ، فكنا اذا اشترينا شيئاً نطمئن الى الاثمان المحددة ، ونطمئن الى قول البائع في صدد الأجناس والانواع ، خصوصاً في مخازن الفراء والأحجار الكريمة حيث لا يفرق بينها إلا أهل الاختصاص .

وقامت على انقاض الارستوقراطية الصينية ، التي كان أصلها في الارض وفرعها في السماء ، ديموقراطية حقيقية . فترى الشعب هناك يشعر بمكانته ، ويشعر كل فرد منه بأنه مصدر السلطة ، واذا تحدثت الى أحد منهم في حديث تراه يردد كثيراً

اسم الشعب ، ويلوح كثيراً بما يشير الى ان السلطة منبثقة من الشعب وفقاً لتعاليم ماركس وانجلس .

على ان الحكومة ، التي هي مصدر هذه التعاليم ، لم تقتصر على الخطب والمقالات في الارشاد والتوجيه ، بل اختارت طرقاً عملية كانت أبلغ من الكلام . وقد أتيحت لي فرصة رأيت فيها مثالاً على هذا الارشاد العملي . وجاء هذا المثال بالاضافة الى ما لمسته من تواضع زعماء البلاد ، في مناسبات أخرى ، برهاناً على تمتع كبار الرؤساء بنصيب من الديموقراطية لم أشاهد مثله في روسيا ولا في غيرها . ذلك اني كنت دعيت من قبل الحكومة الى أمسية طرب اقامتها عشية عيد اول تشرين الأول ١٩٥٧ في الباحة الكبرى التي تعلو مدخل القصر الملكي وذلك تكريماً لرؤساء الوفود الرسمية . وكانت حفلة زاهرة ازدانت بعرض فني مختلف قامت به تباعاً فرق التمثيل والرقص والغناء والالعاب الاكروباسية ، تلك الفرق التي أمت العاصمة من أطراف الامصار لمناسبة مهرجان العيد .

وقد حضر الحفلة رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة وغيرهما من أركان الدولة . وكان شوآن لاي رئيس الوزراء يجلس أثناء العرض في الصف الاول ، وحوله بعض أتباعه فاذا بي أراه ينهض ويذهب ، فتساءلت عن سبب انصرافه قبل نهاية الحفلة ، ولكني لم ألبث ان أدركت السبب . ذلك انه شعر بالبرد فقام بنفسه ومشى الى المكان الذي كان يعلق فيه معطفه (كبوته) فتناوله وجاء به الى حيث كان يجلس ولبسه دون

ان يخف أحد من مرافقيه لمساعدته على ارتداء السترة . فقلت بنفسي مرحى لهذه الديموقراطية . وتساءلت لو ان زيـداً أم خالداً من رؤساء البلاد الاخرى احتاج الى سترته في حفلة من الحفلات وشاء تواضعه ان لا يكلف أحـداً باحضارها له ، ثم حاول ان يلبسها هل كان مرافقوه يلزمون مقاعدهم كأن لم يعرض شيء أم انهم يتسابقون في المبادرة الى مساعدته ؟

هذا الى ان الصين لم تمنع التسري وتعدد الزوجات فحسب ، وانما ألغت ايضاً البغاء المرخص ، وكافحت الدعـارة السرية . وقد رأيت في بلاد العالم كثيراً من خلوات طلاب اللذة بين الاحراج والحدائق العامة وسائر المتنزهات ، أما في الصين فلم أشاهد شيئاً من ذلك إلا مرة واحدة حينما زرت القصر الشتوي . فقد صادف اني رأيت شاباً وشابة ينتحيان مكاناً عاليـاً في زاوية من حدائق القصر ، وهما اذ يستظلان بظل اشجارهـا الباسقة مسروران بهذه الخلوة التي لم يكن فيهـا شيء من الابتذال .

الضمان الاجتماعي

في بلاد العالم الراقية ، وحتى في بلادنا قوانين سنت للضمان الاجتماعي هدفها رفع مستوى العمال وحمايتهم والترفيه عنهم ؛ وأما في الصين الحديثة ، حيث يطلقون كلمة عامـل على كل افراد الشعب اسوة بالاتحـاد السوفييتي وحيث يعتبرون افراد الحكومة ايضاً من طبقة العمال ، فان الضمان الاجتماعي له شأن

عندهم ليس كمثله شأن في العالم الديموقراطي .

وقد نهجت الصين نهج الاتحاد السوفييتي في تنفيذ مضامين هذا النظام على حق ، واستعانت على ذلك بالنقابات ، ثم لم تجعل هذا النظام وما فيه من منح ومساعدات محصوراً بالعامل والمزارع والتاجر ، بل جعلته يشمل الشؤون العامة .

ففي الناحية الصحية أخذت حكومة الثورة على عاتقها وسائل الوقاية والمعالجة . فالطبيب والعلاج والمستشفى ودار التوليد والمصح كل ذلك أصبح موفوراً بالمجان يستفيد منه الفقير ، كما يمكن ان يستفيد منه الغني . هذا فضلاً عن عناية الحكومة بالاعمال الرياضية عنايتها بتجفيف المستنقعات واقامة السدود ومنع الافيون والمخدرات . فكان من عواقب كل ذلك ان تمتّع افراد الشعب بصحة تراها بادية على وجوههم ، وان قضي القضاء المبرم على الأمراض الوافدة كالطاعون والكوليرا والجدري تلك الاوبئة التى كانت ، في الماضي ، تكتسح البلاد ، وتحصد عدداً كبيراً من اهلها .

وفي الناحية المعاشية كان الحرمان بالأمس نصيب السواد الاعظم من الشعب . بينما كانت فئة من الناس تستأثر بالخيرات والثروات . أما الآن فقد أصبح مستوى معيشة الشعب على وجه عام مرضياً أو قريباً من المرضي ، وأمنت الأعمال للجميع حتى تكاد البطالة تصبح أمراً منسياً ، وحتى صار الاستجداء شيئاً مشيناً . والفقير يُعيله أهله ، أو تساعده المؤسسات الخيرية ، واذا حن" قلبه لعادة الشحاذة التي كانت جارية من قبل التزم التستر .

على ان المرتبات وان كانت قليلة وهي دون الوسط ، ولكنها تصبح كافية للعيش عيشة وسطى إذ تقرن بالمساعدات التي ينص عليها قانون الضمان الاجتماعي .

وفي الناحية الثقافية تكاد الأمية تزول بما انشأت الحكومة من مدارس في جميع المناطق وحول التعاونيات . هذا فضلاً عن الجامعات والكليات في أمهات المدن التي ارتفع مستوى التعليم فيها تدريجياً . وحسبنا ان نعلم ان عدد الذين تخرجوا في العهد الحديث من هذه المعاهد العالية بلغ ٣٦٩ الف عالم اختصاصي لنقدر ما أصابته الصين من مستوى رفيع في الثقافة .

وقد رأت الحكومة في لغتها المعقدة ما يقف في وجه مماشاة ركب الثقافة العالمية ، ونشر المعارف بين الشعب فأخذت تفكر جدياً في استبدال الاحرف اللاتينية بالاحرف الصينية . وقد وضعت مشروعاً لهذا الاصلاح .

وأعارت الحكومة اكثر اهتمامها للناحية الزراعية على اعتبار ان الصين هي بلاد زراعية . واذ كانت الاراضي قبل الثورة موزعة توزيعاً مجحفاً : ستون في المئة منها كانت ملكاً للاقطاعيين الكبار ، وخمسة وثلاثون في المئة كانت ملكاً لصغار المالكين ، وخمسة في المئة فقط كانت موزعة بين سواد الشعب فقد عمدت الحكومة لحل هذه المشكلة وفقاً للمبادىء الشيوعية . على انها لم تفرط ، بل راعت ظروف البلاد الخاصة . وقد اكتفت بمصادرة الاقطاعات الكبيرة ووزعتها على الفلاحين الذين لا اراضي لهم . وأما المزارعون الصغار فلم تتعرض لهم ، وانما

فرضت عليهم اتباع نظام الاصلاح الزراعي ، كما فرضت عليهم ان ينصفوا العمال ، ولا يرهقوهم .

ونظام الاصلاح الزراعي الآن لا يعارض الزراعة الحرة ، ولكنه يقضي بان تكون هذه تحت اشراف الحكومة مشجعاً تحول هذه الزراعة الى تعاونيات . والتعاونيات هي على قسمين : قسم يقوم على اساس شراكة بين اصحاب الارض دون ان يكون للحكومة شراكة فيه ، وقسم آخر مؤمم . ويسمى التعاونيات الاشتراكية الكاملة .

والحكومة تقدم لهذا القسم كل وسائل الانتاج ، وتشتري منه كل المحصولات . وهو القسم الذي يقدر له البقاء في الصين لان أحداً غيره لا ينال مثله المساعدات الحكومية .

وفي الناحية الصناعية جرت الحكومة في التأميم التدريجي مجراها في الناحية الزراعية . وقد أدركت في هذا المضمار نجاحاً وافراً ، ولا سيما في حيز الصناعات الثقيلة . لقد كانت الصين ولا تزال مشهورة بالصناعات الخفيفة ، ولا سيما ما كان منها من قبيل الحياكة والوشي والتطريز والزركشة والتحف الخزفية والعاجية ، ولكن حكومة الثورة رأت نفسها احوج الى الصناعات الثقيلة منها للصناعات الخفيفة وذلك لمجاراة العصر ولتأمين السكك الحديدية والسفن والتراكتورات والموتورات ، علاوة على المعدات الحربية والطائرات . فخصصت لهذه الصناعات ٨٨ في المئة من الاعتمادات التي أعدتها للتصنيع ، فاذا بها تصبح خلال سنوات قليلة على استعداد لتصدير المصنوعات الثقيلة .

وآية ذلك عرضها على مصر أخيراً ان تبيعها شطراً من هـذه الصناعات . وتعتبر تشينيان التي نعرفها باسم موكدن ، من قبل ، اكبر منطقة لهذه الصناعات لما فيها من معادن وفحم ، ولما أنشيء فيها من مؤسسات للكهرباء .

وقد شاهدنا نماذج من هذه الصناعات حينما مرت أمامنا ، في مهرجان عيد أول تشرين الاول ١٩٥٧ ، أنواع وأنواع من المعدات الحربية الثقيـلة ، وحينما حلقت فوق رؤوسنا اسراب الطائرات المختلفة ومنها النفاثة .

وفي ناحية المساكن استطـاعت الحكومة بالتعاون مـع التعاونيات الصناعية والزراعية ان تؤمن للشعب شطراً كبيراً من المنازل . ذلك انها جرت مجرى الاتحاد السوفيتي في اشادة مساكن شعبية واسعة ذات طبقـات متعددة تشبه الثكنات تؤجر بأجور رخيصة حتى تكاد تكون رمزية . ذلك بالاضافة الى انها حددت أجور المساكن الأخرى على مستوى واطٍ .

على ان ازمة المساكن ، وان كانت لا تزال مـع ذلك موجودة في الصين كما فى الاتحاد السوفييتي ، ولكن الحكومتين جادتان في تذليلها باقبالهما اقبـالاً شديداً على انشاء المساكن الشعبية في ضواحي المدن . بيد انه لم يبق على كل حال أثر لما ذكر ، صاحب منجم العمران عن اتخاذ بعض اهالي الصين مساكن لهم على القوارب والألواح الخشبية الطافية على الأنهر والبحار ، كما انه لم يبق أثر آخر للصورة التي صور الصين عليها مؤلف الكتاب في مطلع القرن الحاضر .

كل ذلك جعلنا نكبر جهود الصين في نهضتها الحديثة ، خصوصاً وان قطوف هذه الثمرات جاء وليد مشروع السنوات الخمس الأول ، وجعلنا نترقب مستقبلاً زاهراً لتلك البلاد بعد انجاز مشروع السنوات الخمس الثاني .

مشروع السنوات الخمس (١٩٥٣-١٩٥٧)

انصرفت جمهورية الثورة ، في السنين الثلاث الاولى ، لتأمين الاستقرار في بلادها الواسعة ولترميم احوالها الاقتصادية المتهدمة ، ولكنها ما دخلت عام ١٩٥٣ حتى خفت لوضع مشروع عام أسمته مشروع السنوات الخمس توخت به الاصلاح الشامل في الشؤون الصناعية والزراعية والثقافية والصحية .

وكانت الغاية من هذا المشروع ، بالاضافة الى ذلك ، تحويل الصناعات والزراعات والتجارات الى تعاونيات اشتراكية ، وتطوير التعليم والتربية تطويراً يتفق مع المبادىء الاشتراكية .

وقد أرصدت الدولة لمشروع السنوات الخمس ٧٦٦٤٠ مليون ين . خصصت منها ٤٢٧٤٠ مليون ين للانشاء ، وهو مبلغ يعادل ٥٥،٠٨ في المئة من مجموع ما أرصدته لهذا المشروع .

وكانت الصناعة تسترعي اهتمام الدولة اكثر من سواها لأن البلاد كانت ، فيما عدا الصناعات اليدوية ، تكاد تكون محرومة من الصناعات الاخرى ولا سيما الثقيلة منها . لذلك

فقد كان نصيب التصنيع يعادل ٥٨،٢ في المئة من مجموع المبلغ المذكور المرصد للانشاء العام ، على ان تزاد هـذه المخصصات الى ٩٨،٣ في المئة في مشروع السنوات الخمس الثاني .

وقد قسمت الدولة مشاريع الانشاء العام الى فئتين : فئة جعلتها في الدرجة الاولى ، وعددها ١٦٠٠ مشروع ، منها ٦٩٤ مشروعاً صناعياً ، وفئة أدرجتها في المرتبة الثانية ، وعددهـــا ٦٠٠٠ مشروع ، منها ٢٣٠٠ مشروع صناعي .

وما انتهى عام ١٩٥٧ الذي اكتمل به مشروع السنوات الخمس حتى كانت الدولة قد حققت جميع مشاريع الفئه الثانية ، وانجزت ١٢٧١ مشروعاً من الفئة الاولى ، بما في ذلك ٤٥٥ مشروعاً صناعياً . وكان من نتيجة ذلك بروز زيادة كبيرة في عدد الصناعات الحديثة ، وزيادة اكثر في الانتـــاج الصناعي والزراعي وذلك بالنسبة لعام ١٩٥٢ . وتقدر الزيادة في الصناعات الحديثة بـ ٢٦،٠٧ في المئة . وفي قيم الانتاجات الصناعية والزراعية بـ ٢٦ في المئة . بينما ان الزيادة في الانتاج الزراعي لم تتجاوز ٢٣،٣ في المئة عن مثلها في عام ١٩٥٢ .

غير ان الدولة تعتقد ان سبب تخلف الزراعة عن الصناعة في احراز التقدم يعود الى انها لم تتمكن حتى نهاية عام ١٩٥٧ من تحويل الممتلكات الزراعية الفردية الى تعاونيات اشتراكية إلا بمقدار الثلث ؛ لذلك فحرصاً منها على ان لا يبقى التقدم الزراعي متخلفاً عن غيره ترى ان خير وسيلة لبلوغ القصد تكون بجمع ممتلكات الفلاحين والمزارعين لتحويلهـــا الى

تعاونيات اشتراكية ، كما انها ترى من واجبها ايضاً ان تحول الصناعات اليدوية الى تعاونيات بغية زيادة مواردها ، ذلك لأنه رغم ان ارباب هذه الصناعات لم يقبلوا ، خلال مشروع السنوات الخمس الأولى ، على الالتحاق بالتعاونيات إلا بمقدار الربع فقد ازدادت موارد صناعاتهم ٩و٦٠ في المئة عما كانت عليه في سنة ١٩٥٢ .

وأما في الناحية الثقافية والتربوية فقد أتيح للحكومة أن تدرك ، بمشروع السنوات الخمس الاول ، نصيباً أوفى في النجاح إذ ازداد عدد المؤسسات الثقافية ١٢٧ في المئة عما كان عليه عام ١٩٥٢ ، وذلك على الوجه التالي : ١٧٨ في المئة المدارس الثانوية ، و ٧٨،٦ في المئة المدارس الابتدائية ، و ١٨ في المئة الكماتيب ، كما بلغت الزيادة ٧٠ بالمئة في عدد الاولاد الذين بلغوا سن الدراسة ، والتحقوا بالمدارس .

ولهذا فان التعليم العالي سجل تقدماً كبيراً ، وكفى بجامعة بكين دليلًا على مقدار هذا التقدم . فقد أصبح فيها ٥١ مؤسسة للعلوم المختلفة ، أي بزيادة ٢٣ معهداً عن سنة ١٩٥٢ ، كما ازداد عدد اساتذتها بمقدار ٣٤٠٠ عن ذلك العام .

وأما في الناحية الصحية فقد أدركت الحكومة ايضاً نجاحاً لا يستهان به : فعدا تجفيفها كثيراً من المستنقعات ، واقامتها السدود ، وعنايتها برش الاراضي الزراعية بالأدوية الواقية فانها أعارت التفاتها الى تخريج المزيد من الاطباء ، والى انشاء المستشفيات والمصحات . وتقدر الزيادة في سنة ١٩٥٧ بالنسبة

لعام ١٩٥٢ بـ ٧٤ بالمئة في عدد الاطباء ، و ٧٧ في المئة في عدد السرر بالمستشفيات .

وأما من حيث رفع مستوى المعيشة فيقدر للدولة مساعيها في صدد مكافحة البطالة . وبفضل هذه المساعي ازداد عـــدد العمال والموظفين في عام ١٩٥٧ اربعـــة ملايين ومايتي الف شخص عن عام ١٩٥٢ ؛ كما يقدر لها مساعيها في زيادة مرتبات هؤلاء العمال والموظفين الى حد ان هذه الزيادة بلغت ٣٣ في المئة ، في حين ان الدولة حرصت على بقاء اثمان الحاجيـــات ثابتة على ما كانت عليه في سنة ١٩٥٢ ، وحرصت ايضاً على بقاء الضرائب الزراعية دون زيادة خلال الثلاث السنين الاولى من مشروع السنوات الخمس .

أضف الى ذلك ان الدولة أعارت اهتماماً شديدا الى الضمان الاجتماعي للترفيـه عن العمال والموظفين . فأضافت الى مخصصاته خمسة آلاف مليون ين واكثر .

هذا علاوة على ١٠٦٠ مليون ين أرصدتها لمساعدة الفلاحين في سنين المحل أو عند حلول النكبـــات الاخرى ، و ١١٧٠ مليون ين لأعالة عيل المجندين .

وهذه التدابير بالاضافة الى زيادة الانتاج الزراعي بمقـدار ٢٣،٣ في المئة عن عام ١٩٥٢ أدت الى ارتفاع مستوى معيشة الفلاحين الى حد كبير .

على ان هذا التقدم الذي أحرزه الشعب الصيني نتيجـــة لمشروع السنوات الخمس الأول لم يكن إلا بمثـــابة الخطوة

الأولى شطر تقدم أفضل ، ذلك لأن الدولة لم تلبث ان وضعت مشروع السنوات الخمس الثاني ١٩٥٨ - ١٩٦٢ ، وأهم ما تتوخاه في هذا المشروع الأمور التالية :

١ – زيادة انتاج الطاقة الكهربائية الى ٤٣ مليار كيلوات .

٢ – بلوغ انتاج الفحم الى ١٩٠ أو ٢١٠ مليون طن في السنة .

٣ – ايصال انتاج البترول الى ستة ملايين طن .

٤ – محاولة زيادة انتاج الصلب الى ١٢ مليون طن .

٥ – زيادة انتاج الاسمنت الى حوالي ١٤,٥ مليون طن في السنة .

٦ – زيادة انتاج المنسوجات القطنية الى ٥,٩ مليار متر .

وهذا المشروع الذي استهدفت به الصين ملافاة التقصير الذي حصل في بعض مقاطعاتها بالنسبة للبترول والمنسوجات القطنية والذي أبدت فيه اهتماماً خاصاً بالصناعات الاستهلاكية حرص مع ذلك على ان تبقى الصناعات الثقيلة تحتل المكانة الاولى .

المرأة في الصين

كان الصينيون ينظرون الى المرأة على اعتبار انها متعة من متع الحياة التي خلقت من أجلهم ، وذلك اسوة بالأمم الاخرى القديمة .

ولما شاء كنفوشيوس (٥٥١–٤٧٩ قبل المسيح) ان يوصي بالمرأة قال :

« الرجل رئيس وله الامر ، والمرأة مرؤسة فعليها الطاعة .
انما يجب ان يكون عمل كل منهما متمماً لعمل الآخر مثلما
ان أعمال السماء والارض متممة لبعضها البعض في التعاون
لحفظ نظام الكون . »

وكنفوشيوس يعتبر اشهر حكماء الصين المتشرعين ، وواضع
المذهب الاخلاقي ، وهو فضلاً عن انه جعل المرأة تابعة للرجل
في كل شيء فقد اعتبرها قاصرة في كل أدوار حياتها فقال :
« مثلما يتوجب على المرأة الطاعة لأبيها أو لأخيها البكر قبل
الزواج . فان ترملت تنتقل الولاية عليها الى اكبر ابنائها
الذي يأخذ على عاتقه حمايتها من الاخطار التي تهدد حياتها
وذلك بوداعة ومحبة . »

على ان الشريعة الصينية حظرت تعدد الزوجات ، وحددت
أسباب الطلاق ، إلا انها أباحت التسري إلى غير حد . وكان
من جراء ذلك ان استكثر الصينيون السراري الى حد ان
قصر الامبراطور كن آخر اسرة يو المشهور بفسقه وقسوته
كان يجمع بين ثلاثين الف امرأة على رواية لوتورنو في كتابه
La Condition de la femme P 247.

فعاشت المرأة الصينية خلال القرون الماضية كشخص غير
مستقل وفقاً لهذه التعاليم . وكانت تابعة للرجل في كل أدوار
حياتها . وقد فصلنا هذا الموضوع في كتابنا « المرأة في التاريخ
والشرائع » .

أما الآن فقد أصبح كل ذلك من ذكريات التاريخ لأن

القانون في النظـام الجديـــد ساوى بين الجنسين في الحقوق والواجبات ، سواء أكانت تلك الحقوق سياسية أم اجتماعيـة ، وسواء أكانت تلك الواجبات بيتية أم خارجية ، كما ساوى بين الرجل والمرأة في مقدار المرتبات والمكافآت .

ولقد جرت أولى الانتخابات في الصين عام ١٩٥٣ بمقتضى برنامج المجلس الاستشاري السياسي . وكان مشروطـاً في القانون الانتخابي انه يحق لكافة مواطني الجمهورية رجالاً ونساء الذين بلغوا الثامنة عشرة من العمر ان ينتخبوا وان يُنتخبوا على مستوى واحد .

وكان هذا الشرط مفاجأة بالنسبة للمرأة التي لم تكن على وجه عام تقدر وقتئذ هذه المساواة . لذلك ورغم الدعايات التي قامت بها الحكومة لتنشيط النساء بصورة خاصة من اجل الاقبال على ممارسة هذا الحق السياسي ، فلم يقبل وقتئذ على الاقتراع إلا قليل ، وكان اكثر المقترعين نساء ورجـالاً من المتقدمين في العمر .

غير ان التطور الفكرى في الاوساط النسائية لم يلبث ان مشي على عجل حتى اذا صدر الدستور في سنة ١٩٥٤ ناصـاً على المساواة التامـــة بين الجنسين في كل النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية أعربت المرأة عن سرورهـا التام لهذه المساواة . ولما جرت الانتخابات الثانية عام ١٩٥٦ كان اقبال النساء عليها كثيراً ولا سيما بين الشابات ، وزادت بالتالي نسبة النائبات . ومنذ ذلك الحين شرعت المرأة تلعب

دوراً ناجحاً وهاماً في كافه النواحى السياسية ، سواء أكان ذلك في مجلس الشعب الوطني ، وفي المجلس الاستشاري السياسي ، أم في دوائر الحكومة . وكان من نتيجة هذه الانتخابات ان أصبح للمرأة في المجلسين ١٤٨ نائبة أي بمعدل ١٢ في المئة من اعضاء المجلسين .

فالسيدة سونك - شونك - لنك برزت مواهبها في مجلس الشعب الوطني وانتخبت بين نواب الرياسة في المجلس . وهي من شهيرات سيدات العالم اللواتي قدن الحركة النسائية . وبرز سواهـا في المجلسين فانتخبن اعضاء في لجانها . والى ذلـك فان النساء ساهمن في مناصب الحكومة ، وتقلد بعضهن الوزارت ووكالات الوزارات : فلي ته شوان عينت وزيرة للصحة العامـة ، وشيه - لينك وزيرة للعدل ، وشين - ينك وزيرة للمراقبة ، وهو - هسينك لرياسة الشؤون الصينية فيما وراء البحار . بينما ان شنك - شين - شيو ، وشين - شنك - ينك ، واليو يا - هسينك ، ولو شو - شنك عُين وكيلات للوزارات المختلفة .

وفضلاً عن ذلك فان كثيرات من النساء غيرهن وسدت اليهن الوظائف الكبرى ، فكان منهن محافظات ، واعضـاء في البلديات ، ورئيسات محاكم وقضاة . وكان بينهن موظفـات في سائر ادارات الحكومة والاعمال الاقتصادية والثقافية والصحية ، واحتل فريق منهن مناصب عالية .

على انه مما يجدر ذكره هنـا ان المرأة الصينية ، وان أحرزت في العهد الحاضر مـا أحرزت من حقوق سياسية ،



المراة في الامس واليوم

●

في الاعلى

الصينية المتبرجة تتلصص
من وراء جدار منزلها
ابان عهد الحجاب

في الاسفل

الصينيات العاملات الآن
في طريقهن الى الحقول

ومارست ما مارست من الاعمال المجدية ، وذلك في نطاق الحكومة والمجتمع ، إلا أنها لم تدرك ، مع ذلك ، مستوى الرجل ، بل لا تزال متخلفة عنه في المناصب وفي سائر الحياة العامة . ويعود ذلك الى تأثير مخلفات العهود الماضية التي لا تزال راسخة في الأذهان ، والتي لا تفتأ بارزة في أوساط الهيئة الاجتماعية رغم ما يبدو للمسافر من نشاط المرأة ، ومن محاكاتها الرجل في الشؤون العامة .

هذا وقد رأينا نساء الصين عاملات في المعامل ، ورأيتهن يزاولن الفلاحة في المزارع لا فرق بينهن وبين الرجال ، بل قد يزيد عددهن في بعض المصانع والمزارع عن عدد الرجال . وشاهدتهن سائقات سيارات وكناسات طرق وعاملات في جميع مرافق الحياة .

على ان ذلك لم يسترع نظري كثيراً لانه اصبح مألوفاً في كل العالم الحديث ، ولكن الذي استرعى المزيد من اعجابي ذلك الانقلاب العظيم الذي حدث في اخلاق المرأة الصينية حتى كاد يحولها الى رجل .

ان المرأة مفطورة على الاهتمام بزينتها من لباس وجواهر ، وهي فطرة ترجع الى ان المرأة تستعين بزينتها لتستمد منها قوة تجعلها تستعيض بها عن ضعفها الجسماني فتضمن لها اخضاع الرجل القوي في عضلاته على اساس شريعة تنازع البقاء . ولكن المرأة الصينية وقد اعتمدت على نفسها في العهد الحاضر واستقلت بكسبها المادي وجدت في هذا الاعتماد على نفسها

في تأمين نفقاتها قوة تغنيها عن الزينة . فعدلت عنها وعزفت عن التبرج والتجميل ، والتزمت البساطة في لباسها الى حد انك تكاد لا تفرق بينها وبين الرجل . فلا بودرة تطلي بها وجهها ، ولا حمرة تصبغ بها شفتيها وخديها ، ولا كحل يسود جفنيها ، ولا تصفيف شعر يزين رأسها . وقد اسرفت في انكار انوثتها الى حد ان من يزر الصين ، ويرتاد اسواقها يتساءل اين المرأة ؟ ويتساءل اين الغانيات اللواتي هن زينة الحياة ، واين الفاتنات اللواتي تتوق النفس لرؤياهن ؟ ويتساءل ايضاً اذا لم تكن الصين قد خسرت بهذا التحول النسائي المسرف شطراً كبيراً من روحية الحياة وزهوها .

ويبدو اننا لم نكن وحدنا نشعر بهذا الاسف لخسارة المرأة جمالها ودلالها ورقتها وانوثتها . ذلك لانني علمت ان كثيرين من رجال الصين افتقدوا مثلي تلك الانوثة العذبة ، وشاركوني في هذا الشعور ، كما اني علمت بان بعض الجمعيات النسائية خفت لدعوة النساء الى العزوف عن الترجل ، والى العودة الى سيرة المرأة الاولى من حيث الزينة والتجمل بمقدار يتفق مع الكمال والجمال . ولا بدع فحب التناهي غلط ، وخير الامور الوسط .

مخلفات الماضي في الصين

قامت الصين بما يشبه العجائب في نهضتها الحديثة ، ولا سيما

في ناحية الانقلاب الاجتماعي ، ولكنها ، مع ذلك ، لمّا تدرك ركب الامم المتقدمة . وعذرها في ذلك يردّ الى ان هذه النهضة هي وليدة سنوات قلائل .

فالصين جادة في تأمين المساكن الشعبية اسوة بالاتحاد السوفييتي ، ولكنا لم نرَ في الصين ما رأيناه في روسيا من الاقبال الشديد على تشييد هذه المساكن وبمقداره ، كما انا لم نشاهد في أمهات المدن الروسية ما شاهدنا في الحواضر الصينية وفيما حولها من مثل الاكواخ البالية التي لا يزال يسكنها الصينيون .

والصين جادة في شق الطرق وتعبيدها ، ومد الخطوط الحديدية ، ولكنك ما ان تخرج من بكين مثلاً الى ضواحيها وارياتها حتى تستقبل طرقاً ضيقة مليئة بالحفر يكاد غبارها يغطي الفضاء .

والصين جادة في نشر المعارف ومكافحة الأمية حتى انك اذا تجاوزت سور بكين القديم وتوسطت احدى الاحياء الجديدة تأخذك الدهشة ليس لكثرة المنشآت الحديثة التي تقوم بها الحكومة بغية توسيع نطاق الجامعة وزيادة فروعها فحسب ، بل لأن المنشآت التي تبنيها تعدّ لتوسيع نطاق العلوم العملية كالتعدين والهندسة الميكانيكية والتكنيكية والكهربائية والزراعية . غير ان الصين لم تستطع سبيلاً مع ذلك لنشر العلم على حبه في سائر مقاطعاتها نظراً لاتساعها واكتظاظها بالسكان ، ونظراً لتعدد لغاتها ، ولصعوبة هذه اللغات بالاضافة الى ان بعض قومياتها

ليس لها لغات مكتوبة . اجل فانها لم تستطع ان تؤمن المدارس الـكافية لـكل الشعب واضطرت في سبيل مكافحة الأمية لان تلجأ الى طريقة المناوبة في المدارس التي أنشأتها . وذلك بتوزيع تلامذة هذه المدارس الى فئتين : فئة تدخل الصفوف صباحـاً الى الظهر ، وفئة تأتي اليها بعـــد الظهر الى وقت الانصراف في المساء .

والى ذلك فان الحكومة ما استطاعت ان تجعل التعلـيم اجبارياً ، وانما تؤمل ان تجعله كذلك مجانياً في نهـاية مشروع السنوات الخمس الثالث الذي ينتهي بنهاية عـام ١٩٦٧ . وهي الآن تكتفي بمنح المساعدات للفقراء ، ولا سيما المتفوقين من الطلبة ، وتسمح بان يؤدي التلميذ راتب المدرسة بمقدار استطاعة وليه فحسب . والصين تعنى عناية كبرى بالزراعة لانها مصدر ثروتها ، ولأن كثرة سكانهـا الساحقة من الزراع ، ولكنها لم تستطع حتى الآن ادراك القصد . واذا كان ما شاهدته حول العاصمة من مزارع يصح ان يكون نموذجاً لمستواها الزراعي فتكون الزراعة فيها لا تزال على درجة كثيرة التأخر بالنسبة لما شاهدته في الاتحاد السوفييتي ، وفي الولايات المتحدة : فهناك حول بكين رأيت الزراعة لا تختلف كثيراً عنها في القرن الماضي . واصحابها وان استعانوا بالموتورات والتراكتورات فهم لا يزالون يعتمدون على الحمير في الفلاحة وسائر الحيوانات . ويعتمدون عليها ايضاً في وسائل النقل .

وقد اهتمت حكومة الصين إهتماماً شديداً بزيادة الطـــاقة

الكهربائية لان الكهرباء في هذا العصر هي عنوان التقدم ، ولأن التمدن الحديث مدين لها في معظم اختراعاته ، ومدين لها في ازدهاره الاقتصادي والعمراني . وكانت الصين تستخرج الكهرباء من الفحم ، اما الآن فانها تولد هذه الطاقة من المحطات الكهربائية على الانهر . فزاد انتاجها بمقدار ضعفي ما كان عليه في عام ١٩٥٢ ، وبلغ مقداره ثمانية عشر مليون كيلوات . ومع ذلك فان هذا المقدار يعتبر قليل جداً بالنسبة لاتساع الصين ، وبالنسبة لحاجاتها الماسة الى الكهرباء . وحسبك ان تأتي الى بكين من موسكو ، حيث الانوار تتلألأ فتغني عن أضواء الشمس ، حتى تشعر بما بينهما من فرق كبير في قوة النور والاشعاع .

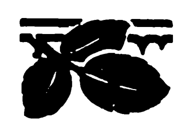
وهناك ملحوظات أخرى على الصين هي من مخلفات العهد الماضي أضرب صفحاً عنها ، واكتفي بالاشارة الى أمرين منها :

الأول ما رأيته في معبد الآلهة في شنغاي ، وفي بعض الاحياء القديمة ، من الوساخة في حين ان معابد الآلهة ، سواء أكانت عبادتها لا تزال تتفق مع مبادىء الحكومة أم لا ، جديرة بان تبقى مشمولة بعنايتها الكاملة .

والثاني ما رأيته شائعاً هناك وفي الهند ايضاً من عادة كثرة البصق والبصاق . وقد رددت ذلك في الهند الى استعمالهم مضغة من شأنها ادرار اللعاب ، أما في الصين فلا أدري مصدرها ، ولعلها ترجع الى نوع الغبار ولكثرة انتشاره . على ان الفنادق والمخازن احتاطت للأمر ، وأعد كل منها مباصق لا يتعداها

الناس ، بيد ان هذه المباصق نفسها مدعاة في بعض الاماكن لتقزز النفس : فقد زرت مخزناً كبيراً في شنغاي معداً لبيع المجوهرات ، فأكرمني مديره وأدخلني الى قاعة خاصة برؤساء الصناع ، وكانت المبصقة قريبة مني وهي طافحة بالنفايات فلم يسعني إلا الابتعاد عنها قرفاً من منظرها ، بينما هم لا يجدون في هذه المباصق ما يقزز النفوس ، ولا يجدون في البصق على مرأى ومسمع من الناس شيئاً مكروهاً .

وبعد فنحن لا نورد هذه الملحوظات من قبيل الانتقاد ، حاشا وكلا ، ولكنا نشير اليها استكمالاً للبحث النزيه . على ان الصين لا يضيرها تخلفها في بعض النواحي لأن أمة مثلها عريقة في التاريخ ، حريصة على تقاليدها ، عديدة العناصر ، واسعة الأرجاء ليس من السهل تحويلها ، بليلة وضحاها عما وجدت عليه آباؤها وأجدادها . وما السنوات القليلة التي اجتازتها الصين العزيزة في تاريخها الحديث إلا كلمح البصر بالنسبة لحياة الامم .



الفصل الخامس

الاوضاع السياسية بالصين
في القرون الاخيرة

القضاء على الامبراطورية

اول جمهورية في الصين – الدكتور سن – يت – سن

ولد في مقاطعة كوانـــغ – تنغ من اعمال الجنوب ، في القرن التاسع عشر ، مولود لفلاح فقير اطلق عليه سان – يت – سن . وقد تلقى هذا الولد علومه الابتدائية في كتّاب القرية الى جانب المعبد ، ثم استكمل علومه الثانوية في احدى مدارس الارساليات الدينيـة الاوروبية ، وانتقل منها الى هونكونك ، المستعمرة الانكليزية ، حيث درس الطب .

وقد ترعرع هذا الشاب المتنور خلال الازمات السياسية التي منيت بها بلاده ، وكان يسمع منذ صغره بحربي الأفيون اللذين شنتهما على الصين كل من انكلترا وفرنسا ، وما آلتا اليه من فرض ضرائب كبيرة على وطنه المهزوم ، ومن فتح ابوابه للاستعمار والاستثمار .

وعاصر هـذا الفتى الحرب التي اشهرتها اليابان على الصين مـن اجل كوريا (١٨٩٤ – ١٨٩٥) . اليابان التي لا تتعدى بمجموعها مقاطعة من مقاطعات الصين ، ورأى كيف انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بفضل نهضتها الحديثة فاجتزأت منها جزيرة فورموزا وبانكو ومرفأ ارثور ، وكيف فرضت عليها مثـــل الامتيازات التي فرضتها اوروبا .

ثم عاصر صن – يت – سن الحرب الأخرى التي اعلنها عام ١٨٩٨ كل من المانيا وروسيا وانكلترا وفرنسا على الصين تلك الحرب التي افضت الى انـتزاع بعض مقاطعاتها ، والى اقتسام هـذه الدول مناطق النفوذ ، وادراك المزيد من الامتيازات ، وكيف ان الولايات المتحـــدة الاميركية جاءت عقب ذلك تشارك غيرهـا في هذه الامتيازات حتى امست الصين كمزرعة المستعمرين .

فكان من الطبيعي ان يستولي الحزن على هـــذا الشاب المتنور لما اصاب وطنه من الكوارث ، ولما يتوقع له من سوء المصير . على ان الذي كان يؤلمه اكثر فاكثر مواقف حكومة منشو في بكين تجاه الحركات الوطنية التي تقع تباعاً من اجل

تحرير بلاده من الاستعمار وانقاذها .

فبالامس الاول نجحت ثورة تايبنغ واقامت حكومة وطنية في نانكين (١٨٥١ - ١٨٦٤) وشرعت تضع اصلاحات كان يرجى منهـا كل الخير ، فاذا بحكومة الامبرطراة في بكين تستعين بالاجانب عليها ، والأجانب حريصون على ان لا تتحرر الصين ، واذا بهذه الحكومة تلاقي حتفها بجند المستعمرين واموالهم قبل قطوف ثمراتها .

وبالامس نجحت حركة الاصلاح في الصين التي قامت سنة ١٨٩٨ ، كما نجحت حركة يي - هو - توان التي خلفتها ، والتي كان مدارها الاحتجاج على استئثار الاجانب بمنافع البلاد ، فاذا بحكومة الأمبراطرة في بكين تستعين ايضاً بالمستعمرين ، وتقضي على الحركتين الوطنيتين في المهد .

وكان سان - يت - سن وهو يفكر في هذا الموقف المخزي لا يتألم ويتحسر على ما حدث فحسب ، وانما يحزن للعواقب التي وقعت من جراء اعتماد دولته على الاجانب . انها امست ، نتيجة لذلك ، مستعمرة يستثمرها الاجانب باموالهم ، ويذللونها بديونهم ، وليس لها من الاستقلال الا اسمه .

اذن فقد رأى الدكتور سان - يت - سن ان الواجب يدعوه لتلبية نداء بلاده ، والمساهمة في تحريره . وكانت الصين قد بدأت تتحسس بالنهضة العالمية بعد اختلاطها بالاجانب ، وكان قد نشأ فيها نشأ جديد اتيح له ان يقتبس ، مثل سان - يت - سن ، العلوم الحديثة ، فما ان ناشد الدكتور هؤلاء

للتضامن من اجل انقاذ البلاد حتى التف حوله فريق منهم ، وساهموا معه سنة ١٩٠٥ في تأليف عصبة كانت غايتها المطالبة باسقاط الامبرطورية ، وبانشاء جمهورية دستورية من الشعب وللشعب .

ولكن انى للقلة ان تصمد تجاه الكثرة التي يظاهرها الاستعمار . ولما حكم على الدكتور سن ـ يت ـ سن بالأعدام ما وسع هذا الا ان يركن الى الفرار . وقد قضى شطراً من شبابه متنقلاً في اوروبا واليابان يراقب احوال بلاده ويدعو الى تحريرها . غير ان هجرته هذه خدمت مبدأه اذ الفتت انظار الصينين الى دعوته واكثرت انصاره ، هذا فضلا عن انها رفعته الى مرتبة الزعماء ، وحملت مهاجري الصين ، حيث كانوا ، على امداده بالمال .

وسرعان ما اختمرت الفكرة ، فما ان اصدرت حكومة بكين مرسوماً بتأميم الخطوط الحديدية قصد تسليمها الى الاجانب حتى ثارت بعض المقاطعات الجنوبية واعلنت استقلالها الواحدة تلو الاخرى . ولمّا أعلنت الجمهورية الاولى سنة ١٩١١ في نانكين وانتخبت سن ـ يت ـ سن رئيساً لها ، انقسمت بذلك الصين الى دولتين : شمالية تابعة لامبراطورية منشو في بكين ، وجنوبية تابعة لجمهورية نانكين .

وقد بادرت حكومة الامبراطورية لتعيين يوان شيه كه زعيم الرأسماليين قائداً اعلى للجيش للقضاء على الجمهورية ، فاستأثر هذا بالسلطة في بكين حتى حمل بو ـ يي آخر

امبراطرة منشو على الاعتزال في سنة ١٩١٢ . وكان هذا آخر عهد الامبراطرة .

غير ان هذا الزعيم المتسلط ساعدته الظروف لان يعيد الى الصين وحدتها دون حرب . ذلك لان انصار الدكتور سان — يت — سن، سواء اكانوا من عصبته ام من زعماء الثورة ، لم يلبثوا ان جنحوا الى الوحدة ، ثم ما ان دعاهم يوان شيه كه الى الاستسلام حتى وقع الانقسام في صفوفهم فما وسع الدكتور سن — يت — سن الا الاعتزال من منصبه حقناً للدماء. وذلك في ١٠ شباط سنة ١٩١٢ . ولقد عادت الصين بذلـك الى وحدتها ؛ ولكن الامبراطورية لم تعد بل اصبح يوان شيه كه رئيساً للجمهورية الى ان قضى نحبه في سنة ١٩١٦ . هذا وقد مات سن يت سن في ١٢ مارس ١٩٢٥ ولكن زوجته التي كانت ساعده الايمن ظلت امينة على مباديه عاملة في سبيل تحرير بلادها . ولما قامت الثورة الشيوعية ضد عديلها شان — كاي — شك تخلت عن قريبها وانضمت اليها ، فقدر لها زعماء الثورة عملها ، وانزلوها في اعلى المراتب ، وهي الآن تتبوأ نيابة الرياسة في المجلس الاعلى . على انها فضلا عن مكانتها السياسية ظلت ترعى المشاريع الاجتماعية وتترأس كثيراً من الجمعيات .

على ان الجمهورية الشعبية القائمة لم تنس واجبها نحو سن — يت — سن فقد اقامت له في نانكين ، عاصمة الجمهورية الاولى ، تمثالا فخماً ضمن حديقة عظيمة ، يقوم فوق مدفنه الفخم ، وهو يزار في الصين ، كما يزار لينين وستالين في موسكو .

وكان الشعب الصيني قد اهدى لسن - يت - سن بعد اعتزاله الحكم داراً فخمة في شنغاي تقديراً لجهوده وهو مؤلف من طابقين وحديقة. وطاب لنا ان نزور هذه الدار قبل مغادرة الثغر. وهي وان لم تكن كبيرة الحجم الا انها جميلة الهندسة، غنية بالرياش الفاخرة، حافلة بالتحف الثمينة التي لا توجد الا في قصور الاثرياء والامراء. واجمل شيء فيها مخلفات سن - يت - سن نفسه. فهنـاك مكتبته ومتحفه وسريره وصوره



(المؤتمر النسائي الديمقراطي العالمي)
(على مدرج مدفن سن - يت - سن ١٩٥٦)

وثيابه وكل شيء يتصل به . وكنا ابان ما نطوف في غرف القصر نكاد نرى ذلك البطل المشهور في تاريخ الصين الحديث ، وما يفوتنا الا شخصه .

وقد سألت القيّم على الدار اذا كانت زوجة سن-يت-سن تقيم فيها عند مجيئها الى شنغاي فقال « لا ، وانما تأتي لزيارتها . »

ولادة الحزب الشيوعي والحروب المدنية الاولى (١٩٢١-١٩٢٧)

اتاحت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) الفرص للرأسمالية لان تنمو نمواً سريعا ، ولان ترتفع نسبة اصحابها في الصين من ١٥ الى ٧٥ . كما ان تلك الحرب رافقتها عوامل اهابت بطبقة العمال للتفكير في حقوقهم ، ونشطت المثقفين للاهتمام في وضع بلادهم . وكان يرجع ذلك الى التأثير الشديد الذي اثرته ثورة روسيا الشيوعية عام ١٩١٧ في الاوساط الصينية ، والى ما كان لنجاحها من حوافز في الاوساط العمالية هناك والثقافية .

وفي ٤ مايس ١٩١٩ خف الطلاب الى الاحتجاج على معاهدة فرساي لما قررته بشأن مقاطعة شنغ تنغ ، وقام ثلاثة الاف منهم بمظاهرة صاخبة في بكين غير عابئين بمقاومة الحكومة ، وانتشرت هذه المظاهرات في بعض المدن الاخرى حتى حملوا الحكومة على العزوف عن توقيع هذه المعاهدة . فكانت هذه المظاهرات بمثابة البادرة الاولى للتجمع الشعبي ، كما كان نجاحها

منشطاً لتكتل الشعب وللاعلان عن رغباته .

وفي ١ تموز سنة ١٩٢١ تألف الحزب الاشتراكي الصيني ، وهو حزب سياسي كان قوامه العمال ، وكان هدفه تحقيق تعاليم لينين وماركس ، فاضطلع بقيادة الشعب لبناء مجتمع اشتراكي يقوم على انقاض الرأسمالية والاقطاعية .

وما بين سنين ١٩٢٢ و ١٩٢٤ حدث حادثان ساعدا هذا الحزب على الانتشار والازدهار .

١ - توقيع معاهدة ما بين الصين والاتحاد السوفييتي في ٣١ مايس ١٩٢٤ تخلت فيها موسكو عن الامتيازات التي كانت تتمتع بها اسوة بالدول الاجنبية في الصين ؛ واعترفت بحرية بكين في تقرير مكوسها وضرائبها .

٢ - اعادة مجلس الكومنتنغ سنة ١٩٢٤ Kuomintang

فهذه المعاهدة التي كانت اول معاهدة مع دولة اجنبية بعد الحرب العالمية الاولى والتي حررت بكين من القيود حولت قلوب الصينيين شطر الاتحاد السوفييتي ، وكانت بالتالي سببا لازدهار الحزب الاشتراكي الصيني وانتشاره .

واما اعادة مجلس الكومنتنغ فقد قام به الدكتور سن - يت - سن بمساندة الحزب الاشتراكي ، وكان هدفه :

١ - الاعتراف بحكومة موسكو .

٢ - التعاون مع الشيوعية .

٣ - حماية الفلاحين والعمال .

واعادة الكومنتنغ على هذه المبادىء خـــدم ايضاً الحزب الشيوعي ، وافضى بعد موت الدكتور سن-يت-سن ، في السنة التالية ، الى تعاون الحزبين ضد الرأسمالية والاقطاعية ، وضد الحكومة التي كانت تحميهما .

وكان بدء الالتحام بين الفريقين تلك المظاهرة الكبرى التي قام بها عمال الغزل في شنغاي سنة ١٩٢٥ ضـد الرأسماليين ، والتي قابلها رجال البوليس الانكليزي بالنار في المنطقة الدولية فقتل نفراً كبيراً من افرادها . تلك حادثة كان لها ما بعدها، انتشرت اخبارها في الصين فأثارت الرأي العام على الاجانب والحكومة سواء ، ولا سيما بين الاوساط العمالية .

وكان من عواقبها نشوب الثورة بكانتون في سنة ١٩٢٦ حيث اتحدت قوى الحزب الاشتراكي مـــع فرق الكومنتنغ وزحفت الى بكين ، فاحتلت بطريقها القسم الاكبر من وادي ينغست ، ولكن الحكومة استطاعت اخماد هذه الثورة بالقوة .

على ان الفشل الأشد الذي أصاب الثائرين بعد هذه الهزيمة حدث حينما انبثق حكم الكومنتنغ ، وقام أحـــد زعمائه شان كاي شك بحملة قوية على الحزب الاشتراكي في كل من شنغاي ونانكين وكانتون . وأفضى ذلك في النهاية الى القضـاء على الثورة الاولى .

الحرب المدنية الثانية (١٩٢٧-١٩٣٦) والاحتلال الياباني

كانت هذه الثورة حربا أهلية بين حكومة الحزب الاشتراكي

في نانكين وحكومة الكومنتنغ التي يرئسها شان كاي شك في ووهان . وقد شجعت هذه الحرب اليابان لاكتساح المناطق الشمالية في الصين عام ١٩٣١ ، ولأن يتقدموا منذ ١٩٣٣ لاحتلال مقاطعة أخرى .

وفي عام ١٩٣٥ عقد المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اجتماعاً في مقاطعة كويتسو وانتخب ماوتسي تونغ قائداً أعلى للجيش الأحمر الذي اتخذ يانان مركزاً له لمقاومة اليابان .

على ان الخطر الياباني لم يلبث أن وحّد قوى الفريقين المتنازعين ودفعهما منذ سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٤٥ للاشتراك في مقاومته . وقد انتهز السوفييت هذه الفرصة للظهور بمظهر المدافع عن الصين . فأشهروا الحرب على اليابان في ٨ آب ١٩٤٥ وحاصر جيشهم الذي كان يحتل كومنتنغ في الشمال الشرقي من الصين ، ثم لم تمض بضعة أيام حتى كان السوفييت يطوقون الحملة اليابانية .

الحرب المدنية الثالثة وقيام الجمهورية الشعبية ١٩٤٥-١٩٤٩

أُنقذت الصين من اليابان بمساعدة السوفييت فادت هذه المساعدة الى الحزب الاشتراكي الصيني اعظم الخدمات اذ اخذ ينتشر في الاوساط الشعبية يوماً بعد يوم . غير ان هذه المساعدة اهابت بالولايات المتحدة للتدخل ولمظاهرة شان كاي شك بالمال والعتاد بغية القضاء على الشيوعية و انصار موسكو . وتحت ستار

مراقبة الانسحاب الياباني احتلت امريكا المرافيء الصينية ، حتى اذا جلت القوى اليابانية عنها اسلمتها الى شان كاي شك مع الأسلحة اليابانية .

وحينئذ قام النزاع بين اميركا وروسيا من وراء الحرب التي استؤنفت بين الحزب الاشتراكي وبين الكومنتنغ الذي كان يرأسه شان كاي شك ، وذلك في تموز ١٩٤٦ .

وقد جرت خلال ذلك وساطات بين الفريقين لوقف القتال، ولكن الأجانب كانوا يحولون دون هذا الاتفاق . ثم كانت الحرب بينهما سجالاً في أول الأمر ، ولكن عطف الشعب على السوفييت أفضى ، في النتيجة ، الى انتصار الجيوش الحمراء : جيوش الحزب الاشتراكي ، فلم تلبث هذه ان احتلت نانكينغ مركز قوى شان كاي شك ، ثم اتبعتها خلال عام ١٩٤٩ باحتلال مدن أخرى بطرق سلمية ، أما شان كاي شك فما وسعه إلا الفرار الى جزيرة فورموزا التي اتخذها مقراً لحكومته ولا تزال بحماية واشنطن .

وفي ايلول ١٩٤٩ تنادى الحزب الاشتراكي والاحزاب الاخرى التي ايدته ابان الحرب لاجتماع عام عقد في بكين المذاكرة في أمر قيام الدولة الشعبية الاشتراكية . وقد عقد هذا الاجتماع في تشرين الاول ١٩٤٩ وأعلن ماوتسي تونغ الجمهورية مشيراً الى ان الشعب الصيني الذي يشكل بعدده ربع العالم أصبح حراً رافع الرأس .

هذا ولقد كنت ، وأنا في الصين أرى صور لينين وماركس

والجلس مرفوعة في كل مكان ، واسمع عبارات الثنـــاء على السوفييت من كل فم ، فاستغربت هذا التعلق بالاتحاد السوفييتي . ولكني ما ان استعرضت تاريخ الصين الحديث حتى زال مني هذا الاستغراب . ذلك لان الاتحاد السوفييتي كما يرجع اليه الفضل في انقاذ الصين من ثوراتها الداخلية التي كانت تأخـذ برقاب بعضها البعض فقد كان خير مساعد لانقاذ الصين من الاستعمار . وهو الى ذلك أظهر مرونة سياسية ما مثلهـا مرونة حينما لم يتّبع سياسة املاء الفراغ : أو سياسة « قم لاجلس مكانك » . هذا فضلًا عن ان الاتحاد السوفييتي استطاع ان يكسب قلوب الصينيين منذ عقد معاهدة مـــع الصين سنة ١٩٢٤ تخلّى فيها طوعاً عن الامتيازات التي كانت لروسيا في العهد القيصري ، وأطلق الحرية لها في تنظيم ضرائبها ومكوسها بينما ان الدول الغربية كانت حريصة على هذه الامتيازات ، وحريصة على تقييد حرية الصين في شؤونها الداخلية . واكـــثر من ذلك كانت تسمم الصين بالأفيون في سبيل دريهمات يكسبنها ، واذا احتجت بكين أو طلبت الرحمة كانت الدول الاوروبية تقابلها بالنار وبئس القرار .

ثم ما ان قامت الجمهورية الشعبية في الصـين عام ١٩٤٩ حتى بسط الاتحاد السوفييتي يده لمعونتها ؟ ولم تقتصر هـــذه المعونة على المساعدات العلمية والفنية ، بل تعدتها الى الناحيـــة المالية . وكان في كل ذلك يساعـد دون شروط ، على غرار السياسة التي يتبعها الآن حيال الدول العربية . فقابل الصينيون

وقد تساءلت وقتئذ ماذا يكون جزاؤهما ؟

أني أعلم علم اليقين لو ان هذه المؤامرة على نظام الحكم الشيوعي وقعت في روسيا لقامت القيامة ، وانتصب الميزان ، وكان جزاء القائمين بها الاعدام ، وكان عقـــاب الموالين لهم الموت والتشريد . أما في الصين فان أحداً لم يتعرض للنائبين بسوء . واكثر من ذلك فقد ظلا نائبين في المجلس اذ اعترف احدهما بخطئه ، واذ لم تتوفر الأسباب القانونية لادانة الآخر . وهل بعد هذا سماحة أرفع وأرحب من هذه السماحـــة التي تتمتع بها الصين ؟

هذا وعدنا من الصين معجبين بهذه الديموقراطيـة التي لا تزال تعيش في كنف الشيوعية . وعدنا من هناك ولكنـا لا نزال نقرأ انبـاء الصراع الذي يقوم بين الحزب الشيوعي ، وبين الاحزاب الاخرى المعارضة . وقد سمعنا خطاباً القاه رئيس الوزراء ضد احزاب اليمين مهدداً متوعداً ، وقرأنا أيضاً في ٢٧ - ١ - ١٩٥٨ نبـأ طرد شاون هان حاكم مقاطعة شيكيانغ مع ثلاثة من كبار مساعديه من الحزب الشيوعي بتهمة الانحراف عن مبادىء الشيوعية ، وذلك بناء على أمر لجنة الحزب المركزية.

وهـــذا يعني ان الصين وان دخلت في نطاق الشيوعية ، واصبحت في مظهرها شيوعية مائة بالماية على اعتبار ان الناس على دين ملوكهم ، ولكنها في الواقع ، لا تزال بجملتها في دور الانتقال من القديم الى الحديث بما في ذلك المبادىء الاجتماعية .

اجل فهي الآن ميدان صراع بين الشيوعية التي تعتنقهـا

هذه المعونات بالامتنان ، وقابلوها بالاخلاص في المودة ، ولا بدع فالناس مفطورون على حب من أحسن اليهم .

الاحزاب السياسية في العهد الحاضر

مصدر السلطات في الصين يعود الى هيئات ثلاث (١) مجلس الشعب الصيني (٢) المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية (٣) الحزب الشيوعي الذي يقف بالمرصاد لتنفيذ المبادىء الاشتراكية ، ولتوجيه البلاد شطر هذه المبادىء . على ان الصين لم تستسلم بكاملها للشيوعية ، وانما يقوم في مجلسيها المذكورين الى جانب الحزب الشيوعي ، ثمانية احزاب اخرى ، بعضها يؤيده على اعتبار ان مباديها تتفق مع مباديه ، وبعضها معارض . ولكن الاحزاب الصينية الممثلة في المجلسين متفقة الأهداف ، وكما تضافرت جهودها ابان الكوارث من اجل تحرير البلاد واستقلالها فانها تتضافر في الحاضر من اجل تقدم وطنها وازدهاره . وهذه نبذة موجزة عن تلك الاحزاب السياسية .

١ — الحزب الشيوعي .

انشىء هذا الحزب في ١ تموز سنة ١٩٢٤ ، وهدفه العمل لتحويل الصين الى المبدأ الاشتراكي : مبدأ ماركس ولينين ، وقد انتشر هذا الحزب في الاوساط العمالية ، وبين الطبقات التي على شاكلتها . وكان عدد اعضائه عند تأسيسه ٥٧ واحداً ، ولكن هذا العدد لم يلبث ان بلغ ٩٥٠ عام ١٩٢٥ ، ثم ٥٧٩٦٧ عام ١٩٢٧ . ولما عقد الحزب المؤتمر الوطني السابع في سنة ١٩٤٥ ، وذلك

الثاني من عام ١٩٥٥ .

ثم لما عقد المؤتمر الوطني الثامن عدّل الحزب نظامه وتبنى مشروع السنوات الخمس الثاني من اجل اضطراد التقدم في الاقتصاد الوطني ، وانتخب هيئته الجديدة من ٩٧ عضواً ، ومن ٧٣ رديفاً . اما لجنته المركزية فلا يزال على رياستها ماوتسيتنغ رئيس الجمهورية الحالي الذي استلم زمام الرئاسة منذ قيام هذه الجمهورية ، والذي يعتبر في نظر الصين المحرر الاكبر للبلاد .

٢ – لجنة الكومنتنغ الثورية

أنشئت هذه اللجنة سنة ١٩٤٨ خلال الثورة ضد شان كاي شك فضمت لفيفاً من الاحزاب الوطنية والديموقراطية . وقد قررت في مؤتمرها الثالث وحدة البلاد التي كانت تابعة للكومنتنغ . وأصابت كثيراً من النجاح بعد فوز الثورة وخلال قيام الجمهورية الحاضرة حتى صار لها ٥٩ نائباً في مجلس الشعب الوطني ، و ٢٥ مقعداً في المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية .

٣ – الكتلة الديموقراطية الصينية .

أنشئت هذه الكتلة سنة ١٩٤١ من قبل بعض الشبان ، ومن اعضاء الاحزاب الاشتراكية التي يتزعمها الحزب الشيوعي ، وساهمت في النضال ضد اليابان ، واستمرت على مؤازرتها لهذا الحزب من بعد . ولها الآن ٨٢ نائباً في مجلس الشعب الوطني ، و ٢٥ مقعداً في المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية .

٤ – جمعية الانشاء الوطنية الديموقراطية .

تألفت هذه الجمعية سنة ١٩٤٥ وقام بتأليفها بعض الصناعيين والتجار مع فريق من الطبقة العلمية والأدبية . وغايتها التقـدم الاقتصادي على أساس المبادىء الاشتراكية ، ولها ٦٣ نائباً في مجلس الشعب الوطني ، و ٢٥ مقعداً في المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية .

٥ – الجمعية الصينية لنشر الديموقراطية .

أنشئت هذه الجمعية عام ١٩٤٥ عقب الانتصار على اليابان . ومعظم اعضائها من طبقة العلماء والادباء والمربين . وبينهم فريق من اساتذة المعاهد العليا . وغايتها جمع شمل المثقفين وتوحيـــد جهودهم . ولها ١٦ نائباً في مجلس الشعب الوطني ، و ١٢ مقعداً في المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية .

٦ – الحزب الديموقراطي للفلاحين والعمال .

تألف هذا الحزب سنة ١٩٢٨ ، وهدفه حماية مصالح الفلاحين وعمال المصانع وغيرهم . ولما قامت الجمهورية الحاضرة نشط الى جمع شمل اصحاب الاعمال في كتلة واحدة ، وانضم اليه بعض الاطباء والمثقفين والاخصائيين . وله ١٩ نائباً في مجلس الشعب الوطني ، و ١٢ مقعداً في المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية .

٧ – حزب شيه - كانغ - تانغ .

أنبثق هذا الحزب من حزب قـــديم كان قد أنشىء في المهجر خلال ثورة ١٨٥١–١٨٦٤ ، وكان قوامه بعض الصينيين

المهاجرين الى امريكا وجنوبي شرقي آسيا . وقد اسس هؤلاء حزب شيه–كانغ–تانغ في سان فرنسيسكو عام ١٩٢٥ ، وغايته رفع مستوى الصينيين من مهاجرين ومقيمين ، ولا سيما الذين عادوا الى بلادهم من المهجر . ولهذا الحزب اربعة نواب في مجلس الشعب الوطني ، وستة مقاعد في المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية .

٨ – جمعية شيو – سن

قامت هذه الجمعية سنة ١٩٤٤ معتمدة على الطبقات المثقفة المعروفة في الاوساط العلمية والادبية والتربوية . وهدفها حمل هذه الطبقات على تأييد الانشاء الاشتراكي والتعاون مع القيّمين عليه . ولها ٢٤ نائباً في مجلس الشعب الوطني ، و ١٢ مقعداً في المجلس الاستشاري السياسي للشعوب الصينية .

٩ – عصبة الحكم الذاتي الديموقراطي لتيوان .

لا تزال جزيرة فورموزا التي لجأ اليها شان كاي شك بعد جلائه عن الصين موضع اهتمام شديد عند الصينيين . وهم لا يرضون بان يطلق عليها اسم فورموزا ، وانما يسمونها تيوان . وكان من مدعاة اهتمامهم بها ان أنشأ بعضهم في سنة ١٩٤٧ هذه العصبة ، وغايتها تحرير تيوان في أسرع ما يمكن من الوقت ، ومكافحة الاستعمار المتسلط عليها . ومعظم اعضاء هذه العصبة من أهل تلك الجزيرة المقيمين في الصين الشعبية . ولها نائبان في مجلس الشعب الوطني ، وستة مقاعد في المجلس الاستشاري للشعوب الصينية .

***

الشيوعية بالصين اقرب الى الديموقراطية من روسيا .

انتهى الصراع في الصين سنة ١٩٤٩ بانتصار انصار الكتلة الشرقية على اتباع الكتلة الغربية ، فانسلخت الصين عقب ذلك من نطاق النفوذ الأميركي لتدخل في نطاق الاتحاد السوفييتي ، وأمست بالتالي شيوعية كأية منطقة من مناطق هذا الاتحاد .

هذا ما كان يخيل إلي قبل زيارة الصين ، غير اني ما ان درست احوالها عن كثب حتى تأكد لي ان الشيوعية بالصين وان كانت تشرب من نبـــع واحد مع شيوعية روسيا : نبع ماركس وانجلس ، الا انها تختلف عنها في التطبيق . ذلك لانها في روسيا شيوعية مستبدة تطبقها دولة عمالية بروليتارية تفرض مباديها فرضاً دون هوادة ، بينما هي في الصين شيوعية اكثر ديموقراطية منها في روسيا تنشرها دولة شعبية تحرص على مراعاة الاقليات ومداراة العناصر ، وتعتمد على الزمان في نشر مباديها .

ـ ان دولتي بكين وموسكو متفقتان في الاساس حيال الشيوعية ، ولكنهما تختلفان في تطبيقها فمـــا هي اسباب هذا الاختلاف ؟

ـ اهم الاســـباب تعود الى اختـلاف الامتين في الأخلاق الفطرية ، وترجع الى تباين الأوضاع المحلية . هذا عدا ما بينهما من اختلاف في الظروف السياسية ، وفي مدة الزمن التي مرت على كل منهما بعد الانقلاب . وهذا ما سنبينه في مايلي :

● الاختلاف في الأخلاق

● بـــين الصين وروسيا بون شديد في الأخلاق الفطرية حتى

يصح اعتبار كل واحدة منهما مثالاً على التطرف في ناحيتين متعارضتين : فاهل الصين مفطورون على الوداعة وحب السلام نتيجة لتعاليم البوذية التي أخذوا بها خلال الاف السنين . واذا سمعناهم يرددون كثيراً في الوقت الحاضر كلمة السلام فانما هم يرددونها عن عقيدة واخلاص دون غاية . وهم مفطورون ايضاً على عدم التعصب للأديان جرياً على هذه التعاليم ، وذلك خلافاً لبقية الأمم التي كان الدين حافزاً لطوائفها على الاشتباك بحروب داخلية ودافعاً لها على الارتماء في احضان حروب خارجية مستمرة .

وهذه الاخلاق الفطرية التي يتحلى بها الصينيون ، والتي كان من ابرزها السماحة ، كان من عواقبها ان القيمين على المبدأ الشيوعي في العهد الحاضر ظهروا بمظهر هو اخف صلابة من الروس ، واكثر تساهلاً في تطبيق النظام الشيوعي .

واما الروس فان طبيعة بلادهم جعلتهم اقوياء الاجسام ، وبالتالي عنيفي الطباع ، وجعلتهم متعصبين لكل مبدأ يعتنقونه . وقد اشتهروا في تعصبهم للدين في عهد القياصرة حتى كان هذا التعصب هو الذي يحملهم على موالاتهم شن الحروب على آل عثمان دون هوادة . وقد نوه بذلك فيكتور بيرار في كتابه La mort de Stamboul الذي صدر في اوائل هذا القرن ، وذلك في سياق تعليل اسباب هزيمة روسيا في حربها ضد اليابان سنة ١٩٠٥ . وردَّ اهم اسباب هذا الانكسار الى ان الشعب الروسي لم يكن يفهم معنى لهذه الحرب لأنه ما كان يروق له

الا ان يقاتل السلطنة العثمانية تلك السلطنة التي تمثل الاسلام عدوّ دينه .

على ان الروس وان كانوا مخلصين ، في الوقت الحاضر ، بترديدهم كلمة السلام ، وبالدعوة الى نزع السلاح ، ولكن اخلاصهم في ذلك لا ينبثق عن طبيعتهم ، كما في الصين ، وانما يعود الى فكرة انسانية شريفة تتفق مع مصلحة الشيوعية ، وهم يرون ان عهد السلام اضمن لانتشار الشيوعية من عهد الخصام .

وكان من عواقب اختلاف الامتين في الطبائع ان الشيوعيين الروس ما ان استأثروا بالحكم في عهد لينين فاستالين حتى اسرفوا في العنف ضد خصومهم بغية القضاء على كل مقاومة ومناعة عند هؤلاء الخصوم تحول دون انتشار المبادىء الماركسية . وما الاخبار التي كنا نسمعها عن روسيا في هذا الشأن ونستنكرها الا انباء صحيحة ، وخالية من المبالغات ، ولا سيما بالنسبة لعهد ستالين الذي يلقبه السوفييت بعهد عبادة الفرد .

واما في الصين فهم ، وان تقبلوا فكرة الشيوعية واستأثر معتنقو هذا المبدأ بالحكم ، الا أن هؤلاء درجوا على تطبيقها ونشرها بطريقة تتفق مع طبيعتهم السلمية . فلم يمارسوا البطش والقسوة للقضاء على خصوم الشيوعية ، وانما اختاروا الاستعانة بالمدارس وبالدعايات وبالزمن لنشر مباديهم ، هذا فضلاً عن وسائل الترغيب والاقناع . نقول هذا وان كان خصومهم في الصين ، وفي خارج الصين لا يبرأونهم من استعمال العنف أحياناً .

● الاوضاع المحلية والظروف السياسية

● تعتبر روسيا جزء من اوروبا لذلك فلما انقلبت الى دولة شيوعية القت الرعب في قلوب ساسة الغرب ، وقضت مضاجع الرأسماليين والارستوقراطيين ، فخفوا جميعاً الى الاتفاق عليها، وتسابقوا الى إثاره الفتن بين شعوبها ، وفي الامصار التابعة لها .

وروسيا ليست كالصين بلداً واحداً ، وان تعددت قومياته وعناصره ، وانما هي دولة فسيحة الارجاء تمتـــد من البحرين البلطيـكي والاسود الى بحري الصين واليابان . وفيهـا شعوب كثيرة مختلفة العناصر والاديان والالوان لا تتصل بها بنسب وتقاليد ودين ، وفيها أقطار تستثقل حكمها ، وتعتبره من قبيـل الاستعمار .

لذلك فان هذا الواقع الجغرافي ، وتلك الظروف السياسية حملتا روسيا الشيوعية على ان تلجـــأ ، في البداية ، الى العنف والقسوة والبطش والارهاب لاحباط مؤامرات اعدائها الغربيين ، وللقضاء على كل مناعة في بـلاد هي وان كانت تعد في جـملة اجزائها بمقتضى التعبير السياسي ، ولكنها في الحقيقة بلاد تتربص بها الدوائر ، وتتحين الفرص للخروج عليها .

وأما الصين فهي على أوضاع تختلف عن أوضاع روسيا : تبنت الشيوعية وهي في عزلة عن العالم الغربي ، وتبنتها وهي مطمئنة البال لان الاتحاد السوفييتي اخذ على عاتقة حمايتها من الاخطار الخارجية . هذا فضلاً عن انها دولة واحدة وان تعددت

قومياتها ، ولا مستعمرات لها تضمر الشر ضدها . لذلك فانها لم ترَ حاجة ماسة لاستعمال البطش ضـــد شعبها في سبيل نشر مبادئها ، وانما التزمت في هذا السبيل الحكمة والاقناع .

يضاف الى ذلك ان الثورة الروسية كانت ثورة عمالية ، والعمال أكثر تكتلاً وتنظيماً من الفلاحـــين ، وأقرب تفهماً لمبادىء الثورة . وهي وان منيت بالفشل سنة ١٩٠٥ إلا ان الشيوعيين اتخذوا من فشلهم ذاك خبرة وعبرة حتى اذا واتتهم الظروف السياسية خلال الحرب العالمية الاولى استأنفوا الثورة سنة ١٩١٧ ، وقدر لهم النجاح .

وأما الصين البلد الزراعي الذي كان متفرق الافراد محروماً من العلم فان الشيوعية جاءته من الخارج ، وجاءته في اعقاب الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية . ولما أتيح لانصـــار الكتلة الشرقية ان يحرزوا الظفر في سنة ١٩٤٩ على أنصار الغربيين وقامت في بكين حكومة الثورة التزمت هـذه سياسة تتفق مع سعة بلادها الزراعية ، سياسة ، وان كانت لا تخـــلو من الشدة من أجل تطبيق مبادئها الجديدة ، الا انها سياسة حرصت على ان لا تنفر منها القوميات المختلفة ، وحرصت على ان تكون قائمة على الاحكام الدستورية .

ديموقراطية الشيوعية في الصين

وكان بالتالي من عواقب هذا الاختلاف بين طبيعتي الصينيين والروس ، وبين أوضاعها وظروفها السياسية ان بدا فرق

كبير بين البلدين في نظام الحكم . فهو في الاتحاد السوفييتي لا يزال حكماً تستأثر به قوة واحدة ، وأعني بها الحزب الشيوعي الذي يسيطر ويوجه باسم الشعب كله ، والذي لا يسمح بوجود شريك له في السلطة ، ولا يسمح بوجود احزاب أخرى معارضة . وهو ان سمح بوجود مستقلين بين الشعب ، وفي المجلس الا أنه لا يأذن بان يكون هؤلاء من المعارضين ، بل عليهم ان ينساقوا لتأييده ولتأييد نظامه الشيوعي .

وأما في الصين فان الشيوعيين وان كانت تؤيدهم كثرة الأحزاب السياسية ، وان كان عدد المنتسبين الى حزبهم ينوف على عشرة ملايين إلا أنهم سمحوا للناس بتأليف الاحزاب السياسية ، وبأن تتمثل هذه الاحزاب في المجالس الى جانب الحزب الشيوعي الحاكم .

حقاً ان الحزب الشيوعي صاحب الكثرة العددية هو المسيطر على الصين ، وان الشيوعية تبدو مهيمنة وحدها على البلاد حتى لا تشعر ، وانت في الصين ، بوجود حزب معارض . والواقع ان الاحزاب الاخرى أحزاب اليمين التي تمثل الرأسمالية لم تهن ولم تستكن ، وانما ما زالت ترفع أصوات المعارضة ، بل ما زالت تقوم تباعاً بمحاولات لقلب الحكم القائم . ولقد نشرت أنباء الصين خلال عام ١٩٥٦ أمثلة على هذه المحاولات ، ثم كان آخرها ما حدث في نهاية عام ١٩٥٧ إذ قام اثنان من نواب حزب اليمين المعارض لقلب نظام الحكم ، وقد فشلت أيضاً هذه المحاولة وألقي القبض على النائبين .

بعد جهاد ثوري طويل ضد الكومنتنغ الذي كان يرئسه شان كاي شك ، وضد الاحتلال الياباني ، ظهر ان الحزب قد سجل نجاحاً كبيراً اذ بلغ عدد اعضائه ٠٠٠ ، ٢١٤ ، ١ منتسب .

ومنذ ذلك اقبل عليه الشعب حتى اذا عقد المؤتمر الوطني الثامن في ١٩٥٦ كان عدد اعضائه قد ارتفع الى ١٠٢١٤٠٠٠٠ منتسب .

وهذا شيء كثير في حد ذاته ، الا انه بالنسبة للصين التي يبلغ عدد سكانها ستماية مليون نفس يعتبر قليلاً . وعلى هذا الاعتبار لا يمكن الحكم بان الصين اصبحت بكاملها شيوعية . واما مظهرها الشيوعي فتعود اسبابه الى ان الحزب الشيوعي هو الذي يحكم مباشرة ، وهو الذي يوجـــه البلاد الى مذهبه في كل مرافقها . وليس ذلك لأنه افضل الاحزاب تنظيماً وترابطاً فحسب ، وانما لأنه صاحب الكثرة في المجلسين بالنسبة لكل حزب من احزابها ولان بعـض الاحزاب الاخرى تؤيد مباديه . وقد ساعد هذا الحزب على الانتشار ، وبالتالي على الاستئثار بزمام الحكم ابلاؤه بلاء حسناً في تحرير الصين من ربقة الاستعمار الاجنبي ، وتزعمه الحروب الاهلية الثورية .

ولمـــا انتهى عهد الثورات وقامت الجمهورية الأخيرة على المبادىء الشيوعية ، واستتب الأمر لهذا الحزب شرع يقود الشعب في معركة التحول من النظام الرأسمالي الى النظام الاشتراكي ، سواء اكان ذلك في الزراعة والتجارة ، وفي الصناعات اليدوية ام في الصناعات الاخرى ، وشرع يؤممها تباعاً ابتداء من النصف

السلطات وبعض الاحزاب ، وبين الديموقراطية ـ الاشتراكية التي لا يفتأ السواد الأعظم من الشعب يحرص عليها ومعه بعض الاحزاب السياسية . ولا ادل على هذا من بقاء النظام الرأسمالي فاشياً بين الشعب رغم ما بذلته الحكومة والحزب الشيوعي من جهود لتحول البلاد عنه الى النظام الشيوعي ابتداء من عام ١٩٤٩ . وقد ذكرنا من قبل انه رغم هذه الجهود الجبارة فان ثلثي الأراضي الزراعية لا تزال في حوزة الافراد يستثمرونها بأنفسهم ولحسابهم ، وان ثلاثة ارباع الصناعات اليدوية لا تبرح تدار كذلك على ما كانت عليه ، وتستثمر من قبـــل الصناع اصحابها .

ونحن وان كنا نعتقد ان الانتصار النهائي في هذا الصراع سوف يكون من نصيب الشيوعية التي تظاهرها السلطات بيد اننــا نرجــح ان شيوعيتها ستواجه شيئاً من التعديل في بعض نواحيهــا تعديلاً ينسجم مع روح الشعب الصيني المشهور بشدة المحافظة على قديمه ، والذي لا يزال يكره ان يطلق عليه لقب شيوعي ، ويفضل عليه لقب اشتراكي .

ونعتقد كذلك أن الصين السائرة الى التقدم بخطى واسعة سوف لا تبقى سياسياً ضمن حظيرة الاتحاد السوفييتي متى أمّنت قوتها واطمأنت الى مصيرها – بل سوف تكون متى استغنت خطراً على كل جيرانها . ونعتقد ان اول خطوة سوف تخطوها للتحرر التـــام من اي نفوذ سيامي سوف تكون على غرار خطوة يوغوسلافيــا وزعيمها المارشال تيتو ، ثم تتلوها خطوات متتابعة تقرر مصيرها النهائي في النطاق السيامي .

بلى وان كثرة شعبها ووفرة ثروتها الطبيعية بالاضافة الى يقظتها وحنينها الى مجدها التليد كل ذلك سوف يجعلها قوة عظيمة في العالم ، وسوف يحملها متى استجمعت قواها واستكملت عدتها على ما يحمل كل انسان من الطمع بالتبسط واسترداد الامصار التي كانت تابعة لها في التاريخ .

وقد تنبأ بالخطر الاصفر غليوم الثاني امبراطور المانيا يوم فتحت الصين عينيها في أوائل هذا القرن ، وشرعت تراقب نهضة اليابان وتحن الى مجاراتها . أما الآن ، وقد خفت الصين الى تحقيق أمانيها ، وحققت في سنين قلائل نهضة جبارة لا تدرك عادة إلا بعد مرور نصف جيل ، وأما وانها لا تزال تمشي قدماً الى الأمام في كل النواحي فقد أصبح من حق العالم ان يترقب الخطر الاصفر على شكل جدي ، واضحى من حق برتراند رسل الفيلسوف البريطاني ان يتنبأ بخطرها على الاتحاد السوفياتي خاصة ، ولا غرو ، فالسياسة ليس لها صاحب .

* * *

« انتهى طبع هذا الكتاب يوم الاثنين في ٢٢ ذي القعدة »
« سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٩ حزيران ١٩٥٨ »

فهارس الكتاب

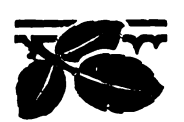
فهرست الرسوم

●

فهرست الاعلام العربية

فهرست الاعلام الاسلامية

●



فهرست الجزء الاول من الكتاب (١)

●

المقدمـــة

(١) وقع سهو مطبعي في ترقيم الفصل الرابع من الجزء الاول في الصفحة ١٣٥ وما بعدها وتصحح السهو في هذا الفهرست كما وقعت اغلاط مطبعية ارجأنا تصحيحها للطبعة الثانية .

فهرست الجزء الثاني من الكتاب

كتب المؤلف العربية المطبوعة

بحسب صدورها

●

صفحة	
٢٧٦	المرأة في التاريخ والشرائع
٣٠٤	فلسفة التاريخ العثماني (الكتاب الاول) اسباب ظهور السلطنة العثمانية وعلوها
٢٨٠	المرأة في التمدن الحديث
٠٨٠	اوليات سلاطين تركيا
١٣٧	الانتدابان في العراق وسورية
٢٨٢	فلسطين اندلس الشرق
٢٣٠	قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور (الجزء الأول)
٢٦٤	قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور (الجزء الثاني)
٢٤٠	الحلقة المفقودة في تاريخ العرب
١٣٥	فتاة الشرق في حضارة الغرب
٠٩١	واشنطن تعبد الطرق لموسكو في بلاد العرب والمسلمين
١٩٧	فلسفة التاريخ العثماني (الكتاب الثاني) اسباب سقوط السلطنة العثمانية وزوالها
٢٣٢	العروبة والشعوبيات الحديثة
٢٢٧	العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب
٣٨٢	أسرار ما وراء الستار الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية

طبع هذا الكتاب في

المطبعة التجارية

بيروت - تلفون ٢٤٧٣٩

